المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

مقرر الثقافة الإسلامية

(٢٠١)

إعداد
اللجنة العلمية
بكلية الدعوة وأصول الدين

١٤٣٥هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فلا يخفى ما للعلم الشرعي من أهمية بالغة ومنزلة سامقة في حياة الأمم والشعوب، في تصحيح مفاهيمها وتصوراتها للكون والحياة، في تعاملها مع ربها وخالقها تعالى بالتوحيد الخالص والعبودية الحقة، ومع البشرية في تهذيب أخلاقها وسلوكها وقيمها الفاضلة وفي شأنها كله كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]؛ لأن من المؤكد أنه لا صلاح ولا سعادة للبشرية جمعاء إلا بالعلم النافع والعمل الصالح ؛ والعلم النافع ما كان مصدره الوحي الرباني المعصوم، والعمل الصالح ما كان على هدي النبي، صلى الله عليه وسلم، وسنته.

ومن نعم الله تعالى علينا في هذه البلاد المباركة العناية بالتعليم الشرعي في جميع المراحل الدراسية، فقد نصَّت سياسة التعليم بالمملكة العربية السعودية على أن العلوم الدينية أساسية في جميع سنوات التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي بجميع فروعه، كما أولت الثقافة الإسلامية عناية خاصة حيث نصت على أن «الثقافة الإسلامية مادة أساسية في جميع سنوات التعليم العالي».

وذلك لأن من أهم أهداف التعليم الجامعي تخريج الكفاءات المؤهلة للمشاركة في التنمية الحضارية بكافة مجالاتها، وهذا التأهيل يتطلب العناية بجانبين:

الأول: الجانب العلمي والمعرفي من خلال المقررات التخصصية في شتى العلوم والمعارف وما يخدمها من معامل وبرامج تدريبية ونحوها.

الثاني: الجانب الفكري والسلوكي من خلال مقررات الثقافة الإسلامية التي تعنى بتزويد الطلاب والطالبات بقدر مناسب من المفاهيم الإسلامية، توضح لهم التصور الصحيح للكون والحياة، وتوضح لهم منهج الوسطية والاعتدال،وتحذرهم مناهج الزيغ والانحراف والانحلال، وتقرب لهم ما في الإسلام من حلول لمشكلات الحضارة والحياة.

ومن هنا أولت جامعة أم القرى، ومنذ غراس بذرتها الأولى التي كانت نواة للتعليم العالي في المملكة العربية السعودية ممثلة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، هذه المادة بمزيد من الاهتمام والعناية فقررت تدريس أربعة مقررات في الثقافة الإسلامية لجميع طلابها وطالباتها على تنوع كلياتهم ومختلف تخصصاتهم، وأَلَّفت لكل مقرر كتابا قام على تأليفه نخبة من كبار أساتذتها في ذلك الوقت، وقد حذت الجامعات الأخرى حذوها، وقررت

بعض الجامعات تدريس تلك المقررات نفسها.

ولما كانت صور الحياة متجددة ومطالبها متداخلة خاصة في هذا العصر الذي انفتحت فيه الشعوب بعضها على بعض، وسهل معها رحيل الثقافات من بيئة إلى أخرى مع تطور وسائل التواصل والاتصال، إضافة إلى بعض المستجدات العالمية والنوازل المستجدة مما يتطلب تحصينا للطالب الجامعي في عقيدته وفكره وسلوكه بما يمكنه من المحافظة على هويته الإسلامية واعتزازه بقيمه الإيمانية وصموده في وجه التيارات المنحرفة وتعامله الراقي والمتزن مع مستجدات الفكر والحياة.

وسعيا من الكلية في تحقيق الجودة العالية فيما يقدم لطلاب الجامعة من مقررات دراسية، ومنها مقررات الثقافة الإسلامية، فقد قامت الكلية، وبعد موافقة إدارة الجامعة، بتشكيل لجان علمية من مختلف التخصصات لإعادة صياغة وتأليف كتب الثقافة الإسلامية الأربعة لتكون مؤائمة لما أقره مجلس الجامعة من مفردات للمقررات، وما صدر من توجيهات عليها بضم بعض الموضوعات المهمة لمقررات الثقافة الإسلامية، مستفيدة من المقررات السابقة، وما استجد من موضوعات ثقافية مهمة وما تم إقراره في الجامعات الأخرى وتوصيات الندوات العلمية التي تمت إقامتها حول مقررات الثقافة الإسلامية..

ونظراً لكون هدف هذه المقررات هو تقديم الثقافة الإسلامية العامة فقد حرصت هذه اللجان على أن تكون الصياغة بلغة واضحة وسهلة بعيدة عن لغة التخصص الشرعي الدقيق، مع الحرص على عدم التوسع في التفريعات والخلافات المذهبية والتركيز على الأصول والكليات العامة التي يشترك في الاحتياج إليها الطالب المتخصص في العلوم الشرعية والمتخصص في فنون العلوم الإنسانية والطبيعية الأخرى، ولا تكون تكرارا لما يتلقاه طالب العلوم الشرعية في دراسته التخصصية.

وقد تمت مراجعة عمل كل لجنة عدة مرات، ثم تطبيقه ـ تجريبيا ـ في عدة فصول دراسية، واستصحاب ملحوظات أساتذة وطلاب كل مقرر على حدة، حتى خرجت بهذه الصورة التي نحسبها مرضية، إن شاء الله تعالى.

سائلين المولى عز وجل أن يتقبل من الجميع جهودهم وأن يجزيهم خير الجزاء وأوفاه، وأن يكتب لهذا العمل المبارك النفع والقبول، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عميد كلية الدعوة وأصول الدين

د/ محمد بن سعيد السرحاني

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أنزل القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وامتن على عباده المؤمنين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ثم الصلاة والسلام على نبينا محمد الرحمة المهداة والنعمة المسداة، أيده ربه بالوحي، وسدده به سيرة ولسانا، فكان ما أنزل عليه قرآنا يتلى وبه يستنار، وما صدر عنه سنة تقتفى وباتباعها يتقى العثار، وعلى آله وصحبه وتابعيهم ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو المستوى الثاني من مستويات الثقافة الإسلامية المقررة على جامعة أم القرى، وهو يهدف إلى التعريف بموضوع في غاية الأهمية لا يستغني عنه مسلم فضلاً عن كونه طالب علم، ألا وهو معرفة من أين يستقي المسلم دينه، وعقيدته، وعباداته، وتشريعاته، وأخلاقه، وما هو المصدر الحق الذي يعتمد عليه في ذلك كله، والمسلك القويم، الذي يسلكه المسلم تجاه مصادر دينه لتتحقق له السعادة الأبدية في الدارين.

ويتناول هذا المقرر الموضوعات التالية:

أولاً: المصادر الرئيسة، وهي:

١ ـ **القرآن الكريم كلام الله سبحانه**، تعريفه، نزوله، كيفية الوحي به إلى النبي ﷺ، حكمة نزوله منجماً، تكفل الله سبحانه بحفظه، تدوينه، جمعه، ثبوت نقل قراءاته، تعظيمه والسبل المحققة لذلك إضافة إلى أنواع إعجازه في الأسلوب والبلاغة والبيان، أو إخبار عن الغيب، وتصديق العلوم وحقائقها إلى غير ذلك، مما يدل على أنه كلام الله لا كلام بشر.

يلي ذلك دراسة متأنية لسورة الحجرات بصورة تبرز بعض الجوانب مما يتميز به القرآن من روائع في توجيه الإنسان فكراً وعقيدة وسلوكاً، لهدايته للتي هي أقوم على وجه العموم، وما في سورة الحجرات من ذلك وغيره على وجه الخصوص. وتم اختيار هذه السورة التي تسمى سورة الأخلاق لما اشتملت عليه من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وتربيته على القيم والأخلاق والآداب العامة والخاصة.

٢ ــ السنة النبوية، التعريف بها وبالحديث والخبر والأثر، رواية السنة، تدوينها، والتعريف بأهم كتبها، من صحاح ومسانيد ومعرفة أبرز أصحاب الكتب ومعرفة جهود أهل العلم في حفظها ونقلها وحمايتها من المدخول، ومعرفة منهجهم الدقيق في التحقيق والتحري، أهميتها ومكانتها من الكتاب، وكونها شارحة له ومبينة، ومكانتها في الدين عموما، من ضرورة اتباعها وان استقلت بحكم، وواجبنا نحو رسول الله ﷺ وسنته وصحابته وآل بيته الكرام... إلى غير ذلك.

ثانياً: المصادر الفرعية:

وبعد الوقوف على هذه المصادر الرئيسة نقف على بعض المصادر الفرعية المستندة إلى الكتاب والسنة، وهي:

١ـ الإجماع: تعريفه، وأنواعه وحكمه وشروطه.

٢ـ القياس: تعريفه، أدلته، أركانه، شروطه.

٣ـ الاجتهاد: تعريفه، ومشروعيته، شروط المجتهد، وكون الاجتهاد مستنبطاً من الكتاب والسنة ومعتمداً عليهما.

٤ ـ الفتوى: تعريفها، أهميتها، شروط المفتي، وصفاته، وأثرها على المستفتي. وهي التي يلجأ إليها المسلم لمعرفة الحكم الشرعي لمسألة ما إذا لم يكن قادراً على مباشرة الأخذ من الكتاب والسنة، عملاً بقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ثم نختم هذا المقرر بدراسة متأنية لطائفة من جوامع كلم النبي ﷺ ليقف طالب العلم على نماذج من سنة المصطفى ﷺ بغية فهمها واستنباط الأحكام والتوجيهات النبوية منها، وقد تم اختيار هذه الأحاديث ومراعاة موضوعاتها التي يحتاج إليها طالب العلم الجامعي في شتى تخصصاته وختمت بأحاديث دالة على تعظيم المكان (البلد الحرام) والمكانة التي حبى الله جامعة أم القرى بها.

إن هذه المصادر تتميز بثلاثة ركائز رئيسة، وهي على النحو الآتي:

فالركيزة الأولى: هي أن هذه المصادر ربانية، أساسها وحي الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، أُنزلت وفق علم الله كما قال سبحانه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]، وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[القصص: ٥٠]، وهي أيضاً لها ضمانة ربانية في حفظها وبقائها ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وهذا أمر لم يتأت لما أُنزل قبلها من شرائع.

الركيزة الثانية: نظراً لكون هذه المصادر ربانية نزلت من عند الله؛ فهي تامة وكاملة ؛ وموفية بكل ضرورة وحاجة للإنسان ما بقي له بعد نزول القرآن وجود كما قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

وهذا ظاهر في المصادر الرئيسة ـ الكتاب والسنة ـ، أما المصادر الفرعية فهي ـ كما سنرى ـ راجعة إلى الأصول الرئيسة من الكتاب والسنة، المصدر الرباني المعصوم وليست خارجة عنهما، وكذلك الإجماع فلا إجماع إلا ما كان مستنداً إلى دليل وأصل من كتاب الله تعالى أو سنة نبيه ﷺ.

الركيزة الثالثة: بناء على ما تقدم فإنه لا بد من الرضا والتسليم والانقياد التام لهذه المصادر دون زيادة عليها ولا نقصان منها، رضا بلا تردد، وتسليم بلا كراهة، وانقياد واتباع بلا مخالفة أو اعتراض. وذلك لكونها ربانية وكاملة، وهذه مكانتها التي لا تقبل غيرها، وقد جاءت النصوص الكثيرة بذلك، نسوق هنا بعضا منها:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فمسألة التسليم الكامل لهذه المصادر حاسمة لا مواربة فيها، ولينظر إلى هذا الموقف من النبي ﷺ، فعن عبد الله بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة؛ فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله ـ يعنى ابن ثابت ـ فقلت له: ألا ترى ما

بوجه رسول الله ﷺ؟! فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا. قال: فسري عن النبي ﷺ وقال: «**والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين**»(١).

وقد التزم سلف الأمة بهذا التسليم والتعظيم لما جاء به الوحي، فلم يعارضوا نصوص الكتاب والسنة برأي ولا نظر، ولاذوق وكشف، أو هوى ومواجيد نفس، وقد وقفوا حراساً أمناء لجناب الشرع ونصوصه.

فعلينا الاقتداء بهم، والتقفي لأثرهم والاستنان بسنتهم لنسعد في الدارين.

نسأل الله للجميع العلم النافع والعمل الصالح وبارك الله في الأعمار والأوقات، وجعلها عامرة بذكره وشكره وحُسن عبادته، وصلى الله على نبينا محمد نبي الهدى والرحمة وعلى آله وصحبه وسلم.

اللجنة العلمية

بكلية الدعوة وأصول الدين

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٨٨٣٠، بإسناد حسن (صحيح الجامع: ٥٣٠٨).

تقسيم موضوعات المقرر التدريسية

(من غير الاختبارات الفصلية والنهاية)

الأسبوع الأول	⟸	التعريف بالمقرر وأهدافه القرآن الكريم، قطعيته وتوثيقه وقراءاته (ص ٩-٣٠)
الأسبوع الثاني	⟸	تعظيم قدر القرآن الكريم (ص٣١-٥١)
الأسبوع الثالث	⟸	الإعجاز في القرآن، تاريخه وأنواعه (ص٥٢-٦٦)
الأسبوع الرابع	⟸	تفسير النصف الأول من سورة الحجرات (ص٦٧-٨٩)
الأسبوع الخامس	⟸	تفسير بقية سورة الحجرات (ص٩٠-١٠٧)
الأسبوع السادس	⟸	مكانة السنة النبوية ومنزلتها (ص١٠٨-١٢٠)
الأسبوع السابع	⟸	عناية المسلمين بالسنة النبوية (ص١٢١-١٣٧)
الأسبوع الثامن	⟸	واجبنا نحو رسول الله ﷺ وصحابته وآله (ص١٣٨-١٥١)
الأسبوع التاسع	⟸	الإجماع والقياس (ص١٥٢-١٥٨)
الأسبوع العاشر	⟸	الاجتهاد والفتوى (ص١٥٩-١٦٩)
الأسبوع الحادي عشر	⟸	شرح الأحاديث: الأول والثاني والثالث (ص١٧٠-١٨٦)
الأسبوع الثاني عشر	⟸	شرح الأحاديث: الرابع والخامس والسادس (ص١٨٧-٢٠١)
الأسبوع الثالث عشر	⟸	شرح الأحاديث: السابع والثامن والتاسع والعاشر (ص٢٠٢-٢٢١)

ملاحظة: وما تعذر تدريسه من مفردات فيكلف به الطلاب أعمالا فصلية.

القسم الأول: القرآن الكريم وعلومه

القرآن الكريم ـ مصدره وتوثيقه وقراءاته

تعريف القرآن الكريم:

القرآن لغة: في الأصل مصدر، من قرأ يقرأ قراءة وقرآناً نحو كفران ورجحان والأصل في هذه اللفظة: الجمع، فكل شيء جمعته فقد قرأته قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ – ١٨]، قال ابن عباس: «إذا جمعناه وثبتناه في صدرك فاعمل به، وقد خص بالكتاب المنزل على نبينا محمد ﷺ فصار له كالعلم، كما أن التوراة لما أنزل على موسى والإنجيل على عيسى ﷺ، قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه، لجمعه ثمرة جميع العلوم[١]، وقد يطلق القرآن على الصلاة لأن فيها قراءة، من باب تسمية الشيء ببعضه، وعلى القراءة نفسها[٢].

تعريف القرآن اصطلاحاً:

(هو كلام الله المعجز، المنزل على نبينا محمد ﷺ بلفظه ومعناه المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته)[٣].

وهذا التعريف اشتمل على أهم خصائص القرآن الكريم، وهي أنه كلام الله سبحانه وتعالى، المعجز المتحدَّى به البلغاء من العرب وغيرهم أن يأتوا بمثله، أو ببعض سوره وآياته، فلم يستطيعوا ذلك وسَلَّموا له بالإعجاز، مع استمرار التحدي به.

وكونه كلام الله فهو (غير مخلوق) لأن كلام الله من صفاته تعالى، وليس شيء من صفاته تعالى مخلوقاً.

وأنه منزل على نبينا محمد ﷺ، ليخرج الكلام الذي نزل على من قبله من الأنبياء والمرسلين كالتوراة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والزبور المنزل على داود، والصحف المنزلة على إبراهيم عليهم السلام؛ وكذلك يخرج أيضاً الكلام الإلهي الذي استأثر

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني (ص٤٠٣)، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ٣٠).

(٢) النهاية (٤/ ٣٠).

(٣) مناهل العرفان ١/ ١٩.

الله به في نفسه، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر، إذ ليس كل كلامه تعالى منزلاً، بل الذي أنزل منه قليل من كثير، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وأما قيد (المتعبد بتلاوته) أي المتقرَّب إلى الله تعالى بقراءته، المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، فأخرج الأحاديث القدسية المسندة إلى الله تعالى(١).

أسماء القرآن الكريم:

يسمى القرآن بأسماء كثيرة، جمع فيها العلماء مؤلفات خاصة، ومن أشهر أسماء القرآن:

١) **(الكتاب)** قال الله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وقال سبحانه وتعالى في أول سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١].

٢) **(الفرقان)** مصدر أطلق على القرآن، فصار علماً عليه، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. والراجح أن هذا المصدر استعمل بمعنى اسم الفاعل، أي أنه كلام فارق بين الحق والباطل.

أما تسمية القرآن (قرآناً، وكتاباً)؛ فكلا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه. قال العلامة محمد عبد الله دراز: «وفي التسمية بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً... فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة. ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

مصدر القرآن الكريم:

تقدم في الفقرة السابقة أن القرآن الكريم كلام الله عزَّ وجلّ، المنزل على نبينا محمد ﷺ؛ ولذا سوف نتعرف على هذا الموضوع من خلال ظاهرة الوحي، وبالنظر إلى حياة رسول الله

(١) على أن هناك فروقاً بين القرآن والحديث القدسي ستعرفها في موضعها عند دراستك للسنة النبوية.

ﷺ وأحواله كدليل على مصدرية الوحي، وأن الدور الوحيد للنبي ﷺ في هذا القرآن هو التبليغ.

أولاً: ظاهرة الوحي:

ظاهرة الوحي هي مبدأ اتصال عالم الغيب بعالم الشهادة، ويمثل الوحي مصدر المعرفة الإنسانية من عالم الغيب، في حين تمثل الحواس والعقل، مصدر المعرفة عن عالم الشهادة.

حاجة البشر إلى الوحي:

إن حاجة البشر إلى وحي الإلهي هي فوق كل حاجة وضرورة فوق كل ضرورة، ولذلك كان من أكبر نعم الله على البشر ومن أجل ما امتن به خالقهم عليهم إنزاله الكتب وبعثه الرسل كما قال سبحانه ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، فالرسالة (ضرورية للعباد لا بد لهم منها وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته؛ فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة وبيناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة؛ وهو من الأموات قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نوراً يمشي به في الناس. وأما الكافر فميت القلب في الظلمات. وسمى الله تعالى رسالته روحاً والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] فذكر هنا الأصلين وهما: الروح والنور، فالروح الحياة والنور النور[(١)]، فالوحي والرسالة الموحى بها، بهذه الأهمية، فما الوحي.

تعريف الوحي لغة واصطلاحاً:

الوحي لغة: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره.

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١٩ / ٩٣ ـ ٩٤ و٩٩.

ويدخل تحته:

١) الإرسال كما قال تعالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

٢) الإلهام الغريزي، كالوحي إلى النحل، قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ الآيات [النحل: ٦٨].

٣) إلهام الخواطر بما يلقيه الله سبحانه في رُوع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح، كالوحي إلى أم موسى، قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

٤) وسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٢].

٥) ما يلقيه الله تعالى إلى الملائكة من أمر ليفعلوه، كما في قوله ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢]

٦) الأمر الكوني للجمادات كما قال تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]، وقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٥].

٧) الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء، كإيحاء زكريا عليه السلام إلى قومه كما قال تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

وقد تحقق في وحي الله تعالى إلى أنبيائه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما: الخفاء والسرعة.

الوحي اصطلاحاً وشرعاً: يطلق ويراد به اسم المفعول أي الموحى به، فيكون معناه: كلام الله المنزل على أحد أنبيائه، وما أنزله عليهم من الشرائع والحكم(١).

---

(١) فتح الباري ١/ ٩، وعمدة القاري ١/ ١٤.

ويطلق ويراد به المصدر، بمعنى الإيحاء فيكون تعريفه: إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب، بواسطة أو غير واسطة(١)

صور الوحي:

ونعرض صور الوحي، مع الإشارة إلى الصورة التي نزل بها القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. فقد حددت هذه الآية الكريمة صور الوحي للنبي ﷺ ومراتب الوحي:

١ ـ **إلقاء المعنى في القلب**، وهو الذي عُبّر عنه بالوحي في الآية ـ وإن كان الجميع وحياً ـ وقد يدعى بالنفث في الرُّوع ـ بالضم ـ وهو القلب والخلد والخاطر. ويكون ذلك في اليقظة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. أو في المنام، وهي الرؤيا الصادقة، لأن رؤيا الأنبياء حق، كما في قصة إبراهيم مع ابنه عليهما السلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

٢ـ **الكلام من وراء حجاب**، يكلمه الله تعالى بكلام يسمعه ولا يرى المتكلم سبحانه وتعالى، وقد كلم الله سبحانه موسى عليه السلام من وراء حجاب ـ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]. وكذلك حين كلم الله سبحانه وتعالى نبينا محمداً ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

٣ ـ **تكليم النبي ﷺ بواسطة جبريل** عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وكان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ بعدة صفات وأحوال وهي:

أ ـ ظهور جبريل عليه السلام، لرسول الله ﷺ بصورته الملكية الحقيقية، وقد حدث ذلك مرتين، فعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يَا أُمَّتَاهْ، هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ:

(١) المدخل لدراسة القرآن، ص ٧٩، د. محمد أبو شهبة.

لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلاَثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُن فَقَدْ كَذَبَ، مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآيَةَ [المائدة: ٦٧] وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ ـ عليه السلام ـ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ(١).

ب ـ أن يأتيه في مثل صلصلة الجرس، كما في الحديث الآتي.

ج ـ أن يتمثل له المَلك رجلاً فيكلمه فيعي عنه ما يقول، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ الحَارِثَ بن هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَحْيَاناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**»(٢).

وإتماماً لصور الوحي، نورد حديث أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حول بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعبد ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١ ـ ٣]» فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**» فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً،

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٥) ومسلم (١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري(٢).

إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ... » الحديث(١).

وفي هذا الحديث وأمثاله دليل واضح على صدق النبي ﷺ مع نفسه، وعلى صدقه مع ربه، وأن أمر السماء فاجأه بغار حراء، فرجف فؤاده وانطلق يقول لخديجة: «**لقد خشيت على نفسي**» فلم يكن ﷺ في حالة من حالات الإشراق الروحي، أو حديث النفس، أو فيض الخاطر كما يزعمه بعضهم، ولو كان ينتظر مثل ذلك لما خشيه حين وجده أو وقع فيه، بل لفرح بذلك أشد الفرح؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وما يتبين منه صدق النبي ﷺ، فتبعاً يتبين منه صدق ما جاء به.

صدق ظاهرة الوحي:

وشواهد صدقه ﷺ من أوصافه وأحواله، وصفة ما جاء به، يصعب حصرها، فها هي حياة رسول الله ﷺ قبل البعثة واضحة المعالم محدودة المعارف والعلوم بحسب البيئة التي عاش فيها، بينما جاءت الموضوعات القرآنية شاملة ومتنوعة كما قال سبحانه ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقد جاء القرآن الكريم بشمول وتنوع عجيب ومحير، فلم يغادر بعموماته وإشاراته ومراميه شيئاً مما يمكن أن ينقدح لبشر في خاطر.

ومعلوم أن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض، حيث يخضع كل شيء لقانون الزمان والمكان، بينما يتخطى القرآن دائماً نطاق هذا القانون ليشير من خلال رحابة موضوعاته إلى أن دور نبينا محمد ﷺ فيه إنما هو الحفظ والوعي، أو الأخذ والتلقي والاستقبال، ثم التحمل وصدق الإبلاغ.

إن أي دراسة نفسية تحليلية لموضوع القرآن تدلنا على صدق ظاهرة الوحي وعلى مصدره.

وهذا الباب آفاقه رحبة واسعة تخرج بنا عن الإيجاز إن عرضنا لشواهدها.

على أننا قبل أن نبرح هذا الموضع، ودون الإثقال نقول خذ شاهدين إضافيين على صدق

---

(١) أخرجه البخاري في بدئ الوحي، برقم ٣.

نبينا محمد ﷺ وصدق ما جاء به، فلك أن تسأل هنا حول قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١ ـ ٣] من هو الذي يقول عن أبي لهب: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، ويحكم عليه من ذلك الموقف من مواقف السيرة أنه يبقى على كفره ولن يدخل في الإسلام، على كثرة من دخل فيه أفواجاً ممن كان في مثل عداوته للدين ومثل حربه عليه! وعلى ذلك يبقى مصراً على كفره حتى يموت.

وقل مثل ذلك في قوله تعالى في شأن الوليد بن المغيرة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]، وبقي الوليد كما أخبر القرآن على الحال المؤهلة إلى سقر بعد الرحيل، نسأل الله العافية، والشواهد هنا كثيرة لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة من صفحات الكتاب العزيز.

فهو إذن العلم الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو الذي أخبر عن أبي لهب، وعن الوليد، وكان كما أخبر.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، وصدق رسول الله الأمين ﷺ.

نزول القرآن والحكمة من تنجيمه:

لقد نزل القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في بيت العزة، جملة واحدة كما جاءت الآيات في ذلك منها قوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ ـ ٣]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١ ـ ٣]. قَالَ ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: فُصِلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَجَعَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يُرَتِّلُهُ تَرْتِيلاً، قَالَ سُفْيَانُ: خَمْسَ آيَاتٍ، وَنَحْوهَا[1]. قال ابن حجر: هذا القول ـ أي أن للقرآن نزولين ـ هو الصحيح المعتمد[2].

ثم ابتدأ نزوله على رسول الله ﷺ مفرقاً ومنجماً في أوقات مختلفة في ثلاثة وعشرين عاماً، حيث يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى(٧/ ٢٤٧) والحاكم(٢/ ٦٦٧) وقال صحيح ووافقه الذهبي.

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٢٠).

فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وكان أول ما نزل من القرآن الكريم قوله عزَّ وجلّ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

أما آخر ما نزل من القرآن الكريم على قلب رسول الله ﷺ هي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وقد روي أن النبي ﷺ توفي بعد نزول هذه الآية بتسع ليال فقط؛ والله أعلم(١).

الحكمة من نزول القرآن الكريم منجماً:

لقد كان لنزول القرآن الكريم منجماً على دفعات، في هذه المدة الطويلة، وفي مرحلتين (مكية ومدنية) كان له فوائد وحكم كثيرة، بعضها يتصل بشخص النبي الكريم ﷺ، وبعضها الآخر يتصل بالمجتمع الإسلامي الوليد الذي كانت تنزل عليه الآيات، وبعض هذه الحكم يتصل بالنص القرآني نفسه، فمن هذه الحكم:

١ـ تثبيت فؤاد النبي ﷺ، وإمداده بالقوة لمجابهة حملات المشركين، ودسائس المنافقين، قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢]. ويقول سبحانه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ [هود: ١٢٠]. ويقول سبحانه: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾ [الطور: ٤٨].

٢ـ الرد على مزاعم المشركين وشبههم واعتراضاتهم، التي يثيرونها بين الحين والآخر، قال الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، أي بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣]، أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم. وقال ابن عباس في تفسير (المثل): ما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم. قال: وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٢/ ٥٥٤، عن سعيد بن جبير.

عزَّ وجلّ بالقرآن صباحاً ومساءً، وليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً[١].

٣ـ رسم صورة مجتمع المنافقين والمشركين... وفضح أساليبهم ونواياهم، ومفاجأتهم بحقيقة ما يبيتون ويمكرون، قال الله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤].

٤ ـ لتسهيل حفظ القرآن على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، كلون من ألوان الحفظ الذي تكفل الله تعالى به: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. وقوله ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٨]، فقد اختار الله تعالى تنزيله على هذا النحو ليسهل على الناس حفظه، ولو نزل جملة واحدة لصعب حفظه عليهم.

٥ ـ تربية الأمة الناشئة وإعدادها لبنة لبنة،... فقد جاء القرآن ليربي أمة وينشئ مجتمعاً ويقيم نظاماً. لأن النفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة، وإنما تتحول رويداً رويداً، وتعتاد على تحمل تكاليفه فلا تجفل.

وقد أشارت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى هذه الحكمة البليغة في تنجيم القرآن، فقالت: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الْحَلاَلُ، وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لاَ تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَداً، وَلَوْ نَزَلَ لاَ تَزْنُوا لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَداً، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦]. وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلاَّ وَأَنَا عِنْدَهُ»[٢].

٦ ـ ولعل من أهم حكم تنجيم القرآن الكريم: **الدلالة على إعجازه وإثبات مصدره من الله تعالى**. فرغم تباعد نزول آياته وسوره فإننا نجد القرآن الكريم متسقاً هذا الاتساق المعجز، منسق الآيات والسور، محكم السرد، دقيق السبك، قوي الأسلوب.. إن في ذلك جميعه ما يشير بوضوح إلى مصدر هذا الكتاب الكريم، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]. ورغم تفرقه في النزول فإنه محكم كما قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٧.

(٢) أخرجه البخاري(٤٩٩٣)

جمع القرآن الكريم وتدوينه:

لقد كان حفظ القرآن الكريم في الصدور، وكتابته على الأدوات المختلفة المتفرقة قد تم في عهد رسول الله ﷺ، وقد أشرنا سابقاً إلى أن تسمية القرآن: قرآناً وكتاباً، تؤكد أن من حقه أن يكون مصوناً وموثقاً من طريق الحفظ والكتابة معاً، لأن الله عزَّ وجلّ كتب لهذا القرآن الكريم الحفظ والبقاء، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ومن عناية الله سبحانه وتعالى أن يسر وهيأ للأمة الأسباب التي تكفل للقرآن الكريم الحفظ والبقاء من خلال جمع القرآن حفظاً وكتابة في حياة رسول الله ﷺ، ثم تتابع الخلفاء على ذلك، خاصة في عهد أبي بكر الصديق، وعهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ولذا يمكن أن نقسم مراحل جمع القرآن الكريم وتدوينه إلى مراحل ثلاث ونوجزها فيما يلي:

المرحلة الأولى: حفظ القرآن الكريم وكتابته في حياة رسول الله ﷺ:

أ ـ الحفظ والجمع في الصدور:

لقد كان سيد الحفاظ وأولهم رسول الله ﷺ الذي أنزل الله عليه القرآن مفرقاً ليقرأه على الناس على مكث، والذي تكفل الله سبحانه له بحفظه وجمعه في صدره، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٧].

وقد كان سبيل حفظه ممهداً أمام النبي ﷺ وأمام الصحابة كذلك، واعتمادهم في الأصل إنما هو على الذاكرة دون الكتابة، بوصفهم أمة أمية، لهم كل خصائص الفطرة النقية، والذكاء الأصيل، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد كان جبريل يقرأ القرآن على النبي ﷺ في كل عام مرة، حتى إذا دنا حضور أجل رسول الله ﷺ عارضه جبريل بالقرآن مرتين. فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن فاطمة بنت النبي ﷺ ـ عليها السلام ـ قَالَتْ: «أَسَرَّ إِلَيَّ النبي ﷺ أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلاَ أُرَاهُ إِلاَّ حَضَرَ أَجَلِي»(١). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ يَعْرِضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ،

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٤).

وَكَانَ يَعْتَكِفُ كُلَّ عَامٍ عَشْراً، فَاعْتَكَفَ عِشْرِينَ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ»(١).

ثم يأتي دور الصحابة، رضوان الله عليهم، الذين كانوا يتسابقون في حفظ القرآن الكريم واستظهاره، فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ، حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ**»(٢).

وكان النبي ﷺ يحثهم على العناية بالتنزيل، ويبعث إلى من كان منهم بعيداً من يقرئهم ويعلمهم، كما بعث ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى أهل المدينة قبل هجرته، يعلمانهم الإسلام ويقرئانهم القرآن، قال عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن»(٣)، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا. وكانت النتيجة أن عدد الصحابة الحفاظ كان كبيراً، ويكفي أن نعلم أنه قتل منهم يوم بئر معونة ويوم اليمامة أربعون ومائة. وكان من الذين اشتهروا بحفظ القرآن من الصحابة: الخلفاء الأربعة، وطلحة، وسعد، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابن الزبير، ومعاوية، وأم المؤمنين عائشة، وأم المؤمنين حفصة، وأم سلمة، وهؤلاء كلهم من المهاجرين، رضوان الله عليهم أجمعين.

كما حفظه من الأنصار في حياة النبي ﷺ: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك، وكثيرون غيرهم(٤).

ويمكن القول: إن حفظهم للقرآن بهذه الأعداد الكبيرة يمثل جانباً ولوناً من ألوان التوثيق، إلى جانب أن بعضهم ربما قرأ أو عرض ما يحفظه على رسول الله ﷺ، وخص بعضهم بأن يؤخذ القرآن منهم لإتقانهم له، أخرج البخاري في فضائل القرآن عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: ذُكِرَ عبد الله بن مَسْعُودٍ عِنْدَ عبد الله بن عَمْرٍو فَقَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ لاَ أَزَالُ أُحِبُّهُ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عبد الله بن مَسْعُودٍ ـ فَبَدَأَ بِهِ ـ وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ،**

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٣٢) ومسلم (٢٤٩٩).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٢٣٤٣٧.

(٤) مناهل العرفان: ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢.

وَمُعَاذِ بن جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بن كَعْبٍ»(١).

وكان النبي ﷺ يتعهد أصحابه بالحفظ، فحيناً يطلب من أحدهم أن يقرأ عليه، كما طلب من عبد الله بن مسعود، رواه البخاري، وتارة يقرأ على بعض أصحابه، عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأُبَيٍّ «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[البينة: ١]»(٢).

ب ـ الكتابة والتدوين:

اتخذ النبي ﷺ كتاباً للوحي، أمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن، منهم الخلفاء الأربعة، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وثابت بن قيس، وغيرهم فكانوا يكتبون ما ينزل من القرآن بأمر من النبي ﷺ، واستخدموا الوسائل الممكنة في ذلك العهد، فكتبوا على رقاع الجلد، وجريد النخل، والأكتاف من عظام البعير أو الشاة، والأخشاب وقطع الحجر الأبيض الرقيق المعروف باللخاف، قال زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدما أمر بجمع القرآن: (... فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ وَالْعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ)(٣).

وزيادة في التوثيق والاهتمام والدقة، نهاهم رسول الله ﷺ أن يكتبوا شيئاً غير القرآن، فقال ﷺ: «**لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ**»(٤)، وذلك ـ فيما يظهر ـ حتى تتوفر جهودهم وهممهم على حفظ القرآن في المقام الأول، وإن كان كثير من العلماء يرى العلة في هذا النهي خشية اختلاط القرآن بالحديث.

ونخلص من هذه المرحلة بوجود نسخ من القرآن الكريم مكتوبة بين يديه ﷺ، ونسخ محفوظة في صدر رسول الله ﷺ، وصدور أصحابه، رضوان الله عليهم.

فبهذه الأمور الثلاثة تحقق حفظ الله سبحانه لكتابه، على عهد النبي ﷺ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

المرحلة الثانية: جمع القرآن الكريم على عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يحدثنا زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كاتب الوحي على عهد رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٨و٤٩٩٩) ومسلم (٢٤٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٠٩) ومسلم (٧٩٩).

(٣) أخرجه البخاري(٤٦٧٩).

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٠٤).

فيقول: «أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، وَعِنْدَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِي الْمَوَاطِنِ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ، إِلاَّ أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ الله ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ. قَالَ زَيْدُ بن ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلاَ نَتَّهِمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ ـ فَوَ اللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ ـ قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ وَالْعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. إِلَى آخِرِهِمَا وَكَانَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا الْقُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ»(١).

يدل هذا النص على أن الباعث على الجمع الذي تم في عهد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان بإشارة من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هو الخوف من أن «يذهب كثير من القرآن» بسبب استشهاد الحفاظ؛ لأن طريقة أداء المكتوب بين يدي رسول الله ﷺ لا تتأتى إلا عن طريق التلقين والرواية، وذهاب الذين حفظوا القرآن أيام النبي ﷺ يعوق الأداء؛ لأن القرآن كما قلنا لابد فيه من الكتابة والحفظ جميعاً !، والمنهج الذي رسمه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للجمع يؤكد هذا.

منهج أبي بكر في الجمع:

يتلخص منهج الجمع، كما رسم لزيد وأمر بتنفيذه، على وجوب الاعتماد على مصدرين: أولهما: ما كتب بين يدي النبي ﷺ. وثانيهما: ما كان محفوظاً في صدور الرجال. وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

وقد شارك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في موضوع الجمع بإشارة من أبي بكر

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٩).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فقد ورد أن أبا بكر قال لعمر وزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه»(١)، قال ابن حجر: وكأن المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن، وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ، لا من مجرد الحفظ(٢).

وطلب مثل هؤلاء الشهود لا يراد به أكثر من مجرد الاستظهار والاستيثاق وتسهيل عمل زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ...؛ لأن الأصل هو الحفظ المتواتر من قبل جمهور الصحابة، رضوان الله عليهم.

وجمع المتفرق على هذا النحو، كان سبيلاً ليحفز المجتمع ليشترك الجميع في العلم بما جمع، فلا يغيب عن جمع القرآن أحدٌ عنده منه شيء، ولا يرتاب أحد فيما يودع المصحف، ولا يشكُّون في أنه جمع عن ملأٍ منهم، هذا الجمع العلني والإعلامي في مجتمع فضل وعلم ودين، هو الذي قال فيه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع بين اللوحين»(٣).

المرحلة الثالثة: نسخ المصاحف على عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

إن تعدد المصاحف بجوار مصحف أبي بكر، وانتشار القراء في الأمصار، قد تسبب في تعدد القراءات، واختلاف القراء، وهذا ما استدعى لضرورة المرحلة الأخيرة من مراحل جمع القرآن الكريم، وهي التي قام بها الخليفة الراشد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ، أَنَّ حُذَيْفَةَ بن الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ، وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّامِ، فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ، مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلاَفُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ، اخْتِلاَفَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ؛ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ

(١) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف(٢٦حديث١٨) قال ابن حجر في الفتح (٩/ ١٤) ورجاله ثقات مع انقطاعه.

(٢) فتح الباري (٩/ ١٤ ـ ١٥)

(٣) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف(١٧و١٩حديث٩و١١) قال ابن حجر في الفتح: (٩ / ١٢)إسناد حسن.

بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بن ثَابِتٍ، وعَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ، وسَعِيدَ بن الْعَاصِ، وعَبْدَ الرَّحْمَنِ بن الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلاَثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وزَيْد بن ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ، أَوْ مُصْحَفٍ، أَنْ يُحْرَقَ»(١).

ومن خلال هذه الرواية نعلم أن اللجنة التي انتدبت للقيام بهذا العمل كانت مؤلفة من أربعة من خيرة الصحابة وثقاة الحفاظ ثلاثة من قريش، وواحد من الأنصار وهو زيد بن ثابت.

وقد استهدف الخليفة الراشد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من عمله في جمع القرآن ونشره وتعميمه أمرين أساسيين:

الأول: منع التماري في القرآن والشجار بين المسلمين بشأن القراءات المختلفة، لأن المصاحف العثمانية أضفت الصفة الشرعية على القراءات المختلفة التي كانت تدخل في إطار النص المدون ولها أصل نبوي مجمع عليه.

الثاني: حماية النص القرآني ذاته من أي تحريف، نتيجة إدخال بعض العبارات المختلفة عليها نوعاً ما، أو أي شروح يكون الأفراد قد أضافوها إلى مصاحفهم بحسن نية.

ولتحقيق هذين الهدفين فقد تميز هذا الجمع الذي سمي بالمصاحف العثمانية بالآتي:

أ ـ كتابة القرآن بلغة قريش لأنه إنما نزل بلسانهم، وهكذا احتفظت كلمة «تابوت» التي كانت تكتب «تابوه» في المدينة بشكلها المكي.

ب ـ جردت المصاحف العثمانية من كل ما ليس قرآناً، كالشروح والتفاسير التي كان يكتبها بعض الصحابة في مصاحفهم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، قد كتبها ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأضاف بعدها «في موسم الحج» بطريق الشرح والتفسير، لأنهم ـ كما تقدم ـ كانوا يكتبون هذه المصاحف لأنفسهم ويدونون عليها بعض التفاسير فهم آمنون من الالتباس.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٧).

ج ـ وأخيراً فإن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلف اللجنة بنسخ المصاحف بعدد الأمصار الرئيسة في الدولة الإسلامية، فأرسل إلى كل إقليم بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف خاص أن يحرق. وقد استجاب الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، لهذا الأمر لأنهم استوثقوا بأنه القرآن الكريم الذي حفظوه من رسول الله ﷺ، وهذا إجماع آخر منهم بعد إجماعهم على جمعه في زمن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القراءات القرآنية والقراء، والأحرف السبعة:

إن المبدأ الأساس في نقل القرآن الكريم هو التلقي والمشافهة ابتداء بالأخذ من النبي ﷺ وسماع القرآن منه مشافهة، ثم الأخذ المتواتر عمن أخذ عنه الصحابة، رضوان الله عليهم، وهكذا خلفاً عن سلف، وثقة عن ثقة، حتى ينتهي إلى النبي ﷺ.

ومن المعلوم أيضاً أن المصاحف لم تكن منقوطة ولا مشكولة عندما كتبت في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتقرأ الكلمة القرآنية بما تلقاها الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، عن رسول الله ﷺ، حيث إن تجرد المصاحف العثمانية من التشكيل والنقط، فسح المجال لاستيعاب القراءات المروية عن رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعريف القراءات وعددها:

القراءات جمع قراءة، وهي في اللغة مصدر سماعي لقرأ.

والقراءات في الاصطلاح: «علم بكيفيات أداء كلمات القرآن، واختلافها بعزو الناقلة»(١).

والمقرئ: «العالم بها رواها مشافهة»(٢).

ولقد بدأت المشافهة والتلقي ـ كما ذكرنا ـ عن الصحابة، الذين تلقوا القرآن من فمِ رسول الله ﷺ، ثم قرأ كل أهل بلد أو إقليم بما في مصحفهم وتلقوا ما فيه عن الصحابة، ثم قاموا بذلك مقام الصحابة بأتم عناية، حتى صارمنهم في ذلك أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم ويؤخذ عنهم، أجمع أهل بلدهم على تلقي قراءاتهم بالقبول، ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم، وانقسمت رواياتهم الصحيحة الثابتة المتواترة المشتملة على وجوه من القراءة إلى عشر روايات سميت بالقراءات العشر المتواترة.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٤٨٧ مناهل العرفان (١/ ٤١٢).

(٢) المرجع السابق.

طبقات الحفاظ المقرئين[١]:

وهذه نبذة قصيرة عن كل واحد من مشهوري القراء وهم[٢]:

١) ابن عامر: هو عبد الله بن عامر اليحصبي قاضي دمشق في أيام الوليد بن عبد الملك، ولد سنة ٨ من الهجرة، وتوفي سنة ١١٨ هـ، وهو من التابعين، وإمام أهل الشام في القراءة، ليس في القراء السبعة من العرب إلا هو وأبو عمرو، سمع من أبي الدرداء وواثلة بن الأسقع، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم، كان إماماً ثقة فيما أتاه، عالماً متقناً في حفظه، صادقاً في نقله، عرف بالرواية عنه اثنان من أعلام القراء: ابن ذكوان وهشام[٣].

٢) ابن كثير: عبد الله بن كثير الداري، أبو محمد، وأبو معبد، كان إمام الناس في القراءة بمكة، تحفه السكينة، ويحوطه الوقار، لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك.

وروى عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، وقرأ على عبد الله بن السائب المخزومي، وقرأ عبد الله هذا على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب، وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ، وتوفي ابن كثير سنة عشرين ومائة بمكة المكرمة.

وقد اشتهر بالرواية عنه ـ ولكن بواسطة أصحابه ـ البزي وقنبل[٤].

٣) عاصم: هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي. كان قارئاً متقناً، آية في التحرير والإتقان والفصاحة وحسن الصوت بقراءة القرآن، قرأ على زر بن حبيش، على عبد الله بن مسعود، على رسول الله ﷺ، وقرأ أيضاً على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي، معلم السبطين الحسن والحسين، وقرأ عبد الرحمن السلمي على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخذ عليٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قراءته عن رسول الله ﷺ، توفي عاصم بالكوفة أو بالسماوة سنة سبع وعشرين ومائة، روى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة[٥].

---

(١) المقرئون و القراء : جمع قارئ وهو في اللغة اسم فاعل من قرأ. ويطلق في الاصطلاح على إمام من الأئمة المعروفين الذين تنسب إليهم القراءات، ينظر مناهل العرفان (١/ ٤٥٦).

(٢) ينظر: طبقات القراء لابن الجزري.

(٣) ينظر: معرفة القراء الكبار (١/ ٦٧) والنشر (١/ ١٤٤).

(٤) انظر: غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ١٩٧ ـ ١٩٨).

(٥) انظر: غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

٤) **أبو عمرو**: زَبَّان بن العلاء بن عمار البصري. كان من أعلم الناس بالقراءة، مع صدق وأمانة وثقة في الدين. روى عن مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ، توفي سنة أربع وخمسين ومائة. وممن اشتهر بالرواية عنه الدوري والسوسي، ولكن بواسطة اليزيدي(١).

٥) **حمزة**: هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي مولى عكرمة بن ربيع التيمي. قرأ على أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش، على يحيى بن وثاب، على زر بن حبيش، على عثمان وعلي وابن مسعود على النبي ﷺ، كان ورعاً عالماً بكتاب الله، مجوداً عارفاً بالفرائض والعربية، حافظاً للحديث، توفي بحلوان سنة ست وخمسين ومائة، وممن اشتهر بالرواية عنه خلف وخلاد، ولكن بواسطة أبي عيسى سليم بن عيسى الحنفي الكوفي المتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة(٢).

٦) **نافع**: هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني. أخذ القراءة عن أبي جعفر القاري، وعن سبعين من التابعين، وهم أخذوا عن عبد الله بن عباس، وأبي هريرة، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالمدينة المنورة، توفي سنة تسع وستين ومائة.

وممن اشتهر بالرواية عنه قالون وورش(٣).

٧) **الكسائي**: هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي. كان أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم بالغريب، وكان أوحد الناس بالقرآن، فكانوا يكثرون عليه، حتى يضطر أن يجلس على الكرسي ويتلو القرآن من أوله إلى آخره وهم يسمعون منه ويضبطون عنه. توفي سنة تسع وثمانين ومائة.

وقد اشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والدوري(٤).

٨) **أبو جعفر**: هو يزيد بن القعقاع القاري. أخذ عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ، توفي سنة ثلاثين ومائة، وكان تابعياً جليل القدر، رفيع

---

(١) انظر: غاية النهاية في طبقات القراء: (١/ ١٢٧ ـ ١٢٨).

(٢) انظر: غاية النهاية في طبقات القراء: (١/ ١١٥).

(٣) انظر: غاية النهاية في طبقات القراء: (١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣).

(٤) انظر: غاية النهاية في طبقات القراء: (١/ ٢٣٩).

المنزلة، وقد اشتهر بالرواية عنه أبو موسى عيسى بن وردان الحذّاء، وأبو الربيع سليمان بن مسلم بن جماز.

٩) يعقوب: هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي، قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل. وقرأ سلام على عاصم وعلى أبي عمرو. توفي يعقوب سنة خمس ومائتين. وممن اشتهر بالرواية عنه روح بن عبد المؤمن، ومحمد بن المتوكل اللؤلؤي الملقب برويس وغيرهما(١).

١٠) خلف: هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب، قرأ على سليم عن حمزة، وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى، وعلى أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري صاحب المفضل الضبي، وعلى أبان العطار، وهم عن عاصم، توفي خلف سنة تسع وعشرين ومائتين، وممن اشتهر بالرواية عنه أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبد الله المروزي ثم البغدادي الوراق، وأبو الحسن إدريس بن عبد الكريم الحداد البغدادي المتوفى سنة اثنتين وتسعين ومائتين(٢).

شروط القراءة المتواترة:

لقد وضع العلماء ثلاثة ضوابط للقراءة المتواترة:

١- موافقة القراءة لرسم أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً.

٢- موافقتها العربية ولو بوجه.

٣- صحة إسنادها(٣).

فوائد الاختلاف بين القراءات الصحيحة:

لقد ذكر العلماء فوائد كثيرة منها:

١- الدلالة على صيانة كتاب الله سبحانه، وحفظه من التبديل والتحريف مع كونه على هذه الأوجه المختلفة.

٢- التخفيف عن الأمة وتسهيل القراءة عليها.

---

(١) انظر: غاية النهاية في طبقات القراء: (١/ ٤٤٨).

(٢) انظر: غاية النهاية في طبقات القراء: (١/ ١٢٠).

(٣) مناهل العرفان (١/ ٤١٨) وطيبة النشر ص ١.

٣- إعجاز القرآن الكريم في إيجازه، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرر اللفظ كقراءة ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦.] بالنصب والخفض في ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ ففي قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل، حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾، وقراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه، حيث يكون العطف على معمول فعل المسح ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ فنستفيد الحكمين من غير تطويل، وهذا من معاني الإعجاز في الإيجاز بالقرآن.

نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف وعلاقتها بالقراءات:

لقد تواترت نصوص السنة النبوية بأحاديث نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ فَرَاجَعْتُهُ فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»(١).

قال الطبري: الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، هن سبع لغات في حرف واحد، وكلمة واحدة، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني... وبأن الأمة أمرت بحفظ القرآن، وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت،.... ثم اجتمع أمر الأمة على ذلك، وهي معصومة من الضلالة... وأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف وجره ونصبه، وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة، فمن معنى قول النبي ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»(٢) بمعزل؛ لأنه معلوم أن لا حرف من حروف القرآن ـ مهما اختلفت القراءة في قراءته بهذا المعنى يوجب المراد به كفر المماري به في قول أحد من علماء الأمة، وقد أوجب عليه الصلاة والسلام بالمراء به الكفر، من الوجه الذي تنازع فيه المتنازعون إليه، وتضافرت عنه بذلك الرواية(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩١) ومسلم (٨١٩).

(٢) أخرجه النسائي في سننه الكبرى (١٠٤٣٧). وصححه الألباني في صحيح الجامع(١٣٧٤).

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (١/ ٥٢ ـ ٦٠).

وتتلخص الحكمة من نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف في أمور:

١- تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين، لكل قبيل منهم لسان ولا عهد لهم بحفظ الشرائع، فضلاً عن أن يكون ذلك مما ألفوه... وهذه الحكمة نصت عليها الأحاديث في عبارات.

٢- إعجاز القرآن للحالة اللغوية عند العرب، فتعدد مناحي التأليف الصوتي للقرآن تعدداً يكافئ الفروع اللسانية التي عليها فطرة اللغة في العرب، حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري ولهجة قومه، مع بقاء الإعجاز الذي تحدى به رسول الله ﷺ العرب، ومع اليأس من معارضته، ولا يكون إعجازاً للسان دون لسان آخر، وإنما يكون إعجازاً للفطرة اللغوية نفسها عند العرب.

تعظيم قدر القرآن الكريم

١) مكانة القرآن الكريم:

لقد اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ اللغة العربية لينزل بها آخر كتبه، وخاتمة رسالات السماء إلى الأرض، واخترنا ـ معشر المسلمين ـ لحمل أعباء هذه الرسالة ونشرها وإذاعتها في العالمين، قال الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقال سبحانه مخاطباً العرب: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقد اختار الله البيئة العربية حينها لتكون منطلقاً للرسالة الخاتمة لا لخاصية في العرب لعنصرهم، ولكن لخاصية كانوا عليها وهي أن أذهانهم كانت صافية ونفوسهم أقرب إلى الفطرة السليمة؛لأنهم أمة أمية لم تتشرب فلسفات معقدة، ولم تتشبث بأديان وضعية ولا محرفة، بخلاف ما كانت عليه بقية الأمم إبان نزول القرآن الكريم مما أهلهم ليكونوا أكثر استعداداً لتقبل النبع الصافي الخالي من التعقيدات وأصلح للاستمساك به في أول الأمر، ومن ثم لتحمل إبلاغه إلى البشرية كافة؛لأنه وإن نزل بلغتهم وابتدأ بهم، إلا أن خطابه عام لايستثني أحداً ممن على الأرض من إنس وجن.

ويمكن أن نلخص مكانة القرآن الكريم في النقاط التالية[١]:

١ ـ أن القرآن الكريم هو في الاعتبار الأول كتاب هداية وتشريع، ومنهج رباني للحياة الإنسانية.

٢ ـ إن القرآن الكريم رسم للإنسان المنهج العلمي وحثه عليه، وطلب منه تطبيقه وتنفيذه؛ وإعمال عقله في التفكر في ملكوت السموات والأرض، وتسخيرها لخدمة الإنسان.

٣ ـ أما الإشارات التي وردت في القرآن الكريم حول بعض القضايا الكونية والنظريات الطبيعية فقد جاءت كإطار أو حوافز للعقل الإنساني...؛ لأن القرآن الكريم أراد الله له أن يكون كتاب الإنسان في جميع العصور.

٤ ـ أن بعضاً من المفسرين القدامى حالت محدودية معارف عصرهم دون فهم المدلول العلمي لمثل تلك الإشارات ـ وبخاصة في عصور التقليد والانحطاط ـ فأخطؤوا في تفسيرها،

(١) ينظر: القرآن ونصوصه للدكتور عدنان زرزور، ص (٢٨ ـ ٣١).

وربما هرعوا إلى الروايات الإسرائيلية التي كانت تدور في الأصل حول موضوعات رئيسة منها الطبيعة وتفسير الكون... فدونوها في كتب التفسير على أنها شرح وبيان لبعض الآيات القرآنية الكريمة بحسب حدود معرفتهم واجتهادهم، فجانبهم في ذلك الصواب.

٥ ـ إن القرآن الكريم لم يأت ليفصل في العلوم الدنيوية كل شيء، وليس من طبيعته ورسالته أن يأتي بها مفصلة كما قلنا، لكنه لا يوجد فيه؛ ولن يوجد فيه اليوم أو غداً أو بعد غدٍ، ما يعارض حقيقة علمية ثابتة، ارتقت من درجة الفروض إلى مقام الحقائق التي لا يتطرق إليها الشك؛ ذلك لأن القرآن حق، فلا يمكن بحال أن يخالف الواقع والحقيقة العلمية ولأن أهل العلم التجريبي يستوحون الحقيقة من صنع الله عزَّ وجلّ، وأهل العلم الشرعي يستوحون الحقيقة من كلام الله عزَّ وجلّ ومن حديث رسوله ﷺ، والكلُّ في الحقيقة مرجعه إلى الله عزَّ وجلّ، إذ إن هذه الحقائق الطبيعية التي يكشف عنها العلم في بحوثه ما هي إلا نوع من كلمات الله الكونية، أو بعض من إرادته النافذة، كما أن آيات القرآن هي كلمات الله الشرعية المنزلة، فلا يمكن أن يكون ثمة تعارض بين كلمات الله الكونية وكلماته الدينية الشرعية، وليس ثمة تباين بين العلم والدين، فإن الله سبحانه هو مصدر الاثنين، وإذا بدا أن هناك اختلافاً فليس بين علم ودين، بل بين دين وجهل آخذ سمة العلم، أو بين علم ولغو لبس سمة الدين.

وعليه فما ينقصنا ونحن بحاجة إليه هو أن نجتهد في إيجاد المنهج العلمي الشرعي المنضبط الذي نميز به بين ما هو موافق من هذه النتائج التي توصل إليها العلم التجريبي لما تضمنته إشارات القرآن وما ليس كذلك، لتكون الإفادة على نحو بناء وسليم لنضيف إلى أصالتنا معاصرة تبدأ من حيث انتهت الحضارة المادية المعاصرة، دون أن نفتتن بكل جديد مطروح.

٢) خصائص القرآن الكريم:

لقد ذكر العلماء خصائص امتاز بها القرآن الكريم، وأفردوا لذلك مؤلفات، نقتبس منها ما يأتي: ﷺ

١ ـ القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه على الحقيقة بلفظه ومعناه، منزل غير مخلوق، وهو خاتم الكتب الربانية المنزلة على أنبيائه ورسله، وقد نزل به أمين الوحي جبريل عليه السلام، على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

٢ ـ القرآن الكريم جامع لأسس الرسالات السماوية السابقة، ولأصول الدين الذي ارتضاه الله سبحانه للإنسانية،، وفيه إكمال وإتمام لها لأنه خاتمة رسالات السماء إلى الإنسانية، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٣ ـ القرآن الكريم هو الكتاب الرباني المعجز في مبناه البياني دون غيره من الكتب، فقد تحدى الله سبحانه كل البلغاء من عهده ﷺ إلى أن تقوم الساعة، أن يأتوا بمثله فرادى أو مجتمعين، فعجزوا، واعترفوا له بالإعجاز، قال الله سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]. ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مفتريات: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، ثم نزل معهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال عز وجل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]. وأنى لهم ذلك.

٤ ـ القرآن الكريم هو الكتاب المعجز في مضمونه ومعناه، إذ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو تنزيل من عزيز حكيم.

٥ ـ إعجاز القرآن الكريم الدائم، هو الدليل الخالد المستمر الذي يخاطب الإنسان أنه كلام الله سبحانه حقاً وصدقاً، ومنزل من عند الله سبحانه يقول سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾ [فصلت: ٥٣].

٦ ـ القرآن الكريم هو الكتاب المحفوظ، المصون من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، بمقتضى الكفالة الربانية المعلنة على مرّ الدهور، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وصدق الله وعده وأنجز عهده، فقد تهيأ للقرآن الكريم من وسائل الحفظ ما لم يتهيأ لأي كتاب آخر في تاريخ الإنسانية، وذلك ظاهر بفضل الله؛ وعليه فيجب الاعتقاد بأن القرآن

الكريم الذي بين أيدينا الآن هو كلام الله تعالى الذي نزل به جبريل الأمين على قلب رسول الله ﷺ، من غير زيادة ولا نقصان، ومن اعتقد بأن القرآن الكريم فيه تحريف أو نقصان أو زيادة، فقد كذّب الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ومن كذّب الله سبحانه وتعالى فهو كافر خالد في نار جهنم وبئس المصير.

٧ ـ وكما حفظ الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم، فقد يسر سبل نشره في أقطار الأرض لتقوم حجة الله البالغة على عباده، وتنقطع أعذارهم، وهو مشتمل على الرسالة والبلاغ المستمر، للأمانة التي حملها رسول الله ﷺ المبلغ عن الله سبحانه وتعالى.

٨ ـ القرآن الكريم هو المصدر الرباني المعصوم للمفاهيم الإسلامية كلها، من عقيدة وتشريع، ويشتمل أيضاً على كل ما يضبط السلوك الإنساني، ويقوم أنماط الحياة.

٣) مضمون القرآن الكريم وما اشتمل عليه من موضوعات:

إن القرآن الكريم الذي هو الكتاب الحق، المنزل لهداية الخلق، إلى سعادة الدارين، كان لابد من اشتماله لكل أسس السعادة للناس، أفراداً أو مجتمعات، حكاماً أو محكومين، ولو تأملنا آيات القرآن الكريم وما اشتملت عليه من موضوعات نجدها ترجع إلى أصول عشرة وهي:

الأصل الأول: العقيدة: فقد جاءت آيات القرآن الكريم مبينة لأصول العقيدة، وذلك واضح في السور والآيات المكية، حيث كان النبي ﷺ يربي أصحابه على العقيدة الواضحة، فكانت الفترة المكية مؤصلة للعقيدة في النفوس، ومثبتة للتوحيد ليسهل من ثم الانقياد والتسليم للتشريعات والأحكام التي سترد تباعاً بعد ترسيخ العقيدة، ولبذل المهج والأرواح في سبيل الله تعالى، ونشر هذا الدين، ومقاومة كل ما يحول دون نشره ووصوله إلى كافة البشر.

الأصل الثاني: التشريعات التعبدية: وهي العبادات التي شرعها الله سبحانه لعباده من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وذكر ودعاء وغير ذلك مما اشتملت عليه آيات القرآن الكريم وسوره، خاصة الآيات والسور المدنية التي نزلت بعد الهجرة النبوية، حيث كانت الفترة المدنية فترة قيام الدولة الإسلامية المترسمة لنهج القرآن والمقيمة لحكمه.

الأصل الثالث: سياسة الخلق بالقرآن، وإقامتهم على مراد الله وحكمه، ببيان أحكام الله في أفعالهم من حل وإباحة، أو حرمة وكراهة، وبيان التشريعات الجنائية والجزائية، والقصاص، فيما تقترفه أيديهم من مظالم فيما بينهم، فقد اشتمل القرآن على الفصل بين الناس في ذلك كله.

الأصل الرابع: رعايته للوشائج الاجتماعية بين الأفراد والجماعات. بتضمنه ترسيخ الأخلاق الفاضلة والبر وصلة الرحم وذوي القربى، وبحسن الجوار ووصيته بحقوق الفقراء والمساكين، والوفاء بكل ما يضمن حقوق الإنسان، من نساء وأطفال، وعاملين ومستضعفين، وحكام ومحكومين... إلخ.

الأصل الخامس: إيقاظ العقل الإنساني وتحريره بتضمنه التوجيه إلى النظر والفكر والتدبر في الأنفس وفي الآفاق، ونبذه للتبعية والتقليد الأعمى

الأصل السادس: عوامل الدفع القيادية في المجتمع الإسلامي بدعوته إلى الريادة في الخير وقيادة الناس إلى رب الناس وبذل القدوة الحسنة لهم.

الأصل السابع: مكانة العلم والعلماء برفعه من شأن العلم وأهله وحضه على التعلم.

الأصل الثامن: التربية السلوكية الشاملة للأخلاق والآداب والحقوق وغير ذلك، بتضمنه الدعوة إلى الفضائل ونهيه عن الرذائل، وأمره بالعدل ونهيه عن الظلم.

الأصل التاسع: بيانه عناصر بناء وسلامة المجتمعات البشرية وعناصر وعوامل الانحلال والاضمحلال، بتضمنه أخبار الأنبياء والرسل وأتباعهم والمخالفين لهم من الأمم ومصائرها.

الأصل العاشر: إعجاز القرآن بتضمنه كل هذه الجوانب المتنوعة وغيرها، مع خاصية روعته في البيان.

٤) سبيلنا نحو تعظيم قدر القرآن الكريم:

أن نقتدي بما كان عليه دأب رسول الله ﷺ وصحبه في تعظيم القرآن الكريم من خلال قراءته وتدبره والعمل بأوامره ونواهيه، وقد لخصت لنا ذلك أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عندما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»(١)، وعلى هديه وسنته سار السلف الصالح من آل بيته الأطهار، وصحابته الأبرار، والتابعين لهم بإحسان إلى يومنا هذا، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها وخيرها، فإلى كتاب الله عزَّ وجلّ تعظيماً وتلاوة وعملاً.

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٩١) وصححه الأرنؤوط.

الخطوات التي نخطوها والبداية التي نبدأ بها لتعظيم القرآن والعناية به وبيان واجبنا نحو كتاب ربنا عز وجل:

أولاً: الإيمان الجازم بأن القرآن هو كلام الله تعالى المنتظم للحق الذي أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام.

وما دام أنه كلام الله تعالى فهو الحق، وكل ما خالفه فهو باطل، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٧٠].

فبينت هذه الآية الكريمة القضايا الأساسية التالية:

١- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ ﴾.

٢- أن هذا الحق هو من عند الله تعالى ﴿مِن رَّبِّكُمۡ ﴾.

٣- أن الواجب عليكم أيها الناس الإيمان به ﴿فَـَٔامِنُواْ ﴾.

٤- أن الخير كل الخير في إيمانكم به ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾.

٥- أن ضرر كفركم راجع إلى أنفسكم والله غني عنكم وأنتم الخاسرون ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الرعد:١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ ﴾ [البقرة ١١٩]، وإذا تقرر أن ما جاء به القرآن هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن كل ما خالفه فهو ضلال وباطل ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ ﴾ [يونس: ٣٢].

قال ابن تيمية: (ومثل هذا في القرآن كثير، مما يبين الله فيه أن كتابه مُبَيّن للدين كله، موضح لسبيل الهدى، كاف لمن اتبعه، ولا يحتاج معه إلى غيره، ويجب اتباعه دون اتباع غيره من السبل)(١).

وقال رحمه الله: (جماع الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال، والرشاد والغي، وطريق السعادة والنجاة، وطريق الشقاوة والهلاك أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه

(١) درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ٣٠٤).

هو الحق الذي يجب اتباعه، وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والنور، فيُصَدِّق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام الناس يعرض عليه فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع ما جاء به الرسول ﷺ..)[١].

ثانياً: التعظيم والإجلال والتقديس للنص القرآني:

فما دام أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى المنزل علينا من ربنا لنؤمن به فإن الواجب علينا أن نعظِّمه فوق كل عظيم، وأن نُجِلَّه فوق كل جليل، وأن نعرف قدره ومكانته

ومن مقتضيات هذا التعظيم ما يلي:

١- أن ينظر المرء إلى هذه الشريعة والدين الذي جاء به القرآن بعين الكمال والتمام والاستغناء به عما سواه قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه أكمل لهم الدين فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، وقد أتمه فلا ينقصه أبدا، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً»[٢].

والعمل بالسنة بلا شك من العمل بالقرآن لأن الله أمر بها ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] كما سيأتي تفصيله.

وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

٢- أن يوقن بأنه لا تضاد ولا اختلاف بين آيات القرآن، ولا بينها وبين أخبار النبي صلي الله عليه وسلم، بل الجميع جار على مهيع واحد، ومنتظم إلى معنى واحد، يصدق بعضه بعضا، ويفسر بعضه بعضاً.

وقد نهى ﷺ عمر عن النظر إلى قطعة من التوارة وقال: «ألم آتكم بها بيضاء نقية»[٣].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء،

---

(١) مجموع الفتاوي (١٣/ ١٣٥ – ١٣٦)

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٥١٨)

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧) والدارمي (٤٣٥) وحسنه الألباني في إرواء الغليل: ١٥٨٩

وكتابكم الذي أنزله الله على نبيكم أحدث الأخبار بالله محضاً لم يُشب»(١).

فإذا أداه بادي الرأي إلى ظاهر اختلاف أو تعارض فواجب عليه أن يعتقد انتفاء ذلك، لأن الله قد شهد أنه لا اختلاف فيه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۚ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢]. أي: «مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تفاوت، بل بعضه يصدق بعضاً، ويشهد بعضه لبعض، لا عوج فيه، ولا ميل عن الحق.....»(٢).

وعليه فقد حَذَّر النبي ﷺ أشدّ التحذير من أن يضرب كلام الله تعالى بعضه ببعض، وبيَّن أنه سبب هلاك من كان قبلنا، فلما ذكر بعض الصحابة آية من كتاب الله تعالى فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، خرج رسول الله عليهم مغضبا، وقد احمرَّ وجهه، يرميهم بالتراب ويقول: «**مهلاً يا قوم! بهذا هلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضرب الكتاب بعضه ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذِّب بعضه بعضا، بل يصدِّق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردّوه إلى عالمه**»(٣).

وعليه فإن من أعظم سمات أهل البدع والأهواء معارضة النصوص بعضها ببعض، ورد بعضها بحجة أنها تعارض النصوص الأخرى.

٣- أن ينظر إليها بعين الافتقار والإذعان لما تضمنته من حكم وتوجيهات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وهذا الافتقار ملازم للجنس البشري في كل أموره الدينية والدنيوية، ولذلك تفضل الله تعالى علينا لعلمه بعجزنا وضعفنا وفقرنا بأن أنزل إلينا أشرف كتبه ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ولم يكلنا إلى عقولنا ولا إلى آرائنا ولا أهوائنا القاصرة العاجزة.

ولذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأصغ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ح: ٧٥٢٧

(٢) تفسير الطبري (١٥ / ١٩٠)

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١) وابن ماجه ح: ٨٥ (١/ ٣٣) قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، وصححه الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية (ص١٢٨). والحديث أصله في مسلم ح: ٢٦٦٥ (٤/ ٢٠٥٣) مختصراً.

لها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تصرف عنه»[١].

٤- ألا يقاس كلامه تعالى بكلام أحد من البشر، فإن هذا من المحال، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] وسيأتي تفصيل ذلك الكلام على الإعجاز إن شاء الله.

٥- ألا يتقدم بين كلامه تعالى وكلام رسوله ﷺ برأي ولا فكر ولا قياس ولا ذوق.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة[٢].

ثالثاً: التسليم المطلق والقبول التام لأخباره وأحكامه وتوجيهاته:

فإن من مقتضياته الإيمان والتعظيم للقرآن الكريم التسليم المطلق والقبول التام، وهذا هو معنى الإسلام الذي هو الاستسلام والانقياد والخضوع لله تعالى وأمره ونهيه وهو مقتضى العبودية الحقة له تعالى، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تبارك اسمه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١]، وتأمل الربط بين الهدى والتسليم، فما دام أنه هدى الله، فهو الهدى المحض الخالص الذي لم يشب بكدر، فلذا تعيّن التسليم؛ فكان الأمر بالتسليم لرب العالمين الهادي إلى صراط مستقيم، قال الزهري: «من الله عز وجل العلم، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»[٣].

وهذا التسليم يقتضي عدة أمور من أهمها:

١- التسليم بكمال بلاغ النبي ﷺ لهذا الدين في جميع مسائله ودلائله:

امتثالاً لأمر ربه تعالى القائل في محكم التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١/ ٢١١).

(٢) تفسير السمعاني (٥ / ٢١٣)

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ٤٦ قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾.

وقد بلَّغ النبي ﷺ البلاغ المبين، وأشهد الله تعالى على ذلك، وأشهد المؤمنين في الموقف في عرفات، وفي منى يوم النحر حتى سميت حجة البلاغ فقال ﷺ: «**اللهم هل بلغت اللهم فاشهد**»(١).

وقد كان بلاغه ﷺ شاملاً لجميع أمور الدين، أصوله وفروعه، باطنه وظاهره، علمه وعمله، وهذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان، وكل من كان أعظم اعتصاماً بهذا الأصل كان أولى بالحق علماً وعملاً(٢).

٢- وجوب التسليم والإيمان بالكتاب كله والأخذ بما جاء به الرسول ﷺ من غير قيد أو شرط، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وامتدح سبحانه المؤمنين بالكتاب كله فقال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]، ونفى أن يكون لهم الاختيار فيأخذون منه ما يشتهون ويتركون ما لا يريدون فقال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وعاب على الذين يتخيَّرون من النصوص ما يشتهون، ويدعون ما لا يرغبون، فقال عز من قائل: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقد رتب الله تعالى على هذا المنكر العظيم نوعين من العذاب؛ الأول دنيوي، وهو الخزي في الحياة الدنيا، والآخر: أشد العذاب يوم القيامة، فسأل الله العافية والسلامة، ولذا فإن أكبر أسباب الخزي والهوان، الذي تعيشه الأمة اليوم إنما هو بسبب تركها بعض ما أنزل الله تعالى إليها، وهو ما حذر الله تعالى منه نبيه صالحاً ﷺ، فقال يقول تعالى: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ

(١) أخرجه البخاري في مواضع، ينظر في: ١٧٣٩، ١٧٤٠، ١٧٤١، ٥٨٠٤

(٢) ينظر مجموع الفتاوى (١٩/ ١٥٥ – ١٥٦)

عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وعليه فلا يمكن فهم النصوص الشرعية فهماً صحيحاً وهي مجزأة مفرقة مبتورة عن بعضها الآخر، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، والسنة تفسر وتبين القرآن والسنة الأخرى، وليس في كلام الله تعالى وكلام رسولهﷺ خلا ف ولا اختلاف بحمد الله ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢].

٣- أن التسليم يقتضي عدم المعارضة بأي صورة من صور المعارضة، ومن أي جهة كانت، وأبرز جهات المعارضة باختلاف أنواعها لا تخرج عما يلي(١):

أ- إما شبهة تعارض الخير

ب – أو شهوة تعارض الأمر

جـ- أو إرادة تعارض الإخلاص.

ء- أو اعتراض يعارض القدر والشرع.

والتسليم الحقيقي للنص الشرعي هو الخلاص من هذه العوائق الخطرة كلّها.

وأبرز المعارضات التي يعارض بها أهل الأهواء والانحراف والبدع في العصر الحاضر:

- معارضة النص بنص آخر.
- معارضته بالدلائل الذوقية والكشفية.
- معارضته بالمصلحة في نظرهم.
- معارضته بالمقاصد الشرعية حسب زعمهم.
- معارضته بالحقائق العلمية حسب فهمهم.
- معارضته بالواقع وضرورات التعايش مع الآخر ومع معطيات الثقافة المعاصرة.

٤- أن التسليم للوحي عند أهل السنة والجماعة هو تسليم للحق القائم على البرهان والدليل، وليس تسليماً مجرداً كتسليم النصارى لأحبارهم ورهبانهم، أو تسليم المريدين لشيوخهم عند المتصوفة والرافضة ومتعصبة المذاهب، فهذا مذموم مردود في الإسلام، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

(١) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ١٤٧).

[التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٧ – ٦٨].

وعليه فإن الأنبياء والرسل لا يخبرون بمُحَالات العقول بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاؤه واستحالته، بل بما قد يعجز العقل أحياناً عن معرفته(١).

والعقول السليمة قاضية بوجوب التسليم للنص الشرعي مانعة من الاعتراض عليه أو تقديم غيره عليه.

٥- ومع التسليم المطلق فلا بد من القبول التام من غير شكّ في شيء من أحكام القرآن وأخباره، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢]، قال ابن عباس ومجاهد: (حرج: شك)(٢)، وقال البغوي: (فالخطاب للرسول ﷺ، والمراد به: الأمة)(٣).

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ طه: [١٢٤ – ١٢٦].

وقال ﷺ: «...**فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(٤).

ولذلك اشتدّ نكير السلف الصالح على من لم يقبل ما جاء به الرسول ﷺ، أو رأى أن له ألا يقبله، كما سيأتي في تعظيم ما جاء به الرسول ﷺ.

رابعا: الانقياد الكامل لأحكامه وأخباره والعمل بها ظاهراً وباطناً، وتحكيمه في جميع شؤون الحياة:

قال الله عز وجل: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا

(١) ينظر درء التعارض (١/ ١٤٧ – ١٤٨) ومجموع الفتاوى (٥/ ١٢٨).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ١٣٧).

(٣) معالم التنزيل (٢/ ٨٩).

(٤) البخاري في كتاب النكاح: في: ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح أيضاً (٢/ ١٠٢)

تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١ – ٥٢]، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]. وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً للذي يقرأ القرآن ويعمل به وغير العامل فقال ﷺ: «**المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها حلو ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مرّ أو خبيث، وريحها مرّ**»(١).

ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم أشد الناس انقياداً وامتثالاً لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ قالت عائشة: (إن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، وإني أخشى أن أترك شيئاً من أمره أن أزيغ)(٢).

خامساً: العناية بتلاوته وتدبر معانيه وحفظه:

ومن تعظيم القرآن الكريم العناية به تلاوةً وتدبراً وفهماً وتعلماً وتعليماً ومن ذلك:

أ- ثواب قراءة القرآن وتجويده:

أما عن ثواب تلاوة القرآن فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر ٢٩ – ٣٠].

ومما جاء في السنة النبوية أيضاً في ثواب تلاوة القرآن وفضله قوله ﷺ: «**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**»(٣)، وقال ﷺ: «**ما اجتمع قومٌ في بيت من بيُوت الله يتلُون كتاب الله ويتدارسُونهُ**

(١) أخرجه مسلم (٨٠٩).

(٢) أخرجه ابن بطه في الإبانة الكبرى (١/ ٢٤٦).

(٣) رواه الترمذي في فضائل القرآن (رقم٢٩١٠)، وقال: هذا الحديث حسن صحيح غريب، وقال الألباني: صحيح.

بينهُم إلّا نزلت عليهم السَّكنةُ وغشيتهُم الرحمةُ وحفّتهُمُ الملائكةُ وذكرهُم الله فيمن عندهُ»(١).

ومما يعين على ضبطه وسلامة تلاوته وتجويده قراءته على شيخ تلقاه من شيخ قبله، لأن القرآن الكريم أصله التلقي، فقد تلقاه رسول اللهﷺ عن جبريل عليه السلام وعنه تلقاه الصحابة الكرام، وعنهم تلقاه التابعون، وهكذا حتى وصل إلينا متواتراً بجميع حروفه وكلماته غضاً طرياً كيوم نزل.

وقد رغب الإسلام وحث على التلاوة والتدبر للقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، وفي الصحيحين عن قتادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سألت أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن قراءة النبي ﷺ فقال: كَانَ يَمُدُّ مَدّاً(٢)، وقال شعبة: حدَّثنا أَبُو حمزَة قُلت لابن عباس رضي الله: إني رجُل سريع القراءة، وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين، فقال ابن عباس: «لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليَّ من أن أفعل مثل الذي تفعل، فإن كنت فاعلا لابد فاقرأه قراءة تُسْمعُ أذنيك، ويعيه قلبُك»(٣).

وقال إبراهيم قرأ علقمة على عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان حسن الصوت فقال: «رتِّل فداك أبي وأمي فإنَّه زيْنُ القرآن»(٤)، وقال عبد الله: «لا تهُذُّوا القرآن كهذِّ الشِّعر، ولا تنثروه نثْر الدَّقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة»(٥).

ب- الحرص على تدبر القرآن وفهم معانيه:

وهو أهم ما أنزل له القرآن الكريم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وتدبر القرآن هو مفتاح العمل والامتثال له، وهو سبب لزيادة الإيمان قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٠٢٨)، وأبو داود (رقم ١٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٥).

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى(٢/ ٣٩٦).

(٤) اخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٢/ ٥٤).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٥٢١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٠٨).

وتدبر كتاب الله يكون بمعرفة معانيه ومبانيه، والتفقه فيه بمعرفة أسباب نزوله ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وهذه جوانب مهمة، قد أولاها المفسرون وأصحاب علوم القرآن أيما عناية، وألفوا فيها المؤلفات الكثيرة.

ولعل من أبرز الصوارف عن فهم القرآن وتدبره هو ارتكاب الذنوب والآثام التي تغلق القلب فتمنع عنه نعمة التدبر، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ج - الحرص على حفظ القرآن الكريم وتعاهده:

فإن من سمات هذه الأمة أن مصاحفهم في صدورهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقد وردت أحاديث كثيرة تذكر فضل ومكانة حافظ القرآن قال ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ ورتل كما كنت ترتِّل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها**»(١).

ومن مَنَّ الله تعالى عليه بشيء من القرآن فليتعاهده حتى لا ينساه كما قال ﷺ: «**تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها**»(٢). فلا يليق بالحافظ له أن يغفل عن تلاوته، ولا أن يفرط في تعاهده، بل ينبغي أن يتخذ لنفسه منه ورداً يومياً يساعده على ضبطه، ويحول دون نسيانه، رجاء الأجر والاستفادة من أحكامه عقيدة وعملاً، وقد قال ﷺ: «**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**»(٣).

لكن مَن حفظ شيئاً من القرآن ثم نسيه عن شغل أو غفلة ليس بآثم، وما ورد من الوعيد في نسيان ما قد حفظ لم يصح عن النبي ﷺ. لكنه لا يليق التفريط بهذه النعمة لمن وهبه الله تعالى إياها.

---

(١) رواه الترمذي في فضائل القرآن (رقم ٢٩١٤) وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٣) والترمذي (٥/ ١٧٧) وقال: حسن صحيح.

د- الدعوة إلى القرآن الكريم وتعليمه:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ١٠٤]، وقوله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وعلَّمَهُ**»(١).

ولقد استجاب الصحابة الكرام رضوان الله عليهم لأمر نبيهم ﷺ في تعليم القرآن وتبليغ العلم، فهذا ابن مسعود رضي الله يخرج إلى الكوفة معلماً للقرآن الكريم، وهذا أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخرج إلى الشام فيؤسس في جامع دمشق أول مقرأة للقرآن الكريم بلغ عدد طلابها ستمائة وألفاً، وهذا أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعلم القرآن في مسجد البصرة، حتى تخرج على أيديهم كبار التابعين وهكذا تسلسل تعليم القرآن الكريم وتواتر حتى وصل إلينا غضاً طرياً، ونشهد الآن والحمد لله عودة طيبة في جميع مدن وبلدان المسلمين إلى تعليم القرآن الكريم من خلال حِلق تحفيظ القرآن الكريم ومراكزه وجمعياته ومعاهده ومسابقاته، وهي علامة خير تبشر بيقظة مباركة لهذه الأمة.

سادساً: تقدير أهل القرآن وحملته وحفاظه:

وهذا من تعظيم القرآن الكريم بل من إجلال الله تعالى وتعظيمه كما قال ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط»(٢).

كيف وقد شهد النبي ﷺ بالخيرية لمعلِّم القرآن ومتعلمه فقال ﷺ: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»(٣)، وقال كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أنزلوا الناس منازلهم»(٤).

ولذا أمر النبي ﷺ تقديم حامل القرآن على غيره من الكبراء والأمراء والأغنياء، فيقدَّم حامل القرآن لإمامة الناس، في الصلاة، ويقدَّم في الصلاة عليه إذا مات، ويقدم في اللحد إذا كان القبر جماعياً.

---

(١) البخاري (برقم ٥٠٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٤٥) وحسنه النووي والألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٦١) والحاكم وصححه، وهو في مقدمة صحيح مسلم(١/ ٦).

أما في الآخرة فقد قال ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها**»(١) كما تقدم.

سابعا: الذب عن القرآن وصيانته:

وهذا من النصيحة لكتاب الله تعالى كما قال ﷺ: «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن يا رسول الله قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»(٢)، وذلك من خلال:

أ- رد شبهات الطاعنين في ثبوته أو دلالته أو في حفظه وسلامته من الزيادة والنقصان والتحريف وغير ذلك، وكذلك در شبهات الطاعنين في تعظيمه وقداسته، ويكفي في ذلك قوله ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»(٣). ويمثل هؤلاء الباطنية ومَن نحا نحوهم من الطوائف كالشيعة ودعاة التأويل الكلامي المذموم ومَن يزعم أن القرآن مخلوق، وأن أدلته لفظية لا تفيد علماً ولا يقيناً.

ومنهم دعاة العصرانية اليوم الذين ينادون بإعادة قراءة النص القرآني قراءة جديدة مخالفة لما كان يفهمه الصحابة والسلف الأوائل وتتوافق مع معطيات العصر والحضارة الغربية وتأويل كل نص يخالف معطياتها وقيمها الفكرية والاجتماعية والأخلاقية.

ب- صيانته حسيا:

وذلك برفع المصاحف وصيانتها وعدم وضعها على الأرض، وحفظها في المواضع اللائقة وتجنيبها مواضع الامتهان والأماكن غير اللائقة، وعدم السفر بها إلى أرض العدو مخافة امتهانها.

فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسافروا بالقرآن فإني لا أأمن أن يناله العدو**»(٤).

فإن انتفت المفسدة التي خشيها النبي ﷺ جاز ذلك، خاصة إذا كان بقصد الانتفاع به في البلاغ والتعليم والحفظ ونحوها(٥).

---

(١) أخرجه داود (٢/ ٧٣) والترمذي (٤/ ٢٥٠) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في: ١٩٦ والبخاري معلقا آخر كتاب الإيمان باب ٤٢

(٣) أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها ص١ والبغدادي في شرف أصحاب الحديث ص٢٩ وصححه الإمام أحمد كما في المصدر نفسه.

(٤) أخرجه مسلم (٤٩٤٨).

(٥) فتاوى اللجنة الدائمة رقم (٢٣٥٨).

قال الإمام النووي: «أجمع المسلمون على وجوب صيانة المصحف واحترامه، قال أصحابنا وغيرهم: ولو ألقاه مسلم ــ والعياذ بالله ــ في القاذورات صار الملقي كافرا»[١]، وكذلك كل عمل فيه إهانة متعمدة للقرآن.

ومن ذلك ألا يدخل به الخلاء، لكن إن خشي عليه السرقة عند تركه خارج الحمام ولم يجد مكاناً آمناً ولائقاً جاز له الدخول به[٢].

جـ- ومن ذلك ألا يمسه إلا طاهر لعموم قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ وكما في حديث عمرو بن حزم عنه أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً فكان فيه: «**لا يمس القرآن إلا طاهر**»[٣]، وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يمس القرآن إلا طاهر**»[٤].

أما القراءة غيباً فتجوز ممن ليس عليه حدث أكبر، أما الجنب فلا يقرأ القرآن لا غيباً ولا نظراً. أما الحائض المعلِّمة والطالبة فيجوز لها التلاوة والتجويد لكن دون مس المصحف، ولها أن تمس كتب التفسير وتقرأ الآيات منها في أصح قولي العلماء[٥].

وكذلك تجوز القراءة من الجوال والأجهزة الإلكترونية ومسها للمحدث والحائض، وليس لها حكم المصحف، فالكتابة والحروف فيها غير ثابتة كالمصحف، وإنما توجد على صفة ذبذبات تتكون منها الحروف بصورتها عند طلبها، فتظهر على الشاشة وتزول إلى غيرها. إضافة إلى أن الشاشة معزولة بلوح زجاجي. والله أعلم.

ثامناً: التحذير من هجر القرآن:

القرآن الكريم أنزل ليُعمل به، ووسيلة العمل به العلم به أولاً، ولا يحصل ذلك إلا بقراءاته وتدبره، وكلما تقاربت أوقات القراءة وكثر تكرارها كان ذلك أقوى في رسوخ حفظ القرآن الكريم، ومن أجل ذلك كان السلف يحرصون على كثرة تلاوته وتكرارها، ولذلك جاء عنهم ما يضبط ذلك، وهو أن ترك القرآن لأكثر من أربعين يوماً هجر، وأن قراءته في أقل من

---

(١) التبيان، آداب حملة القرآن (١٥٣) ط. الثالثة.

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة رقم (٢٢٤٥).

(٣) سنن الدارقطني (١/ ٢٢٠)

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٣١٣) والصغير (٢/ ٣٧٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦١٦) «رجالة موثوقون» وصححه الألباني في صحيح الجامع.(٧٧٨٠).

(٥) فتوى اللجنة الدائمة رقم (٩٤٠٢).

ثلاث هذر لا فقه فيه، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال: «**لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**»(١)، وعنه قال إن النبي ﷺ قال له: «**اقرأ القرآن في أربعين**»(٢).

قال إسحاق بن إبراهيم: «ولا نحب للرجل أن يأتي عليه أكثر من أربعين يوماً ولم يقرأ القرآن لهذا الحديث»(٣)، يعني: يعيبون على من لم يختم القرآن في أربعين يوماً مرة على الأقل. وعن أبي الأحوص، قال: قال عبد الله: «لا يقرأ القرآن في أقلِّ من ثلاث، اقرءوه في سبعٍ، ويحافظ الرجل كل يوم وليلةٍ على جُزْئِه»(٤).

قال النووي: الختم في سبع: فعل الأكثر من السلف، وقال السيوطي: وهذا أوسط الأمور وأحسنها وهو فعل الأكثر من الصحابة وغيرهم(٥).

وقد كان لكل واحد من أصحاب رسول الله ﷺ حزب يقرأه في يومه وقدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ ومما روي عنه ﷺ في ذلك ما رواه أوس بن حذيفة ﷺ قال قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، فكان يأتينا كل ليلة بعد العشاء فيحدثنا قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه، فلما كان ذات ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه فقلت يا رسول الله لقد أبطأت علينا الليلة. قال: «**إنه طرأ عليّ حزبي من القرآن فكرهت أن أخرج حتى أتمه**»(٦).

ومما ورد في تحزيب القرآن ما رواه أوس بن حذيفة قال: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده. ويعني بـ: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: الإسراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، وألم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٤٩) وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الألباني: صحيح

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٤٦) وقال الترمذي: حسن صحيح

(٣) أخرجه الترمذي عقب الحديث(٢٩٤٦).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣١٨) رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٥) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٧٨).

(٦) أخرجه ابن ماجة في سننه (١٣٤٥).

والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك حزب المفصل وأوله: ق[١].

ومن أنواع هجر القرآن:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

الثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

الثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لا يحصل بها العلم.

الرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

الخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وإن كان بعض الهجر أهون من بعض[٢].

وخلاصة ما تقدم يبينه لنا الحافظ ابن رجب رحمه الله في كلمة نفيسة جداً موجهة لطالب العلم فيقول: «فالذي يتعين على المسلم الاعتناء به والاهتمام أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله، ثم يجتهد في فهم ذلك والوقوف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق إن كان من الأمور العلمية، وإن كان من الأمور العملية بذل وسعه في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر واجتناب ما ينهى عنه، فتكون همته مصروفة بالكلية إلى ذلك لا إلى غيره، وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة[٣].

٥) كيفية البحث عن آية أو موضوع قرآني:

١) ـ إذا كان في ذاكرتك جزء من آية قرآنية حتى ولو كلمة واحدة، فباستطاعتك أن تستخرج هذه الآية بالرجوع إلى المعاجم المؤلفة في ذلك وأهمها: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضع محمد فؤاد عبد الباقي، حيث استفاد ممن سبقه، وصاغ معجمه بشكل سهل وميسر، حيث رتب مواده على طريقة ترتيب المعاجم بالاعتماد على أوائل أصول

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٩) وأبو داود (١٣٩٣) وابن ماجه (١٣٣٩).

(٢) الفوائد لابن القيم (ص ٢٨).

(٣) جامع العلوم والحكم (ص ٧٩).

الكلمات فثوانيها فأواخرها، إذ تأتي فيه الأصول المبدوءة بالألف بعدها الألف، ثم الألف بعدها الباء، ثم الألف بعدها التاء... ثم إذا انتهت الكلمات التي تبدأ أصولها بالألف، جاءت الكلمات التي تبدأ أصولها بالباء، وهكذا إلى آخر الحروف، ويراعى في الجميع الحرف الثالث من الكلمة تدرجاً من الألف إلى الياء كذلك. فإذا ظفرت بالكلمة التي تبحث عنها فتجدها في آية أو أكثر إذا كانت من الكلمات القرآنية فعلاً. عندئذ تتبع المقاطع من الآيات التي وجدت فيها هذه الكلمة، فإذا ظهرت لك الآية التي تبحث عنها وجدت إلى جانبها كما يلي: مثلاً كلمة (السحت) تجدها في (سحت) كما يلي:

السحت: سماعون للكذب أكالون للسحت، رقمها ٤٢ سورة م المائدة رقم (٥) وقد رمز واضع المعجم بـ (م) إلى أن السورة مدنية، وبـ (ك) إلى أن السورة مكية، بعدها ترجع إلى المصحف وتستخرج الآية المطلوبة كاملة من السورة التي ذكرها المعجم، وفق رقم الآية الذي ذكره، ولا تعتمد على ذاكرتك في كتابة الآيات في الأبحاث العلمية؛ لأن الذاكرة قد تضعف أو يختلط عليها المعنى ـ والله أعلم.

٢) ـ وإذا كنت تبحث عن موضوع وتريد أن تستخرج آياته، فعليك أن تجمع ذهنك، وتستحضر الكلمات التي يمكن أن يكون لها علاقة بالموضوع، وتبحث في المعجم المذكور عن كل كلمة منها، فإنك ستظفر بجملة من الآيات فيها بعض الكلمات التي استحضرتها، وهذه الآيات ستنبهك على نظائرها، أو على كلمات يمكن أن تدلك على آيات تناسب الموضوع الذي تبحث عنه في القرآن.

٣) ــ ويمكن في البحث عن الآيات القرآنية الاستفادة من المصاحف الحاسوبية كمصحف المدينة النبوية الذي يمكن تنزيل برنامجه في الحاسب الآلي.

كما يمكن الاستفادة من خدمة الكشافات المتاحة على شبكة الإنترنت، التي تقدمها المواقع الإسلامية، كموقع (الإسلام) www.alislam.com وغيره، وهي سهلة وسريعة.

وطريقة البحث عن الكلمة من الآية متشابهة في كل ذلك حيث يتيح لك، كتابة الكلمة التي تذكرها من الآية، وبالنقر على أيقونة (بحث) يظهر لك جدول به كل المواضِع التي جاءت فيها هذه الكلمة في القرآن الكريم، فيذكر اسم السورة، ثم ترتيبها، ثم رقم الآية التي جاءت فيها الكلمة، وبالضغط على بقية المواضع بالجدول تظهر لك الآية المطلوبة.

وبعض المواقع تتضمن إتاحة الاطلاع على تفسير للآية من عدة تفاسير.

الإعجاز في القرآن الكريم، تعريفه ومعناه، وأوجهه

لقد كانت الرسل والأنبياء، عليهم السلام، قبل مبعث رسول الله ﷺ تؤيد بمعجزات حسية تناسب خصوصية الحالة التي أرسلوا إليها ومحدودية الفترة والمكان والقوم الذين بعثوا إليهم، ثم إذا انقضت الفترة المعنية وانقضى أثر تلك المعجزة وزمن تلك الرسالة، أرسل الله رسولاً جديداً وأيده بمعجزة جديدة، فأيد موسى عليه السلام بالعصا التي تلقف ما صنع سحرة فرعون، وأيد عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى في زمن اشتهر أهله بالطب، حتى إذا جاءت رسالة سيد المرسلين ﷺ، خاتم النبيين وخاتم الرسالات، كانت رسالة عامة عالمية وخاتمة، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال ﷺ: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»(١). وأخبر الله سبحانه وتعالى أن رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسالته خالدة إلى يوم الدين فقال سبحانه: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولقد ثبت للنبي ﷺ معجزات حسية زادت على الألف، ومع ذلك فقد أعطاه الله سبحانه وتعالى معجزة كبرى دائمة خالدة هي القرآن الكريم، يمكن أن يقف عليها كل إنسان إلى يوم القيامة، فقد جاء ذلك عن رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(٢).

معنى الإعجاز لغة واصطلاحاً:

معنى الإعجاز لغة: هو مصدر أعجز، ومادة الكلمة هي العجز، وكلام أهل اللغة في معناها يدور حول الضعف، وعدم القدرة على النهوض بالأمر، وكذلك القعود عما يجب فعله(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨١)ومسلم (١٥٢).

(٣) انظر: عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ص ٨ د محمد السيد راضي جبريل.

قال في اللسان: العجز نقيض الحزم، عجز عن الأمر يعجِز، وعَجِز عجزاً فيهما، ورجل عجِزٌ وعَجُزٌ عاجز، ومَرَةٌ عاجز: عاجزة عن الشيء، والمعجِزة والمعجَزة العجز والمعجز بالكسر على النادر والفتح على القياس لأنه مصدر والعجز الضعف، تقول: عجزت عن كذا أعجز والمعجزة بفتح الجيم وكسرها مفعلة من العجز عدم القدرة)[١]

معنى الإعجاز اصطلاحاً: هو إثبات عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم الله به من القرآن، وهو أن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله، فهو من إضافة المصدر إلى فاعله، والمفعول محذوف للدلالة على عموم من تحداهم الله، وهم الإنس والجن.

ويكتمل بيان المراد بهذا المصطلح إذا عرفنا أن إعجاز القرآن مَن تحداهم عن الإتيان بمثله أو بشيء من مثله ليس أمراً مقصودا لذاته، وليس هو الغاية في نفسه، ولكن المقصود هو اللازم الناتج عن هذا الإعجاز، وهو إظهار وإثبات أن هذا الكتاب حق، ووحي من عند الله تعالى، ومقتضى ذلك كله إثبات صدق الرسول ﷺ فيما جاء به قومه من الرسالة، ودعاهم إليه من الإسلام[٢].

مضمون الإعجاز:

وعلى ضوء التعريف الذي ذكرنا لابد «لمتكلم في إعجاز القرآن من أن يتبين حقيقتين عظيمتين قبل النظر في هذه المسألة، وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس، وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما.

أولاهما: أن (الإعجاز القرآني) كما يدل عليه لفظه وتاريخه هو من أدلة النبي ﷺ على صدق نبوته، وعلى أنه رسول من الله يوحى إليه هذا القرآن، وأن النبي ﷺ كان يعرف (إعجاز القرآن) من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي من نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤]، وقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

---

(١) انظر: لسان العرب ٥/ ٣٦٩.

(٢) انظر: عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ص ١٠

فإذا أضفنا إلى ذلك أن القرآن نزل منجماً مفرقاً، وكان الذي نزل على النبي ﷺ يومئذ قليلاً، وأن هذا القليل من التنزيل منطو على برهان على نبوته، وأن التحدي لهم بأن يأتوا بسورة من مثله، حاصل بهذه الآية التي قذف بها في وجوههم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وكذلك كان.

ومن خلال معرفة معنى الإعجاز ومضمونه، وتحقق وقوعه لفصحاء العرب الذين خاطبهم القرآن تتبين لنا الأمور التالية:

الأول: أن قليل القرآن وكثيره في شأن الإعجاز سواء. ولذلك تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله.

الثاني: أن الإعجاز كائن بالدرجة الأولى في رصف القرآن وبيانه ونظمه ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب، ثم في سائر لغات البشر، ثم في بيان الثقلين جميعاً إنسهم وجنهم متظاهرين.

الثالث: أن الذين تحداهم بهذا القرآن قد أوتوا القدرة على الفصل بين الذي هو من كلام البشر والذي هو ليس من كلامهم.

الرابع: أن الذين تحداهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا من الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله مفتريات أو بسورة وحدة، هو الضرب من البيان الذي يجدون في أنفسهم أنه خارج من جنس بيان البشر.

الخامس: أن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثله مطابقاً لمعانيه، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه من كل معنى أو غرض، مما يعتلج في نفوس البشر، لكن على نظم وبيان يشاكله إن استطاعوا.

السادس: أن هذا التحدي للثقلين جميعاً إنسهم وجنهم متظاهرين تحدٍ مستمرٌ قائمٌ إلى يوم الدين.

السابع: أن ما في القرآن من مكنونات الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك يفضي إلى الإعجاز، وفيه من ذلك كله ما يعد دليلاً على أنه من عند الله تعالى. وما فيه مما يدل على أنه بنظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وبيانهم أوفر وأنه بهذه المباينة هو كلام رب العالمين لا كلام بشر مثلهم.

بقاء الإعجاز واستمراره:

إن مما ينبغي أن يعلم أن إعجاز القرآن باق ومستمر ما بقي القرآن متلواً، وبقي في الدنيا تال وقارئ؛ إذ هو محفوظ بتكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه، وآيات التحدي فيه ستظل تقرع كل الأسماع، وسيظل القرآن معجزة فوق ما يطيق البشر في روعة البيان والمباني وروعة المضمون والمعاني.

بل إن من (وجوه إعجازه المعدودة كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها)[١].

فعلماء الإسلام يرون: (أن الإعجاز باق إلى يوم القيامة والآية بذلك باقية أبداً كما كانت، وهذا هو الحق الذي لا يحل القول بغيره لأنه نص قول الله تعالى إذ يقول: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] فهذا نص جرى على أنهم لا يأتون بمثله بلفظ الاستقبال فصح يقيناً أن ذلك على التأبيد، وفي المستأنف أبداً، ومن ادعى أن المراد بذلك الماضي فقد كذب)[٢]

أبرز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:

الناظر في هذا الكتاب الكريم بإنصاف تتراءى له وجوه كثيرة مختلفة من الإعجاز، كما تتراءى للناظر إلى قطعة من الماس ألوان عجيبة متعددة بتعدد ما فيها من زوايا وأضلاع[٣]، ومختلفة باختلاف ما يكون عليه الناظر وما تكون عليه قطعة الألماس من الأوضاع.

فوجوه الإعجاز في القرآن لا حصر لها، إذ هو معجز من جهة بلاغته، ومن جهة نظمه، ومن جهة الإخبار بالغيب، ومن جهة علومه ومعارفه المتنوعة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ولا

(١) الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٧٥.

(٢) الفصل في الملل والهواء والنحل ٢/ ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) مناهل العرفان للزرقاني (٢/ ٢٢٨).

من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط؛ بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤] وقال ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧ ـ ٢٨] وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له)[١].

وكيف لوجوه الإعجاز في القرآن أن تنحصر؛ وهي بقدر القرآن، وقدر القرآن عظيم، فهو كلام الله الذي أنزله بعلمه، وهو كتابه الذي فيه نبأ ما كان قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، وهو الفصل ليس بالهزل، وهو الذي لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وقد حوى خبر الأولى والآخرة وخبر أهلهما وشأن الله معهما فكيف لإنسان محدود الفكر والعمر أن يقول فيه هذه وجوه إعجازه، وعليه فسنذكر هنا دون أن نحصر بعضاً من أبرز وجوه إعجاز القرآن وهي:

١ـ الإعجاز البياني:

وسوف نتكلم عما قيل في هذا الإعجاز البياني من خلال النقاط الآتية:

أولاً: النظم القرآني:

لو استعرضنا آيات وسور القرآن الكريم نجد أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها،

(١) الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفْلِق، والخطيب المصقع، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجوّد في المديح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح.. وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حدٍ واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والوصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفال فيه إلى الرتبة الدنيا... فعلمنا بذلك أنه لا يقدر عليه البشر(١).

ثانياً: الكلمة القرآنية:

لما كانت الكلمة هي أساس النظم فسوف نعرف بها، لأن الكلمة أصل الإبداع، يقول الراغب في مفردات القرآن: (فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها، وعدا الألفاظ المتفرعات عنها، والمشتقات منها، هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالنخالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة(٢).

وكتاب الله هو بحيث (لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد)(٣).

ومن أمثلة الكلمة القرآنية (الخوف والخشية)، (جاء وأتى)، (الفعل والعمل)، (السَّنة والعام)، (الحرث والنسل).

ومن الأمثلة على ذلك اختيار كلمة (الحرث) دون سواها عند الحديث عن صلة الزوج بزوجه حيث يقول سبحانه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] ففي هذه الكلمة كناية جميلة تلمح فيه إلى ذلك التشابه القائم بين صلة الفلاح بحرثه، وصلة الزوج بزوجه، وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث، وذلك الحمل الذي تخرجه الزوجة، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح، فهذه المعاني كلها تؤخذ من كلمة الحرث، ويضاف إليها تحديد مكان الإتيان، وغيرها من المعاني والأحكام، ولو استخدمنا كلمة الأرض أو الحقل أو

(١) دلائل الإعجاز للباقلاني (ص ٨).

(٢) المفردات في غريب ا لقرآن(ص٥٥).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٧٦)والبرهان في علوم القرآن(٢/ ٩٧). وراجع المحرر الوجيز لابن عطية: ج١ص٤٩ ـ ت: المجلس العلمى بفاس ـ ط١٣٩٥.

غير ذلك لم تؤد ذلك المعنى الذي أدته كلمة الحرث؛ لأن الأرض قد تكون جدباء فلا تصلح للحرث، والحقل لا يدل على الملك لأنه قد يكون لغيره، أما الحرث فإنها تؤدي ذلك المعنى البليغ في أبهى صورة.

ثالثاً: الفاصلة القرآنية:

تعريفها: هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع... وتسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان؛ وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها(١).

ولقد ثبت أن الفاصلة لم تقم على اعتبارات شكلية محضة، بل أسهمت في إحكام المبنى والمعنى جميعاً، بل أسهمت في تفسير معنى (الإحكام) الذي وصف الله تعالى به كتابه الكريم في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].... إذا أثبتنا ذلك علمنا مدى أهمية الحديث عن الفاصلة، ومدى صلتها بقضية الإعجاز البياني.

ولنأخذ مثالاً واحداً على ذلك وهو التناسب البليغ بين مضامين الآيات والأسماء الحسنى في خواتيمها، فالآيات القرآنية التي ختمت بأسماء الله الحسنى كثيرة جداً، ومن وجوه الإعجاز البياني أن كل اسم من أسماء الله الحسنى ختمت به آية من الآيات يكون هو الأنسب، وتكون الصلة بينه وبين مضمون الآية ومعناها وطيداً، ويأتي مكملاً للمعنى بأبلغ صورة وأجمل لفظ، ولو وضعنا اسماً آخر من الأسماء الحسنى ـ وكلها حسنى وتدل على الحق سبحانه وتعالى لم يكن ذلك محققاً للدلالة الدقيقة والبلاغة الرفيعة نفسها.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨ ـ ٣٩]. فتحدثت الآية الأولى عن حد السرقة التي هي إحدى الكبائر، وكانت عقوبتها صارمة وشديدة وهي قطع يد السارق، فناسب أن يكون ختامها ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، فالعزيز هو الغالب الذي لا يقهر، والحكيم هو الذي يضع الأمور في نصابها، وهذا مناسب لدلالة الآية، فحكم القطع وضعه من لا يغلب ولا يقهر وأمره نافذ وحكمه قاطع، وإن توهم متوهم أن في الحكم مفسدة أو قسوة زائدة، جاء اسم الحكيم ليرد ذلك ويبين أن في القطع حكمة بالغة ومصلحة عالية، ومنعاً لتكرار أو شيوع السرقة في

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي(١/ ٥٤).

المجتمع، ومن ثم تحقُّق حفظ المال وهذا من المقاصد الشرعية الكلية الخمسة.

بينما تتحدث الآية الثانية عن التائب المنيب الذي رجع عن ظلم نفسه، وأصلح بعد الفساد فناسب أن تختم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهكذا لو تتبعنا الأسماء الحسنى في خواتيم الآيات لوجدناها جاءت على أتم وأكمل الوجوه في تطابق ومناسبة معناها مع دلالة الآيات ومضامينها(١).

رابعاً: الجملة القرآنية:

تمتاز الجملة القرآنية بإيجاز اللفظ وسعة المعنى، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما ذكر أهل البلاغة والفصاحة أن من أبلغ ما قالته العرب قولتهم المشهورة (القتل أنفى للقتل) وهذه الكلمة على بلاغتها عندهم، قد فاتها في البلاغة وتجاوزها جزء من الآية الكريمة: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وقد ذكر أهل البيان وعلماء البلاغة أن قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، تفوق تلك الجملة التي قالتها العرب بأكثر من عشرين وجهاً بلاغياً، منها: أن عدد الحروف في جملة ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ أقل من عددها في كلمة (القتل أنفى للقتل) فحروف الآية اثنا عشر حرفاً، وتلك أربعة عشر حرفاً، والبلاغة الإيجاز. ومنها: أن الآية خالية من التكرار الذي وقع في المثل، والخالي من التكرار أبلغ من المشتمل عليه وإن لم يكن مخلاً بالفصاحة، ومنها: أن لفظ القصاص مشعر بالمساواة فهو مبني على العدل بخلاف القتل، ومنها: أن الآية معناها واضح بين جلي، وهو معنى مطرد مستمر، فإقامة القصاص سبب في حفظ الحياة، بينما (القتل أنفى للقتل) ليست مطردة؛ لأنه ليس كل قتل أنفى للقتل، بل قد يكون القتل ظلماً وعدواناً، إذ قتل غير القاتل مثلاً، لا يكون أنفى للقتل، إذ يبقى القاتل مهدداً بالقتل والثأر من أبناء المقتول حتى يقتلوه. وغير ذلك من وجوه الإعجاز التي ذكرها العلماء(٢).

هذه نماذج من الإعجاز البياني للقرآن الكريم وهناك أنواع وأمثلة لا يتسع المجال لذكرها، وللتوسع يرجع إلى كتب الإعجاز(٣).

---

(١) ينظر على سبيل المثال كتاب: نظم الدرر في تناسب الآي والسور لإبراهيم البقاعي (ت: ٨٨٥هـ).

(٢) ينظر الإتقان للسيوطي(٢/ ١٤٩ ـ ١٥٢).

(٣) انظر: في تفسير الآية: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، وروح المعاني للألوسي، والنبأ العظيم للشيخ محمد دراز.

٢ـ الإعجـــاز الغيبي:

لقد أخبر الله تعالى في القرآن الكريم عن أحداث سابقة، لنزوله، وعن أحداث تالية لنزوله، لم يشهدها النبي ﷺ، ولا سبيل إلى علمه بها، إخباراً دقيقاً صحيحاً بما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، كما قال سبحانه وتعالى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] فمن أمثلة غيب الماضي، قصص الأنبياء، والصالحين، ومنها قصة أصحاب الكهف: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ومن أمثلة غيب المستقبل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، ومن أمثلة ذلك أيضاً ذكر القرآن الكريم انتصار الروم على الفرس في بضع سنين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ ـ ٤].

إن هذا الجانب من الإعجاز القرآني المتعلق بالغيب، بإخباره عن عهود وأخبار لأمم غابرة، على وجه الدقة والتحقيق، ما كان له ﷺ ولا لقومه من سبيل لعلمها، والإخبار عن أمور لم تزل وراء حجب الغيب، ثم تتكشف في زمن قادم بعد إخبار القرآن عنها بسنين، لهو أمر من أقوى وأوضح الأدلة على صدق هذا القرآن وصدق الموحى به إليه.

٣ـ الإعجاز التشريعي:

لقد عرفت البشرية في عصورها المختلفة ألواناً من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد والمجتمع، لكن لم يبلغ واحد منها الكمال الذي عليه القرآن الكريم في إعجازه التشريعي.

إن تعاليم القرآن موجهة للعالم بأسره، نزلت لتعم البشر كلهم، بغض النظر عن جنسهم ولونهم وفقرهم وغناهم، لتكفل لهم ما يحقق الأمن، ويقيم بينهم الإصلاح والحق والعدل، وتدفع عنهم الظلم والتظالم، الأمر الذي يضمن سعادتهم واستقرار مجتمعاتهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

ولهذا فالقرآن الكريم، هو نعمة جليلة مسداة من الله للإنسانية، وحري أن يكون بمثابة حظوة لدى المسلمين، بل لدى ذوي الألباب؛ لأنه ليس كتاباً قاصراً على الصلوات والعبادات وحسب، مع أنه جاء منها بالموائم مع الفطر المقوم للنفوس، وإنما هو أولاً وقبل ذلك، مؤسس لحرية البشرية من العبودية لغير خالقها سبحانه وتعالى، وذلك بجعله الناس كلهم لا يتجهون بقلوبهم وعقولهم وجوارحهم على وجه العبادة إلا لله الواحد، عبادتهم له وتشريعاتهم منه، وتحاكمهم إليه، وقد تكفل القرآن لهم ببيان هذا وهذا، على أوضح ما يكون البيان.

وجوانب التشريعات القرآنية متعددة، منها ما اصطلح عليه بالعبادات، ومنها المعاملات المعروف بالقانون المدني، ومنها الأحوال الشخصية، ومنها القانون الجنائي، ومنها العلاقات الدولية، إلى غير ذلك.

وسوف نفرد الكلام عن نموذج واحد من هذه التشريعات ألا وهو نظام الإرث في القرآن الكريم، حيث جعل أسباب الميراث ثلاثة هي:

١ ـ **القرابة**: وهي من ثلاثة نواح، الأصول: الآباء والأمهات والأجداد والجدات وإن علوا، والفروع من الأبناء والبنات والأحفاد وإن نزلوا، والعصبات: من الإخوة والأخوات على التفصيل.

٢ ـ **النكاح**: ويشمل توريث أحد الزوجين من الآخر.

٣ ـ **الولاء**: أن يرث السيد عبده الذي أعتقه، إذا لم يكن لهذا العبد من يرثه.

أما عند العرب في الجاهلية فأسباب الميراث القرابة والحلف، وليس النكاح سبباً من أسبابه عندهم، فليس للمرأة حق في مال زوجها، وكانوا يورثون الأبناء الذكور دون البنات، والكبير دون الصغير.

فمناط الميراث عند العرب قبل الإسلام كان الرجولة والقوة، ولذا حرموا الأطفال والنساء من الميراث، ولما جاء الإسلام بآيات الميراث، أتى بالعدل والإنصاف للضعفاء من الأقوياء مع عدم إنقاص القوي من حقه.

إن مما تميز به نظام الميراث في الإسلام أن الله سبحانه، وهو الحكم العدل، تولى بنفسه البت فيه في كتابه المعجز القرآن الكريم، كما قال ﷺ: «**إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث**»(١)، ولأجل ذلك كان (نظام الميراث في الإسلام نظاماً حكيماً، فضلاً عن كونه

(١) أخرجه الترمذي برقم ٢١٢٠، وصححه الألباني.

عادلاً، وضّح من هم الورثة الشرعيون، وأنزلهم منازلهم في تركة المورث حسب قرابتهم منه، وحسب وضعهم الاجتماعي في الحياة، وما تفرض عليهم هذه الأوضاع من تبعات وأعباء يتلقونها عن المورث كما تلقوا عنه تركته أو بعض تركته)[١].

ولأن الأشياء بضدها تتميز فيمكن مقارنة نظام الميراث في الإسلام ببقية الأنظمة ليظهر البون الشاسع في تحقيقه العدل دونها[٢].

وقد أثيرت بعض الشبهات المغرضة على نظام الميراث في الإسلام، من قبل أعداء الدين وأتباعهم، لا سيما في مسألة للذكر مثل حظ الأنثيين، في ميراث الأبناء، ليطيروا بها مجتزأة كما لو كانت قاعدة مطلقة عامل بها الإسلام كل أنثى وفي كل حال ميراث، بينما الواقع ليس كذلك، ثم هم يغضون الطرف عن نظام الحقوق والنفقات والواجبات في الإسلام، التي يكون فيها للأنثى حظوظ ليست للذكر، بل هي عليه.

وبيان زيف هذه الشبهة وتهافتها لا يحتاج إلى كبير عناء؛ وذلك بإزاء بيان ما للأنثى من حقوق في نواحي الميراث الأخرى، وما لها من حقوق ونفقات على الولي الذكر[٣].

وأمر آخر قريب الصلة مما نحن فيه، وهو النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، وهو باب واسع شامل لكل شؤون المال كسباً وصرفاً ومداولة، وقد جاء الإسلام فيه كشأنه في كل أنظمته بالأفضل والأكمل، وبأتم ما يحقق العدل والكفاية، ويجنب المهالك والمشاحانات، ويكون سداً دون أكل مال الناس بالباطل، بشهادة العدو قبل الصديق، وسيأتي تفصيل ذلك في المستوى الثالث للثقافة الإسلامية بحول الله تعالى.

٤ـ الإعجاز العلمي التجريبي:

عندما نتحدث عن الإعجاز العلمي ينبغي أن نبقى في حدود الآيات الكونية وما وصل إليه العلم من حقائق بشأن الكون ومعارفه التي أصبحت في منزلة المتيقن منها علمياً، مع الابتعاد عن النظريات التي لا تزال في دائرة الفروض العلمية، حتى لا نقع في تناقض لأنه ليس ثمة تعارض بين العلم والدين، فإن الله سبحانه هو مصدر الحق في الاثنين، قال

(١) انظر: أحكام ميراث المرأة في الفقه الإسلامي ص ١٢٥، وورود عادل إبراهيم عورتاني.

(٢) انظر: المصدر السابق ص١٢٥ وما قبلها.

(٣) انظر: العدالة في النظام الاجتماعي في الإسلام ص ١٠٧ ـ ١٠٩، الدكتور محمد عبد الغني.

عزَّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٧٠] وإذا لوحظ أن هناك اختلافاً فليس بين علم ودين، بل بين دين وجهل أخذ سمة العلم، أو بين علم ولغو لبس سمة الدين، لأن علماء الشريعة يأخذون الحقيقة من كلام الله عزَّ وجلّ، وحديث رسول الله ﷺ، ورجال العلم التجريبي يستوحون الحقيقة من صنع الله، فكلا الحقيقتين مرجعهما إلى الله.

معنى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

هو إخبار الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، بحقائق أكدها وأظهرها العلم التجريبي الحديث، ثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن رسول الله ﷺ.

ضوابط لدراسات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

يعد الإعجاز العلمي التجريبي للقرآن الكريم أسلوباً دعوياً يتلاءم مع طبيعة العصر الحاضر، وحتى لا يندفع الناس في التوسع في هذا الجانب وضع أهل العلم ضوابط تجعل دراسة الإعجاز العلمي في المسار الصحيح الذي يخدم القرآن ويحافظ على مكانته ومن هذه الضوابط:

١ ــ الأصل أن القرآن الكريم هو كتاب هداية، يهدي الناس إلى بارئهم في تحقيق العبودية، والاستخلاف في الأرض، فينبغي أن تكون الدراسات المتعلقة بالحقائق العلمية في حدود تحقيق هذا الهدف الأساس للقرآن الكريم.

٢ ـ اليقين باستحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية؛ لأنهما من مشكاة واحدة، ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الفرقان: ٦]. ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

٣ ـ الالتزام بالحقائق العلمية الثابتة بالقطع، فلا يجوز تفسير الآيات بفرضيات أو نظريات لم ترتق إلى مستوى الحقيقة العلمية الثابتة.

٤ ـ موافقة اللغة العربية موافقة تامة، بحيث يتطابق المعنى المفسر مع المعنى اللغوي، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣]. أما إذا فتح باب التأويل، فإنه باب لا ينضبط.

٥ ـ عدم مخالفته لصحيح المأثور عن رسول الله ﷺ.

٦ ـ موافقة سياق الآيات، بحيث لا يكون التفسير نافراً عن السياق.

٧ ـ التحذير من أن يتعرض التفسير العلمي التجريبي للأخبار وشؤون المعجزات الغيبية.

٨ ـ عدم حصر الدلالة العلمية للنظم القرآني فيما توصلنا إليه، وإبقاء الدلالات الأخرى للنظم لما قد يظهر مستقبلاً من حقائق لم نتوصل إليها، وإبقاء سعة ومرونة الأسلوب القرآني على ما هي.

٩ـ عدم القطع والجزم بأن هذه الحقيقة العلمية المعينة، هي مراد الله تعالى من هذه الآية.

نماذج من الإعجاز العلمي التجريبي للقرآن الكريم:

لقد قامت هيئة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، التابعة لرابطة العالم الإسلامي، بإبراز هذا الجانب بالأسلوب العلمي وفق الضوابط التي وضعها العلماء، وأنجزت العديد من البحوث وعقدت عدداً من المؤتمرات، ولها موقع متخصص على الشبكة العنكبوتية، ولها مجلة علمية متخصصة.

ومن الأمثلة التي كتب فيها العلماء:

١ ـ **خلق الإنسان**: الذي يقول الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]، فهذه الآية تشرح أطوار خلق الإنسان بدقة متناهية ووصف دقيق في وقت لم يكن العلم البشري ـ وقت نزول القرآن الكريم ـ يعرف تلك الأطوار. فهذه آية معجزة ذكرت بدقة ما توصل إليه العلم الحديث من حقائق بعد اختراع وسائل التصوير والكشف التي استطاع الأطباء من خلالها معرفة هذه الأطوار(١).

٢ ـ **آثار الرياح في تلقيح الأزهار ونزول المطر**: قال الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

ففي هذه الآية يمكن أخذ المعنى الأول، وهو دور الرياح في نقل حبوب اللقاح إلى أعضاء التأنيث في الأزهار ليتم الإخصاب وتتكون الثمار، وهو دور معروف وثابت علمياً،

(١) ينظر كتاب خلق الإنسان في القرآن للدكتور محمد علي البار.

وأيضاً لها دور مباشر في نزول المطر، حيث نجد القرآن الكريم دائماً يربط بين الرياح والمطر كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧][(١)].

٣ ـ البنان وعلم البصمات: قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣ ـ ٤]. هذه الآية تذكر قدرة الله عزَّ وجلّ على إعادة الخلق بعد الموت، وهي عند الناس قدرة عظيمة جداً، وكل الناس يسلمون بعظمتها ويدركون ضخامتها، إلا أن الآية تذكر وجهاً آخر من وجوه عظمة وقدرة الخالق، بل الآية تجعل هذا الوجه في مرتبة البعث بعد الموت، وهذه آية محسوسة لدى البشر في الدنيا، لتدل على قدرة الله تعالى، والإيمان بما أخبر عنه سبحانه وتعالى، من إعادة الخلق بعد الموت، فالله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فاستدل بالآية المحسوسة المنظورة على الحقيقة الغيبية غير المنظورة.

وهذا الوجه هو (تسوية بنان الإنسان)، والبنان هو الإصبع ليس شيئاً عظيماً بالنسبة لمعرفة الناس وعلمهم، وهنا موضع الإعجاز، فقد كشف العلم الحديث وجه العظمة في خلق البنان وهو (علم البصمات) فقد أثبت العلم الحديث أن بصمات الأشخاص ـ في الأصابع عموماً وفي الإبهام خصوصاً ـ لا يشبه بعضها بعضاً، وكل بصمة تخص صاحبها وتميزه عن غيره من جميع البشر، ففي هذه المساحة الضيقة يتميز كل إنسان عن غيره، فلا تشابه بين بنان وآخر مع ألوف الملايين من الناس[(٢)].

٥ ـ الإعجـــاز النفسي:

احتوى القرآن على أصول الدين وشرائع الإسلام، لكن هذه الشرائع والأصول لا تستغرق كل القرآن، فالإسلام دين يسر وسماحة، وتكاليفه ليست مرهقة، وإنما كثرت السور القرآنية واستبحرت آياته لكي تعرض الحقائق الدينية في أسلوب مفعم بالإقناع فياض بالأدلة، فإن من أهداف هذا الوحي ـ زيادة على تقرير الحق والشرع الذي جاء به ـ هو كيف يغرس هذا الحق في النفوس؟ ولذا يقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ

(١) ينظر ما كتبه الدكتور: زغلول النجار.

(٢) ينظر مباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم.

ﭐلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾ [الكهف: ٥٤]، والقرآن الكريم يلفت النظر إلى أن النفس البشرية من عجائب خلق الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقد جعلها القرآن الكريم مناصفة مع آيات الكون فقال سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ولذا خاطب القرآن الكريم النفس الإنسانية محيطاً بمشاعرها وملبياً حاجاتها، ومعالجاً عللها، وموجهاً لها نحو الخير يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن النفس منها قوله: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٩].

هذه نماذج لبعض أوجه الإعجاز القرآني. والمقام لا يناسب التفصيل، وإنما ذكرنا نماذج لأوجه كثيرة يصعب حصرها، ويمكن الرجوع إلى تفصيلها في الكتب المختصة[1].

---

(١) كتب للاستزادة في موضوع الإعجـــاز:

١- إعجاز القرآن الكريم لفضل عباس وسناء فضل.
٢- مباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم.
٣- الموقع الإلكتروني لموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
٤- الموقع الإلكتروني للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
٥- خلق الإنسان بين الطب والقرآن. د/ محمد علي البار.
٦- إعجاز القرآن للباقلاني.
٧- الإسلام في عصر العلم لمحمد أحمد الغمراوي.
٨- بصائر جغرافية ـ رشيد رشدي العابدي.
٩- الكون والإعجاز العلمي للقرآن، منصور محمد حسب النبي.

القسم الثاني: التفسير

بعد بيان الكلام عن القرآن الكريم وبعض موضوعاته يحسن بنا أن ندلف الآن إلى إعطاء صورة موجزة ونموذج من نماذج العلوم القرآنية المتعلقة القرآن الكريم، ألا وهو علم التفسير.

١) أهمية علم التفسير:

علم التفسير من أهم العلوم وأشرفها وأشملها، فأما كونه أشرف العلوم فلتعلقه بكلام الله عزَّ وجلّ، تدبراً وفهماً، وتفسيراً وبياناً، وأما كونه أشمل العلوم فلأنه يتناول جميع موضوعاتها، فتارة يتحدث عن العقيدة، وتارة عن العبادة، وأخرى يتحدث عن الأحكام والمعاملات، وعن غير ذلك من العلوم كالتاريخ والفلك، وعن البحار والأنهار، وهكذا فهو يتنقل بين جميع العلوم، وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه العلوم والذخائر، مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن، وتوافدوا على قراءته.

٢) تعريف علم التفسير:

التفسير في اللغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

التفسير في الاصطلاح: علم يُفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه ﷺ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه(١).

وعرفوا علم التفسير أيضاً: بأنه علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله، وسنده، وأدائه، وألفاظه، ومعانيه المتعلقة بالألفاظ، والمتعلقة بالأحكام(٢).

٣) طرق التفسير وأنواعه:

والتفسير له طرقه المعروفة التي ذكرها العلماء وهي:

١- تفسير القرآن الكريم بالقرآن الكريم.

---

(١) ينظر: الإتقان للسيوطي (٢/ ١٧٤)، ومناهل العرفان (٢/ ٣)، ومنهج الفرقان في علوم القرآن(٢/ ٦). والإسرائيليات والموضوعات لأبي شهبة (ص٢٧).

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٤).

٢- تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية.

٣- تفسير القرآن الكريم بأقوال الصحابة.

٤- تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد عن طريق معرفة لغة العرب واجتهاد العلماء لا سيما التابعون.

وأحسن (طرق التفسير وأصحها، تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة النبوية، ثم بكلام الصحابة، ثم بكلام التابعين، ثم الاجتهاد وبذل الوسع في معرفة المراد من كلام اللهّ سبحانه، مع التدين الصادق، وسلامة الوِجهة، وإخلاص القصد لله رب العالمين)[١].

والمؤلفات في التفسير على ثلاثة أقسام:

١- ما يكون مختصراً يعرض مؤلفه فيه تفسير الآيات على ما ترجح عنده دون ذكر لخلاف أو سرد لأقوال ــ غالباً ــ، وذلك كتفسير البيضاوي والنسفي والجلالين وابن سعدي. لكن يتنبه إلى أن الثلاثة الأول سلكت في تفسير آيات الصفات مسلك أهل التأويل المذموم.

٢- ما يكون مهتماً بذكر الخلاف بين المفسرين مع عدم الاهتمام بالترجيح، وإن رجَّح فلا يذكر وجه الترجيح إلا نادراً كالماوردي وابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير».

٣- المطولات التي تذكر الخلاف مع الترجيح وبيان وجه الترجيح كتفسير الطبري والبغوي والقرطبي وابن كثير وابن عطية والشنقيطي وغيرهم.

ومنها ما يهتم ويقتصر على آيات الأحكام، كأحكام القرآن لابن العربي والقرطبي، ومنها ما يهتم بالآثار وجمعها كتفسير ابن أبي حاتم والطبري والسيوطي في الدر المنثور، ومنهم من يجمع بين المأثور والمعقول (الرأي) كتفسير الشوكاني (فتح القدير).

ومما يجب على طالب العلم إذا أراد الرجوع إلى تفسير آية أن يتحرى ويتعرف على سلامة المنهج العقدي للمفسر ويحذر تفسير المبتدعة، لأن العقيدة لها أثرها في نفس صاحبها، وكثيراً ما تحمل العقيدة المنحرفة والبدعة صاحبها إلى تحريف النصوص والخيانة في نقل الأخبار، فإذا صنف أحدهم كتاباً في التفسير أوَّل الآيات التي تخالف عقيدته، وحَمَّلَها باطل مذهبه، فيصد الناس عن اتباع السلف ولزوم طريق الهدى. ولكل فرقة من الفرق العديد من كتب التفسير التي تنصر مذهبها وتدعو له كتفاسير الرافضة والصوفية والمعتزلة والأشاعرة والعصرانيين في العصر الحديث وغيرهم.

---

(١) تفسير ابن المنذر (١/ ٨)، تحقيق سعد محمد السعد، طبع دار المآثر، المدينة المنورة، ط١ عام١٤٢٢هـ.

سـورة الحجـرات

بعد أن عرفنا مكانة القرآن الكريم في الشريعة الإسلامية، وواجب المسلم في العمل به والاحتكام إليه، وتعرفنا على عناية الأمة الإسلامية بهذا الكتاب تفسيراً وشرحاً، نأخذ هذه السورة الكريمة التي ترسم لنا الآداب الإسلامية، لنتعرف من خلالها على كيفية فهم كتاب الله عزَّ وجلّ عن قرب، ولتكون لنا هذه الدراسة نموذجاً لكل دراسة نشرع فيها لأي سورة من سور القرآن الكريم.

تسميتها وعدد آياتها:

١) سميت سورة (الحجرات) لأن الله سبحانه وتعالى ذكر فيها تأديب أجلاف العرب الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء بيوت نسائه أمهات المؤمنين الطاهرات، وهي حجرات تسع لكل واحدة منهن حجرة، ولذا ذكر فيها لفظ (الحجرات) فسميت بها.

(والحجرة هي البقعة المحجورة بجدار ولا يستعملها غير حاجزها)[١].

٢) وسميت أيضاً سورة الأخلاق والآداب، فقد بينت أصول الآداب مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ ومع المسلمين ومع سائر الناس، كما بينت جملة من الأخلاق الإسلامية من خلال النداءات الخمس للمجتمع المسلم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣) وعدد آياتها (١٨ آية) وهي مدنية بالإجماع نزلت في السنة التاسعة من الهجرة كما قرره ابن كثير، وهي أول المفصل على قول بعض أهل العلم.

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لسورة (ق) وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة: إنه من(عَمّ) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم[٢].

مناسبتها لما قبلها:

لقد جاءت سورة (الحجرات) بعد سورة (الفتح) وتَظهر مناسبتها في نواح ثلاث هي:

١- جاء في سورة الفتح حكم قتال الكفار، وهم العدو الخارجي الذي يهدد الدولة المسلمة، وفي هذه السورة جاء حكم قتال البغاة، وهم العدو الداخلي الذي يقوم بثورة داخلية حتى تفيء إلى أمر الله، وتقبل الصلح مع المؤمنين.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/ ١٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٢).

٢- جاءت سورة الفتح، خاصة في مطلعها، تشريفاً وتكريماً لرسول الله ﷺ، والتشريف يقتضي من المؤمنين الرضا بما رضي به رسول الله ﷺ من صلح الحديبية، وفي سورة الحجرات أمرهم بعدم التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، والتسليم له والانقياد لأمره، وعدم رفع الصوت تشريفاً وتعظيماً له ولما جاء به من أحكام.

٣- جاء في السورتين ذكر لبعض أخلاقيات الأعراب، والتوجيه بكيفية التعامل معهم وتقويم ما اعوج من سلوكياتهم وأخلاقهم.

٤- ختمت سورة الفتح بقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وافتتحت سورة الحجرات بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تذكيراً لهم بحرمته عند الله، مما يوجب عليهم المحافظة على هذه الدرجة بطاعة الله عزَّ وجلّ وطاعة رسوله ﷺ.

المعنى العام للسورة ومقاصدها وما اشتملت عليه من آداب:

لقد اشتملت هذه السورة على أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع الإسلامي وتربيته على الأخلاق والقيم والآداب، حتى إنها سميت بسورة الأخلاق، فهي تأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب العامة والخاصة على النحو الآتي.

١) لقد بدأت السورة بالآداب الخاصة، فبدأت بالأدب مع الله تعالى حيث أوجبت طاعة الله عزَّ وجلّ وطاعة رسوله ﷺ، وحذرت من المخالفة. في النداء الأول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي(١).

ثم أمرت بمزيد من الأدب مع رسول الله ﷺ والإجلال والتعظيم له بخفض الصوت عند خطابه بحيث لا يعلو صوت أحدهم على صوت رسول الله ﷺ، وجعلت خفض الصوت من علامات التقوى.

ثم لفتت نظر المؤمنين إلى حصر خطاب رسول الله ﷺ بصيغة النبوة والرسالة، لا باسمه وكنيته كما اعتادت العرب أن يخاطب بعضها بعضاً، وذمت من ينادي رسول الله ﷺ من وراء حجرات أمهات المؤمنين، رضوان الله عليهن.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٤).

٢) ثم تحدثت السورة عن الآداب العامة للمجتمع المسلم الفاضل، وهذه الآداب متعلقة بعلاقات الناس بعضهم ببعض، فحذرت من الشائعات التي يروجها الفساق، وأمرت بالتثبت في نقل الأخبار، مع الإشادة بمقتضى الإيمان، والتنفير من الكفر والفسوق والعصيان.

٣) ثم أوضحت العلاج الناجع إذا بلغت المنازعات بين المؤمنين القتال داخل المجتمع الإسلامي من خلال الصلح، فإذا رفضت إحدى الفئتين الصلح واعتدت فيرفع عدوانها ولو بالقتال حتى تعود لصف الجماعة المسلمة، فإذا عادت أمر بالصلح والعدل بين جماعات المؤمنين.

٤) ثم أعلنت قيام الأخوة الإيمانية بين أفراد المجتمع المسلم، وحذرت من الأخلاق الذميمة: إثارة النزاع والهمز واللمز، والتنابز بالألقاب، سواء الرجال والنساء في ذلك، وكذا سوء الظن بالمسلم وتتبع عوراته، وغيبته والنم له وعليه، مما يؤدي بالمجتمع إلى التفكك والضياع.

٥) ثم أعلنت مبدأ الإخاء الإنساني، من حيث الأصل، والمساواة بين الشعوب، من مختلف الأجناس والألوان والعناصر، وحصرت التفاضل بالتقوى والعمل الصالح ومكارم الأخلاق.

٦) ثم ختمت السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا أن الإيمان كلمة تقال باللسان، فميزت بين الإسلام والإيمان، فذكرت شروط المؤمن الكامل وهو الذي جمع الإيمان بالله ورسوله، والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، وعابت المنَّ على رسول الله ﷺ بالإسلام، بل المنة لله ولرسوله، ووضعت لهم ضابط احترام القيم الدينية والأخلاقية، وهو رقابة الله جل جلاله لعباده، وعلمه بالغيب، وبصره بجميع أعمال الخلق.

وتظهر وحدة السورة الموضوعية في التأكيد وإرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ومعالي الآداب. وجاء النداء فيها باسم الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خمس مرات بعد كل مرة ينبه إلى مكرمة من مكارم الأخلاق الأساسية.

١- فكان النداء الأول للتنبيه إلى ما يتعلق بالأدب مع الله جل وعلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

٢- بينما كان النداء الثاني للتنبيه إلى ما يتعلق بالأدب مع رسول الله ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ

أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾. مع ما في النداء الأول من أدب معه ﷺ مقروناً بالأدب مع الله تعالى.

٣- أما النداء الثالث فكان للتنبيه على وجوب التحرز من الفساق وأنبائهم والتثبت من ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ...﴾ مع الإشارة إلى ما يترتب على التفريط في ذلك من مفاسد فردية وجماعية.

٤- ثم جاء النداء الرابع لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم والازدراء بهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٞ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرٗا مِّنْهُمْ ...﴾ الآيات.

٥- وختمت هذه النداءات بالنداء الخامس لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة المؤمن حال غيبته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ ﴾.

وفي هذا من حسن الترتيب[1] وروعة التنسيق ما لا يخفى على متأمل.

وفيما يلي سنقف مع **شرح الآيات بحسب تسلسلها:**

المقطع الأول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾.

١- المفردات ومعانيها:

قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أي لا تتقدموا، والتقدم قد يكون حسياً وقد يكون معنوياً. قال ابن عباس: «نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه»[2].

٢- شرح الآيات:

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا ابتدأ الخطاب بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنه كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إما خير يأمر به، وإما شر ينهى عنه، فارعه سمعك»[3].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٧/ ١١٨)، وتفسير القاسمي (١٥/ ١٤٦).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٠٥).

(٣) تفسير السمعاني (٢/ ٥). وسنن سعيد بن منصور (١/ ٢١١). بلفظ فأصغ لها سمعك.

وفيه دليل على أن ما صدَّر الله تعالى به الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فالتزامه من مقتضيات الإيمان، ومخالفته نقض في الإيمان.

تبدأ السورة بأول نداء حبيب، نداء من الله للذين آمنوا يا أيها الذين أقروا بوحدانية الله، ونبوة نبيه محمد ﷺ، لا تعجلوا بقضاء أمر من أمور دينكم أو دنياكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، بغير علم ولا إذن من الله تعالى ورسوله ﷺ، وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً تشريع ما لم يأذن به الله، وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحله؛ لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا حلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله. ثم يختم الآية بطلب امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأن يخافوا الله سبحانه في أقوالهم، أن يقولوا ما لم يأذن الله به ولا رسوله، إن الله سميع لما تقولون، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم، لا يخفى عليه شيء مما في صدوركم، وغير ذلك من أموركم وأمور غيركم. فالسمع يتعلق بالمسموعات، والعلم يتعلق بالمعلومات.

ولقد تأدب صحابة رسول الله ﷺ مع ربهم ومع رسولهم، فقد كان رسول الله ﷺ يسألهم عن اليوم الذي هم فيه، والمكان الذي هم فيه، وهم يعلمونه حق العلم، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم، خشية أن يكون في قولهم تقديم بين يدي الله ورسوله.

كما جاء في حديث حجة الوداع عن أبي بكرة ﷺ، قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال: «أتدرون أي يوم هذا؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «أي شهر هذا؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال «أليس ذو الحجة؟»، قلنا: بلى، قال «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟»، قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض»[1].

(١) أخرجه البخاري (١٧٤١).

٣) أهم الفوائد والأحكام المستنبطة:

١ - هذه الآية أصل في وجوب طاعة الله ورسوله، وتقديم حكم الكتاب والسنة على ما سواهما ووجوب اتباع النبي ﷺ والتسليم لأمره والانقياد لذلك.

٢ - وفيها تحريم الاعتراض على النبي ﷺ في قوله وفعله وتقريره.

٣- وفيها تحريم تقديم أي قول أو رأي أو معقول أو اجتهاد أو غير ذلك من الأمور على ما ثبت عن النبي ﷺ من سنة، ومن أخطر ذلك التقدم بين يدي الله ورسوله بالابتداع في الدين، لأن كل بدعة ضلالة.

٤ - وفيها وجوب تقوى الله عز وجل في السر والعلن.

المقطع الثاني:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

١) المفردات ومعانيها:

قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ أمرهم تعالى أن يخاطبوه ﷺ بالسكينة والوقار.

قوله تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أي: مخافة أن تحبط أعمالكم. أو لئلا تحبط أعمالكم[1].

قوله تعالى: ﴿يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾: الغض هو خفض الصوت.

قوله تعالى: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾: أي أخلصها للتقوى، فلم يبق فيها لغير التقوى حق.

هذا هو الأدب الثاني: أدبهم مع نبيهم في الحديث والخطاب، وتوقيرهم له في قلوبهم، توقيراً ينعكس على نبراتهم أصواتهم، ويميز شخص رسول الله ﷺ بينهم، ويميز مجلسه فيهم، والله يدعوهم إليه بذلك النداء الحبيب؛ ويحذرهم من مخالفته بهذا التحذير الرهيب. يا أيها

(١) تفسير الطبري (٢٦/ ٢٢٠).

الذين صدّقوا الله ورسوله لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ؛ تتجهمونه بالكلام، وتغلظون له في الخطاب، ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه: يا محمد، يا محمد، وهذا كقوله سبحانه ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، ولكن قولاً ليناً وخطاباً حسناً، فيه تعظيم له وتوقير وإجلال، يا نبي الله، يا رسول الله، ونحو ذلك، ألا تحبط أعمالكم فتذهب باطلة لا ثواب لكم عليها ولا جزاء؛ برفعكم أصواتكم فوق صوت نبيكم، وجهركم له بالقول كجهر بعضكم لبعض، وأنتم لا تعلمون ولا تدرون.

ولقد عمل هذا النداء الحبيب في قلوب الصحابة الكرام عمله العميق الشديد؛ وكانت الإجابة المباشرة للتوجيه القرآني والخوف من أن يكون قد وقع المسلم فيما نهت عنه هذه الآية. فهذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما نزلت هذه الآية يقول للنبي ﷺ: «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله عز وجل»(١). وهذا ثابت بن قيس بن الشماس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان رفيع الصوت ـ لما نزلت هذه الآية قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، أنا من أهل النار، حبط عملي، وجلس في أهله حزيناً.

ففقده رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ، مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول. حبط عملي، أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال. فقال النبي ﷺ: «**بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(٢).

وفي رواية «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة»؟ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله، لا أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أبداً، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٣).

فهذا ثناء من الله سبحانه على صحابة رسول الله ﷺ الكرام، رضوان الله عليهم، الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله، ويتكلمون بأدب رفيع وغض للصوت، أولئك ـ وهي من أسماء الإشارة الدالة على البعد، أتى به لبيان رفعة منزلتهم وعلوها ـ أولئك الذين أخلص الله

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٢)، والبيهقي في المدخل من حديث أبي هريرة قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه مسلم (١١٩)، وأحمد (٣/ ١٣٧).

(٣) تفسير الطبري (٢١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١).

قلوبهم للتقوى، ومحصها وجعلها أهلاً ومحلاً، فطهرت قلوبهم من كل قبيح، فهذه الآية تؤكد أن الصلاح هو صلاح القلب، وفي الحديث قوله: «التقوى ها هنا» وأشار إلى صدره الشريف ﷺ(١).

لهم من الله عفو عن ذنوبهم السالفة، وصفح منه عنها ولهم ثواب جزيل وهو الجنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول سبحانه لنبيه محمد ﷺ: إن الذين ينادونك من وراء حجراتك، غرف أمهات المؤمنين، لم يتأدبوا مع رسول الله ﷺ وجعلوا ينادونه من وراء الحجرات، لأنهم لا يقدرون الأمور قدرها، وهم جفاة جهال لا يعقلون الأصول والآداب، ولا يدركون ما يجب لك من التعظيم والاحترام، وليس لديهم عقل رشد يدفعهم إلى حسن التصرف، ولو أن هؤلاء الذين ينادوك يا محمد من وراء الحجرات صبروا فلم ينادونك حتى تخرج إليهم في وقتك المعتاد، لكان خيراً لهم عند الله، لأن الله قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك، فهم بتركهم نداءك تاركون ما قد نهاهم الله عنه، وحاجتهم ستقضى؛ لأن رسول الله ﷺ لم يأته أحد في حاجة إلا قضاها، إذا كان يدركها، وهو أحق الناس بقول الشاعر:

ما قال لا قط إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم(٢)

وفي ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن الله غفر لهم ورحمهم، وهذا من كرمه عزَّ وجلّ، أنه لم يؤاخذ هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب، وهذا حث على التوبة والإنابة وطلب المغفرة.

ورد أن هذه الآيات نزلت في الأقرع بن حابس التميمي وكان من وفد تميم؛ فنادى النبي ﷺ: يا محمد يا محمد، وفي رواية: يا رسول الله، فلم يجبه، فقال: يا رسول الله إن حمدي لزين وذمي لشين، قال ﷺ: «**ذاك الله عز وجل**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٦٥٠).

(٢) تفسير أبي السعود (١/ ١٩)وعزا البيت إلى حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وعزاه علي القاري في جمع الوسائل(٢/ ١٦٧) إلى الفرزدق.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٨) قال السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٨٩): «أخرجه أحمد وابن جرير وأبو القاسم =

٣) أهم الفوائد والحكم المستفادة من الآيات:

أ ـ أن حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته في حياته، وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط وأصواتهم مرتفعة ارتفاعاً مزعجاً كله لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر، وقد شدد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النكير على رجلين رفعا أصواتهما في مسجده ﷺ، فجاء فقال: أتدرون أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً[(١)].

ب ـ أن عدم احترام النبي ﷺ المشعر بالغضب منه، أو تنقيصه ﷺ والاستخفاف به أو الاستهزاء به، ردة عن الإسلام وكفر به[(٢)]. وقد قال الله تعالى في الذين استهزؤوا بالنبي ﷺ وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلت راحلته: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

ج ـ أنه يجب على كل إنسان أن يميز بين حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته، التي لا يجوز صرفها لغيره، وبين حقوق خلقه كحق النبي ﷺ، ليضع كل شيء في موضعه، على ضوء ما جاء به النبي ﷺ من القرآن العظيم والسنة الصحيحة، وإذا عرفت ذلك فاعلم: أن من الحقوق الخاصة بالله تعالى، التي هي من خصائص ربوبيته، التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدر على كشفها إلا الله... قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢][(٣)]. فلا يصرف للنبي ﷺ شيء من العبادة التي لا تكون إلا لله تعالى، كالدعاء والاستغاثة وطلب المدد والغوث وقضاء الحاجات وغير ذلك من أنواع العبادات.

د ـ إذا ربطنا بين النهي عن رفع الصوت وعن عدم توقيره ﷺ في النداء، وهي أمور

=

البغوي وابن مردويه والطبراني بسند صحيح».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٧٠).

(٢) لكن هنا المقام مختلف إذ (ليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لان ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون. انظر: تفسير القرطبي ١٦/ ٣٠٧.

(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٠٣).

حسية، مع النهي عن التقدم عليه ﷺ وهو أمر معنوي، خرجنا بفائدة وهي أنه من باب أولى عدم التقدم بين يديه ﷺ بتقديم الأهواء والآراء والأذواق... إلخ على سنته ﷺ. فيجب خفض الصوت أثناء مخاطبة النبي ﷺ، والامتناع من الجهر بالأصوات أعلى من صوته، مراعاة لمنزلة النبوة وجلالة مقدارها.

هـ ـ أن كلامه ﷺ المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرأ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به، وقد نبه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وكلام النبي ﷺ من الوحي، وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة، بيانها في كتب الفقه(١).

المقطع الثالث: من سورة الحجرات الخاص بالآداب العامة والخاصة:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

١) المفردات ومعانيها:

(الفاسق) هو من انحرف في دينه وعقيدته ومروءته، وخرج عن حدود الدين والشرع(٢).

(بنبأ) الخبر. (فتبينوا) أي اطلبوا بيان الحقيقة ومعرفة الصدق من الكذب.

(أن تصيبوا قوماً) خشية أو كراهية إصابتكم قوماً بمكروه وهو خطأ، فيصيبكم الغم وتتمنون أنه لم يقع. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ﴾ وهو تحذير بألا يقولوا الباطل، لأن الله يعلمه بالحال.

(لعنتم): لوقعتم في الجهد والهلاك والإثم. والعنت: هو المشقة والجهد.

(الكفر) تغطية نعم الله تعالى بجحودها. (الفسوق) الخروج عن حدود الدين.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٧/ ١٦٢).

(٢) انظر: تفسير القرآن للعثيمين(٧/ ١٤).

(العصيان) المخالفة وعدم الطاعة (الراشدون) الثابتون على دينهم، مأخوذ من الرشاد: وهو إصابة الحق واتباع طريق الاستقامة.

(والله عليم): بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل، (حكيم) أي ذو الحكمة البالغة، والحكم التام.

٢) شرح الآيـــات:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

هذا نداء ثالث ابتدئ به غرض آخر وهو آداب جماعة المؤمنين بعضهم مع بعض، يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء، وكيف يتصرفون بها، ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها، وخص ذكر الفاسق لأنه مظنة الكذب، وهو الذي ما يحرمه الشرع من الكبائر.

سبب نزول الآية:

وقد تضافرت الروايات عند المفسرين عن أم سلمة وابن عباس والحارث بن ضرارة الخزاعي أن هذه الآية نزلت بسبب قضية حدثت، ذلك أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق من خزاعة ليأتي بصدقاتهم، فلما بلغهم مجيئه، أو لما استبطئوا مجيئه، فإنهم خرجوا لتلقيه، أو خرجوا ليبلغوا صدقاتهم بأنفسهم وعليهم السلاح، وأن الوليد بلغه أنهم خرجوا إليه بتلك الحالة، وهي حالة غير مألوفة في تلقي المصدقين، وحدثته نفسه أنهم يريدون قتله، أو لما رآهم مقبلين كذلك (على اختلاف الروايات) خاف أن يكونوا أرادوا قتله، إذ كانت بينه وبينهم شحناء من زمن الجاهلية فولّى راجعاً إلى المدينة. وأن الوليد جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن بني المصطلق أرادوا قتلي، وأنهم منعوا الزكاة فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يبعث إليهم خالد بن الوليد، وفي رواية أنه بعث إليهم خالد بن الوليد، وأمره ألا يغزوهم حتى يتثبت أمرهم، فوجدهم يقيمون الصلاة، فأخبرهم بما بلغ رسول الله ﷺ عنهم، وقبض زكاتهم، وفي رواية أخرى أنهم ظنوا من رجوع الوليد أن يظن بهم منع الصدقات فجاؤوا إلى النبي ﷺ متبرئين من منع الزكاة ونية الفتك بالوليد بن عقبة)[١].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٩٠ ــ ١٩٢). وأصل القصة في مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٧٩) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٧٤). وقد طعن بعض أهل العلم في ثبوتها. ينظر تفصيل ذلك: الأنوار الكاشفة (ص٢٦٣) الشيخ: عبد الرحمن المعلمي.

(وهذه الآية أصل في الشهادة والرواية من وجوب البحث عن دخيلة من جُهل حال تقواه، وأصل عظيم أيضاً في تصرفات ولاة الأمور وفي التعامل بين الناس بعضهم مع بعض من عدم الإصغاء إلى كل ما يروى ويخبر به والحذر من الشائعات. والأمر بالتبين أصل عظيم في وجوب التثبت، وألا يتتبع الحاكم القيل والقال، ولا ينصاع إلى الجولان في الخواطر من الظنون والأوهام.

وإنما كان الفاسق معرضاً خبره للريبة والاختلاق لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرئه على الاستخفاف بالمحظور، وبما يخبر به في شهادة أو خبر يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح العام)[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾.

ذكرهم بوجود رسول الله ﷺ بينهم ليعظموه ويسألوه، فبدأ الآية بـ (اعلموا) للاهتمام، بأن وجود رسول الله ﷺ معكم يدعوكم لتعظيمه وتوقيره والانقياد لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم فاتبعوا ما شرع لكم رسول الله ﷺ من الأحكام ولو كانت غير موافقة لرغباتكم. فإنه لو أطاعكم في كثير مما تخبرون به من الأخبار وتشيرون عليه من الآراء غير الصائبة، لأدى ذلك إلى التعب والإثم والهلاك، ولكنه ﷺ يتريث حتى تتضح الأمور، أو يأتيه الوحي المسدد من الله تعالى.

وفي قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ مراعاة لجانب المؤمنين حيث لم ينسب جميع آرائهم إلى الخطأ، وفيه أيضاً تعليم حسنٌ، وتأديب جميل في باب التخاطب، وإشارة إلى تصويب رأي بعضهم، ولهذا استدرك مشيراً إلى رأي بعضهم في ضرورة التريث إلى أن يتبين أمر بني المصطلق، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، والمعنى: ولكن الله لا يأمر رسوله إلا بما فيه صلاح العاقبة وإن لم يصادف رغباتكم العاجلة وذلك فيما شرعه الله من الأحكام، فحبب إليكم الإيمان الذي هو الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ، ودعاكم إلى حبه والرضا به، فامتثلتم.

وفي قوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ تعريض بأن الذين لا يطيعون رسول الله ﷺ فيهم بقية من الكفر والفسوق والعصيان، وتحذير لهم عن الحياد مَهْيَعِ الإيمان، وتجنيباً

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

لهم ما هو من شأن أهل الكفر.

فالخبر في قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ مستعمل في الإلهاب وتحريك الهمم لمراعاة محبة الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، أي: إن كنتم أحببتم الإيمان وكرهتم الكفر والفسوق والعصيان فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدين يصد عنه وكان الفسوق والعصيان يدعو إليه. وفي هذا إشارة إلى أن الاندفاع إلى تحصيل المرغوب من الهوى دون تمييز بين ما يرضي الله وما لا يرضيه أثر من آثار الجاهلية من آثار الكفر والفسوق والعصيان.

وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ وهؤلاء الذين أحبوا الإيمان، وتزينت به قلوبهم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان هم المستقيمون على طريق الحق، والذين تلبسوا بالفسق إذا أقلعوا عنه التحقوا بالراشدين. وقوله ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: إن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان تفضلاً منه عليكم وإنعاماً منه عليكم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليم بكل الأمور الحادثة والمستقبل، حكيم في تدبير شؤون خلقه، وفي أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ذو الحكمة البالغة والحكم التام.

٣) أهم الفوائد والأحكام المستنبطة من هذه الآيات:

أ ـ وجوب التثبت من الأخبار والروايات والشائعات، منعاً من الإيذاء والندامة.

ب ـ وجوب البحث عن عدالة من كان مجهول الحال في قبول الشهادة أو الرواية عند القاضي وعند الرواة، وهذا صريح الآية.

ج ـ في قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ دليل على قبول خبر الواحد في العقيدة أو غيرها إذا كان عدلاً وانتفت عنه تهمة الكذب في روايته أو شهادته، وهو الموسوم بالعدالة.

د ـ ذكر الله الإيمان وقابله بأمور ثلاثة كرهها إليهم وهي الكفر والفسوق والعصيان، والإيمان اسم لثلاثة أشياء: التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح والأعضاء. والكفر هو الإنكار وهو يقابل الإذعان بالجنان، والفسوق يقابل الإقرار باللسان، والعصيان يقابل العمل البدني، فهو ترك العمل بالطاعات والأحكام الشرعية ويشمل جميع المعاصي، وهذا يفيد أن المؤمن المتثبت لا يكذب.

هـ ـ إن من يتأمل في واقع الناس اليوم وينظر إلى الكم الهائل من الأخبار التي نسمعها في كل يوم، ويرى الاختلاف والتباين بين مصادر هذه الأخبار يدرك عظمة هذا الدين، وسمو

هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام، وأمر به القرآن، وحفظته السنة وحفظت به السنة[١].

المقطع الرابع:

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

١) المفردات ومعانيها:

(طائفتان) تثنية طائفة وهي الجماعة من الناس. (بغت) تعدت وجاوزت الحد وجارت، من البغي وهو الظلم. (تفيء) ترجع. (أمر الله) الحق. (المقسطين) العادلين، والقسط يستعمل في العدل وفي الجور. (إنما المؤمنون إخوة) في الدين، وهي أقوى وأدوم من أخوة النسب والصداقة.

٢) شرح الآيـــات:

بعد أن حذر الله تعالى من خبر الفاسق، أبان هنا ما يترتب على خبره من الفتنة والنزاع، وربما الاقتتال، فطلب سبحانه وتعالى الإصلاح بالوسائل السلمية بين المتنازعين كالنصيحة والوعظ والإرشاد والتحكيم، وفق كتاب الله تعالى والرضا بما فيه لهما وعليهما وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل.

والتعبير بـ ﴿وَإِن﴾ للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقع القتال بين المسلمين، وأنه إن وقع، فإنما هو نادر قليل، والأمر فيها للوجوب.

وثبت في صحيح البخاري عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله ﷺ خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى، ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٢] فكان كما أخبر ﷺ، أصلح الله تعالى بالحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة.

---

(١) سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية ص ٢٩٣.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله لها وعليها، وتعدت ما جعل الله عدلاً بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما، فقاتلوا التي تعتدي وتأبى الإجابة إلى حكم كتاب الله حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه، فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل والإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلاً بين خلقه. وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوله: «فإن الله سبحانه أمر النبي ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا، حكم فيهم بكتاب الله، حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم، حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقروا بحكم الله»(١) اهـ.

ويتحقق وصف البغي بفتوى أهل العلم الثقات العدول أن هذه الفئة بغت على الأخرى.

وقد تلتبس الباغية من الطائفتين المتقاتلتين، فإن أسباب التقاتل قد تتولد من أمور لا يؤبه بها في أول الأمر، ثم تثور الثائرة ويتجالد الفريقان فلا يضبط أمر الباغي منهما، فالإصلاح بينهما يزيل اللبس، فإن امتنعت إحداهما تعين البغي في جانبها لأن للإمام والقاضي أن يجبر على الصلح إذا خشي الفتنة ورأى بوارقها؛ وذلك بعد أن تُبَيَّنَ لكلتا الطائفتين شبهتها، إن كانت لها شبهة، وتزال بالحجة الواضحة والبراهين القاطعة، ومن يأبى منهما فهو أعق وأظلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

جعل الفيء إلى أمر الله غاية للمقاتلة، أي يستمر قتال الطائفة الباغية إلى غاية رجوعها إلى أمر الله، وهو ما في الشريعة من العدل والكف عن الظلم، ثم أتبعه بيان ما تعامل به الطائفتان بعد أن تفيء الباغية، وهو العدل والصلح بالرضا والإنصاف، وألا يضر بإحدى الطائفتين، فإن المتالف التي تلحق كلتا الطائفتين قد تتفاوت تفاوتاً شديداً فتجب مراعاة العدل.

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧).

وهذا إصلاح ثان بعد الإصلاح المأمور به ابتداء، ومعناه أن الفئة التي خضعت للقوة وألقت السلاح تكون مكسورة الخاطر شاعرة بانتصار الفئة الأخرى عليها، فأوجب على المسلمين أن يصلحوا بينهما بترغيبهما في إزالة الإحن والرجوع إلى أخوة الإسلام لئلا يعود التنكر بينهما)[١].

وأحكام البغاة وقتالهم كأحوال الجهاد إلا أنه لا يقتل أسيرهم، ولا يُتَّبع مدبرهم، ولا يجهز على جريحهم، ولا تسبى ذرا ريهم ولا تغنم أموالهم ولا تسترق أسراهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

إن الله يحب العادلين ويجازيهم أحسن الجزاء، وهذا أمر بالعدل في كل الأمور، أخرج مسلم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عزَّ وجلّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أمر الله سبحانه بالإصلاح في غير حال القتال ولو في أدنى اختلاف، فإن من لوازم الأخوة أن يصطلحوا، لأن الإيمان يقتضي الأخوة الحقيقية بين المؤمنين، والمحبة القلبية، فلا أقل من الإصلاح الذي هو من لوازم العدالة وأحد خصالها، فوجب على أهل الصفاء، بمقتضى الرحمة والرأفة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية، الإصلاح بينهما وإعادتهما إلى الصفاء.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ افعلوا ما أمركم به الله سبحانه واتركوا ما نهاكم عنه؛ فإن قمتم بهذا فقد جعلتم بينكم وبين عذاب الله وقاية، ليرحمكم الله، فيصفح عن سالف آثامكم، ويثيبكم رضوانه.

٣) أهم الفوائد والأحكام المستنبطة من هذه الآيات:

أ ـ وجوب الإصلاح بين أي فئتين متقاتلتين مسلمتين، بالدعوة إلى التحاكم إلى كتاب الله، وبالنصح والإرشاد والجمع والتوفيق بين وجهات النظر.

ب ـ قتال الفئة الباغية واجب حتى تفيء إلى أمر الله سبحانه، وهي فرقة خالفت الإمام،

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١) باختصار.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

أو الطائفة الأخرى بتأويل سائغ في الظاهر، إذا لم تفئ إلى حكم الله ورسوله وأصرت على القتال، وأكثر العلماء على أن البغاة ليسوا بفسقة ولا كفرة ولا خوارج لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾، ولقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إخواننا بغوا علينا»(١)، ولكنهم مخطئون فيما يفعلون. أما إذا لم تعرف الفئة الباغية من الأخرى، ولم يعرف الحق مع أي الطائفتين فهذا القتال قتال فتنة يجب الكف عن المشاركة فيه.

ج ـ المؤمن لا يخرج عن كونه مؤمناً بارتكاب الكبيرة كالقتل وعقوق الوالدين وأكل الربا وأكل مال اليتيم، ولكنه يعد فاسقاً، ناقص الإيمان.

د- وفيما حصل من قتال بين الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يقول القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكفّ عما شجر بينهم وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة، ولنهي النبي ﷺ عن سبهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم». إلى أن قال: «وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أُريقت فيما بينهم فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]. وسئل بعضهم عنها أيضاً فقال: «تلك دماء طهر الله منها يدي، فلا أخضب بها لساني»... وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم، فقال: شهده أصحاب محمد وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا». قال المحاسبي: «فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، ونتبع ما اجتمعوا عليه، ونقف عند ما اختلفوا فيه، ولا نبتدع رأياً منا ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل، إذ كانوا غير متهمين في الدين، ونسأل الله التوفيق»(٢).

المقطع الخامس:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٢٥٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (٨/ ١٧٣و١٨٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٢١).

١) المفردات ومعانيها:

(لا يسخر) لا يهزأ ولا يحتقر ولا يعب، (قوم) هم الرجال دون النساء، (ولا تلمزوا أنفسكم) اللمز: الطعن والتنبيه إلى المعايب بقول، أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما. (ولا تنابزوا بالألقاب) النبز مختص بلقب السوء عرفاً، أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب يكرهه. (بئس الاسم الفسوق) أي ساء الاسم والصيت.

٢) شرح الآيات:

(وقد اشتملت هذه الآيات على أخلاق وآداب عالية أدب الله بها عباده المؤمنين، وهي:

أ ـ النهي عن السخرية بالناس واحتقارهم وازدرائهم والاستهزاء بهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾، يخاطبنا الله سبحانه بوصف الإيمان، وينهانا أن يسخر بعضنا من بعض؛ لأن المفضِّل هو الله عزَّ وجلّ، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ رب ساخر اليوم مسخور منه في الغد، وربما مفضول اليوم يكون فاضلاً في الغد، فيجب على الإنسان أن يتأدب بما أدبه الله به، فلا يسخر من غيره عسى أن يكون خيراً منه عند الله عزَّ وجلّ وهو لا يعلم.

﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ ونص على النساء والرجال بالتفصيل، وقد صح عنه ﷺ قوله: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهَّ لأَبَرَّهُ**»(١)، وبالرغم من أن النساء يدخلن عادة في الخطاب التشريعي مع الرجال، فقد أفردهن بالنهي هنا دفعاً لتوهم عدم شمول النهي لهن، وأكد معنى النهي للنساء أيضاً، وذلك بالأسلوب نفسه، فنص على نهي الرجال، وعطف بنهي النساء، بصيغة الجمع، لأن أغلب السخرية تكون في مجامع الناس، فقال: ولا يسخر نساء من نساء، فلعل المسخور منهن يكنّ خيراً من الساخرات.

ولا يقتصر النهي على جماعة الرجال والنساء، وإنما يشمل الأفراد، لأن علة النهي عامة، فتفيد عموم الحكم لعموم العلة.

وقد جاء في الحديث قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَّ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(٢) فإن مناط الخيرية في الفريقين ليس ما يظهر للناس من الصور

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

والأشكال والأوضاع والأطوار التي عليها يدور أمر السخرية غالباً. بل إنما هو الأمور الكامنة في القلوب، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه، لما نيط به من الخيرية عند الله تعالى، فيظلم نفسه بتحقير من وقَّره الله، والاستهانة بمن عظَّمه الله تعالى(١).

(ب ـ النهي عن الهمز واللمز، والتعييب بقول أو إشارة خفية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فسّر بمعنيين: الأول: لا يلمز بعضكم بعضاً لأن كل واحد منا بمنزلة نفس الإنسان، فإذا لمز به فكأنما لمز بنفسه.

الثاني: لا تلمز أخاك، لأنك إذا لمزته لمزك، فلمزك إياه سبب لكونه يلمزك، وعليه قول النبي ﷺ: «**لعن الله من لعن والديه**»(٢) فقالوا يا رسول الله، كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه**»(٣).

ج ـ النهي عن التنابز بالألقاب والتداعي بها التي يسوء الشخص سماعها: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ﴾ يعني: لا ينبز بعضكم بعضاً بالألقاب المكروهة التي تسوء وتغيظ، كأن يقول: يا فاجر، يا فاسق، يا كلب، يا حمار، يا خنزير، ويعزَّرُ المرء القائل ذلك بعقوبة تعزيرية، وقد نص العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء كان صفة له أم لأبيه، أم لأمه، أم لكل من ينتسب إليه، والتنابز يقتضي المشاركة بين الاثنين، وعبر بذلك لأن كل واحد سرعان ما يقابل الآخر بلقب ما، بعكس اللمز يكون غالباً من جانب واحد.

ويستثنى من ذلك: أن يشتهر بلقب لا يسوءه، فيجوز إطلاقه عليه كالأعمش والأعرج من رواة الحديث.

أما الألقاب المحمودة فلا تحرم ولا تكره، كما قيل لأبي بكر عتيق، ولعمر: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين، ولعلي: أبو تراب، ولخالد: سيف الله، ولعمرو بن العاص، داهية الإسلام(٤).

قال الزمخشري: (ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود(٦/ ١٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣١٧) وحسنه الأرنؤوط. وصححه الألباني في الأدب المفرد (ص٢٠).

(٣) أخرجه البخاري برقم ٥٩٧٣

(٤) التفسير المنير للزحيلي (٢٦/ ٢٥٣).

أشيعوا الكنى فإنها منبهة). وقد وصف النبي ﷺ وكنى عدداً من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب.

وعليه فإن الألقاب على ثلاثة أنواع:

١- قسم يكرهه الإنسان ويبغضه فهذا محرم.

٢- قسم يحبه صاحبه فهذا مستحب وحسن.

٣- قسم غلب عليه الاستعمال، ولا يكرهه صاحبه ولا يقصد منه التعيير، فهذا مباح وجائز.

د ـ عقوبة التنابز بالألقاب الحكم عليه بالفسق والظلم ما لم يتب: قال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي ساء الوصف، وبئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب التنابز أن يذكروا بالفسق بعد اتصافهم بالإيمان، وهو ذم على اجتماع الفسق، وهو ارتكاب التنابز، والإيمان على معنى لا ينبغي أن يجتمعا فإن الإيمان يأبى الفسق، والاسم هنا بمعنى الذِّكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو اللؤم.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: (فمن يفعل هذه الأشياء الثلاثة ولم يتب يكن ظالماً، والظلم ظلمات يوم القيامة، والتوبة: أن ينتقل العبد من فعل المعصية، إلى عمل الطاعة، وتوبة الله عليه أن يقبله ويبدل سيئاته حسنات، ولها شروط لابد منها وهي:

الشرط الأول: أن يخلص لله تعالى في التوبة، طالباً رضاه عزَّ وجلّ والوصول إلى كرامته.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل والتحسر والتكدر أنه وقع منه هذا الذنب، خجلاً من الله تعالى.

الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب في الحال، ويأتي بالواجب إن أمكن تداركه، وأن يقلع عن المحرم إذا كان الذنب فعلاً محرماً، فإذا كان الذنب في حق الإنسان بأن يكون شخص سرق من إنسان مالاً، والسرقة حرام، وتاب الرجل وندم وعزم على ألا يعود، فلابد أن يوصل هذا المال إلى صاحبه، ولا يمكن أن تتم التوبة إلا بهذا.

هذا إذا كان الحق مالياً، أما إذا كان الحق غير مالي، مثل أن يكون شخص اغتبته، في مجلس أو مجالس، فكيف تكون التوبة من هذا؟ قال كثير من العلماء: لابد أن تذهب إليه، وتستحله، وإلا فسيأخذ من حسناتك يوم القيامة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ، أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ**

دِينَارٌ، وَلاَ دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»(١).

وقال بعضهم: لا يجب أن تستحله، وإنما تستغفر له وتثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والحسنات يذهبن السيئات، وقد جاء في الحديث: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له»(٢).

القول الثالث: وهو قول وسط، ولعله الصواب: إن كان صاحبك الذي اغتبته قد علم بذلك فلابد من أن تذهب إليه وتستحله، لأنه لن يزول ما في قلبه حتى تستحله، أما إذا لم يعلم فيكفي أن تستغفر له، وأن تثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والله غفور رحيم، وينبغي لمن جاء إليه أخوه يعتذر منه أن يسامحه.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود في المستقبل بنية جازمة.

الشرط الخامس: أن يهجر رفقاء السوء، وأماكن المعصية، مثل قصة الذي قتل مائة شخص ثم طلب منه بعد توبته أن يهجر مدينته ويذهب إلى مدينة الصالحين.

الشرط السادس: أن تكون التوبة في وقت قبولها، قبل أن يُغلق باب التوبة، والباب الذي يغلق عن التائبين عام وخاص، أما العام: فهو طلوع الشمس من مغربها، وأما الخاص فهو أن يحضر الإنسان أجله، فإذا حضر الإنسان الأجل فلا تنفع التوبة، ولا نعرف متى يحضر أجلنا، فعلينا وجوباً المبادرة إلى التوبة على الفور لئلا يَفجأنا الموت. وحينئذ لا تنفع التوبة، وفسر النبي ﷺ قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾: أنه خروج الشمس من مغربها.

٣) أهم الفوائد والأحكام المستنبطة:

وهي ما سبق بيانه وتفصيله في الشرح وخلاصتها:

١- حرمة السخرية بالناس واحتقارهم.

٢- النهي عن الهمز واللمز وتعيير الناس.

٣- النهي عن التنابز بالألقاب المكروهة.

٤- الحث على التوبة والمسارعة إلى ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأدب اللسان(ص١٧١ حديث٢٩١).

المقطع السادس: النهي عن الظن السيئ والتجسس والغيبة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

١) المفردات ومعانيها:

(اجتنبوا) تباعدوا. (الظن) هو الأمر بين الشك واليقين، يبنى لا على دليل ولا قرينة، وقد يبنى على قرينة ضعيفة، أو ما يتوهم أنه دليل وليس كذلك.

(ولا تجسسوا) التجسس البحث عن العورات والمعايب وكشف ما ستره الناس. (ولا يغتب) الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره في غَيبته وإن كان العيب فيه.

٢) شرح الآيـــات:

(هذا هو النداء الخامس للمؤمنين، أعيد لاختلاف الغرض والاهتمام به، وذلك أن المنهيات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السيئة الخفية التي لا يتفطن لها من عُومِل بها فلا يدفعها، فما يزيلها من نفس من عامله بها.

إن هذه الآية تؤسس، وتبني سياجاً آخر في هذا المجتمع القرآني الفاضل حول حرمات الأشخاص المنضوين تحت رايته، تعلمهم كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم بأسلوب مؤثر عجيب؛ فهي تأديب عظيم يبطل ما كان فاشياً في بعض المجتمعات من الظنون السيئة والتهم الباطلة، وأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكايد والاغتيالات والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذراً من اعتداء مظنون به ظناً باطلاً، كما قالوا: خذ اللص قبل أن يأخذك. وكما في المثل: احترسوا من الناس بسوء الظن.

وهذا الإطلاق غير صحيح؛ ذلك لأن (بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً، إساءة الظن بالمسلم، وبغضه، وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه[١]. وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ﷺ، أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً[٢].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٨٠١).

(٢) مداراة الناس لابن أبي الدنيا (ص ٥٠)، والترغيب والترهيب لقوام السنة (٢/ ٢٩٧).

ولما جاء الأمر في هذه الآية باجتناب كثير من الظن علمنا أن الظنون الآثمة غير قليلة، فوجب التمحيص والفحص لتمييز الظن الباطل من الظن الصادق. والمراد بالظن هنا: الظن المتعلق بأحوال الناس.

ومعنى كونه إثماً أنه: إما أن ينشأ على ذلك الظن عمل، أو مجرد اعتقاد، فإن كان قد نشأ عليه عمل من قول أو فعل كالاغتياب والتجسس وغير ذلك فليقدر الظان أن ظنه كاذب، ثم لينظر بعدُ في عمله الذي بناه عليه فيجده قد عامل به من لا يستحق تلك المعاملة من اتهامه بالباطل فيأثم مما طوى عليه قلبه لأخيه المسلم، وقد قال العلماء: إن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز.

وإن لم ينشأ على الظن السيئ إلا مجرد اعتقاد دون عمل فليقدِّر أن ظنه كان مخطئاً يجد نفسه قد اعتقد في أحد ما ليس به، فإن كان اعتقاداً في صفات الله فقد افترى على الله، وإن كان اعتقاداً في أحوال الناس فقد خسر الانتفاع بمن ظنه ضاراً، أو الاهتداء بمن ظنه ضالاً، أو تحصيل العلم ممن ظنه جاهلاً ونحو ذلك.

ومعنى الأمر باجتناب كثير من الظن الأمر بتعاطي وسائل اجتنابه، والتثبت فيه وتمحيصه والتشكك في صدقه إلى أن يتبين موجبه، أو يتبين كذبه فتكذب نفسك فيما حدثتك، وهذا التحذير يراد منه مقاومة الظنون السيئة بما هو معيارها من الأمارات الصحيحة)[1].

وإبهام الكثير من الظن لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه، إذ لا داعية تدعو المؤمن للمشي وراءه، أو صرف الذهن فيه، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم خيراً، قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

ولذلك قسم العلماء الظن إلى أنواع أربعة:

أ ـ ظن واجب مأمور به، حسن الظن بالله تعالى وحسن الظن بالمؤمنين، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح: «**أنا عند ظن عبدي بي**» وكما جاء عند مسلم: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**».

ب ـ ظن محظور أو حرام: كسوء الظن بالله، وبأهل الصلاح، أما من يجاهر بالخبائث أو

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

يتعاطى الريب فلا يحرم إساءة الظن به.

ج ـ ظن مندوب إليه، كإحسان الظن بالمسلم، وبمن ظاهره الصلاح.

د ـ ظن مباح: كالظن في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية العملية بالاجتهاد والعمل بغالب الظن في الشك في الصلاة ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، التجسس: البحث بوسيلة خفية، ومنه الجاسوس، والتجسس من آثار الظن، وقد يكون هو الحركة التالية للظن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات والاطلاع على السوءات. ووجه النهي عنه أنه من الكيد والتطلع على العورات. وقد يرى المتجسس من المتجسس عليه ما يسوءه فتنشأ عنه العداوة والحقد. ويدخل صدره الحرج والتخوف بعد أن كانت دخيلته خالصة طيبة وذلك من نكد العيش. وذلك ثلم للأخوة الإسلامية؛ لأنه يبعث على إظهار ما ستره الله، وإذا اكتشف المتجسس عليه من يتجسس عليه يدخل نفسه البغض والكره وتنثلم الأخوة ثلمة أخرى، ثم يترتب على ذلك انتقام كليهما من الآخر. ولذلك جاء النهي الصريح عن التجسس على لسان رسول الله ﷺ فقال: «**ولا تجسسوا ولا تحسسوا**»(١)، والتجسس والتحسس معناهما متقارب، وحكمهما واحد.

والتجسس الذي تترتب عليه مفسدة عامة يصير كبيرة، ومنه التجسس على المسلمين لمن يبتغي الضر بهم. فالمنهي عنه هو التجسس الذي لا ينجر منه نفع للمسلمين، أو دفع ضر عنهم، فلا يشمل التجسس على الأعداء، ولا تجسس الشرط على الجناة واللصوص(٢).

ولقد فسر رسول الله ﷺ الغيبة بقوله: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»(٣) وهو أعلم الناس بمراد الله سبحانه وتعالى في كلامه. وهو يتناول كل ما يكره، سواء في دينه أو في دنياه، في خُلقه أو خَلْقه، في ماله أو ولده، أو زوجته أو خادمه، أو عقله، أو في ذكائه، أو في غير ذلك، وعلى هذا فيجب الكف عن ذكر الناس بما يكرهون، سواء كان ذلك فيهم أو ليس فيهم؛ لأن النبي ﷺ بين ذلك عندما سأله الصحابة: يا رسول الله، أرأيت إن كان فيه ما أقول؟ فقال ﷺ: «**إِنْ**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب (٧/ ٨٨) ومسلم في البر والصلة ح: ٢٥٦٣.

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢١١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).

كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[١].

ولكن، إن كانت الغيبة للمصلحة فإنه لا بأس بها، ولا حرج فيها؛ ولهذا لما جاءت فاطمة بنت قيس إلى رسول الله ﷺ تستشيره في رجال خطبوها، بيّن معايب من يرى أن فيه عيباً، فقد خطبها ثلاثة: معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبو جهم بن حارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأسامة بن زيد ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ فقال لها النبي ﷺ: «**أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، انكحي أسامة بن زيد**»[٢]، فذكر النبي ﷺ عيباً في هذين الرجلين، للنصيحة وبيان الحق، ولا يعد هذا غيبة بلا شك، وعلى كل حال يستثنى من الغيبة ـ وهي ذكر الرجل بما يكره ـ إذا كان على سبيل النصيحة، ومنه ما يذكر في كتب الرجال عند المحدثين مثلاً، فيقولون: فلان بن فلان سيئ الحفظ، وفلان بن فلان كذوب، ويذكرون ما يكره من أوصافه، نصيحة لله تعالى ورسوله ﷺ؛ فإن كان الغرض من ذكرك أخاك بما يكره النصيحة فلا بأس، وكذلك لو كان الغرض من ذلك التظلم والتشكي، فإن ذلك لا بأس به، مثل أن يظلمك رجل، وتأتي إلى رجل آخر يستطيع أن يزيل هذه المظلمة، فتقول: فلان أخذ مالي، فلان جحد حقي، وما أشبه ذلك، فلا بأس، فإن هنداً بنت عتبة جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها أبا سفيان تقول: إنه رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي فقال لها رسول الله ﷺ: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[٣] فذكرت وصفاً يكرهه أبو سفيان بلا شك، ولكنه من باب التظلم والتشكي، وقد قال الله سبحانه: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، يعني: فله أن يجهر بالسوء من القول لإزالة مظلمته.

(والاستفهام في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تقريري، لتحقق أن كل أحد يقر بأنه لا يحب ذلك، ولذلك أجيب الاستفهام بقوله ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. مثلت الغيبة بأكل لحم الأخ الميت، والمقصود من التمثيل استفظاع الممثَّل وتشويهه لإفادة الإغلاظ على المغتابين، لأن الغيبة متفشية في الناس، وخاصة في الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ والتقوى تعني الوقاية من عذاب الله، وتكون

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

بأمرين: امتثال أمر الله عزَّ وجلّ دون تردد، واجتناب نهي الله عزَّ وجلّ دون تردد. فيقول المؤمن ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فمن تلبس بشيء من المنهيات فالأمر بالتقوى يدفعه إلى ترك ذلك، وإن لم يكن متلبساً في الحاضر، فالأمر بالتقوى يجنبه التلبس بها في المستقبل، والتقوى تكون بالتوبة بعد التلبس بالإثم فقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾، وتكون التقوى ابتداء فيرحم الله المتقي، فالرحيم شامل للجميع، فالله عز وجل ذو رحمة واسعة، وهذا أيضاً راحم، وموصل الرحمة إلى من يشاء من عباده. أسأل الله أن يعمنا جميعاً برحمته، إنه على كل شيء قدير.

أهم الفوائد المستفادة من الآيات:

١- تحريم سوء الظن بالله، وبأهل الصلاح، بل وبالمسلمين مستوري الحال.

٢- أن الظن ليس على درجة واحدة ولذلك قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾ فدل على أن بعضه مباح وبعضه مندوب إليه ومستحسن، وبعضه واجب كما تقدم تفصيله.

٣- تحريم التجسس وتتبع العورات.

٤- تحريم الغيبة، وذكر المسلم بما يكره وإن كان حقاً.

٥- شناعة الغيبة وعظم جرمها، ولذلك ضرب الله تعالى لهذا هذا المثل الشنيع للتحذير منها، فكما هو مكروه طبعاً فهو مكروه شرعاً أيضاً(١).

٦- تباح الغيبة في ستة أمور هي كما:

أ ـ التظلم، لقوله ﷺ: «**لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ**»(٢). و«**مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ**»(٣) و«**دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً**»(٤).

ب ـ الاستعانة على تغيير المنكر، لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: ١٤٨].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٣٠) وذكره البخاري معلقاً. في كتاب بدء الوحي، باب لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالٌ. فتح الباري (٣/ ١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٠٦).

ج ـ الاستفتاء: لقول هند للنبي ﷺ: «إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي» متفق عليه(١).

د ـ التحذير من الفساق، فلا غيبة لفاسق مجاهر بفسقه، ولا لفاجر، كمدمن خمر ومرتاد الأماكن الفجور.

هـ ـ جرح الشهود والرواة، ونصح الخاطب والشريك.

و ـ التعريف بلقب مشهور إذ لم يعرف بغيره، كالأعور مثلاً.

قال القرافي في الفروق: النصيحة، والتجريح والتعديل للشهود، والمعلن بالفسوق، وأرباب البدع والتصانيف المضلة، ينبغي أن يشهر الناس فسادها وعيبها، والعلم السابق بالمغتاب به بين المغتاب والمغتاب عنده، والدعوى عند ولاة الأمور(٢). اهـ.

المقطع السابع: التفاضل عندالله بالتقوى:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

١) المفردات ومعانيها:

(من ذكر وأنثى) أي من آدم وحواء عليهما السلام. (شعوباً) جمع شعب، وهم الجماعة من الناس التي لها وطن خاص، أو من أصل واحد، كربيعة ومضر؛ وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها.

(وقبائل) جمع قبيلة: وهي ما دون الشعب، (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضاً، لا للتفاخر بالآباء والقبائل، فلا تتفاخروا بعلو النسب، وإنما الفخر بالتقوى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بكم وبكل شيء، خبير ببواطنكم وأسراركم كجهركم.

٢) شرح الآيـــات:

يا أيها الناس. يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرقون شعوباً وقبائل إن أصلكم واحد من آدم وحواء، فلا تختلفوا ولا تتخاصموا. هذا النداء من الخالق العظيم الذي خلقنا من ذكر وأنثى، يطلعنا على الغاية من جعلنا شعوباً وقبائل؛ إنها ليست للتفاخر والخصام، إنما

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

(٢) الفروق (٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٣).

هي للتعارف والوئام.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ لقد جاءت آيات كثيرة تفصل مراحل خلق الإنسان من البداية، حيث بينت أنه خلق ذلك الذكر الذي هو آدم عليه السلام من تراب، وقد بين الأطوار التي مر بها ذلك التراب كصيرورته طيناً لازباً، وحمأ مسنوناً، وصلصالاً كالفخار. وبين سبحانه أنه خلق تلك الأنثى التي هي حواء من ذلك الذكر الذي هو آدم، فقال في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦]، (وقد خلق نوع الإنسان على أربعة أنواع مختلفة هي:

الأول منها: خلقه لا من ذكر ولا من أنثى وهو آدم عليه السلام.

والثاني: خلقه من ذكر بدون أنثى وهي حواء عليها السلام.

والثالث: خلقه من أنثى بدون ذكر وهو عيسى، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

والرابع: خلقه من ذكر وأنثى وهو سائر الآدميين، وهذا يدل على كمال قدرته جل وعلا.

وقد دلت هذه الآيات القرآنية المذكورة على أن المرأة الأولى كان وجودها الأول مستنداً إلى وجود الرجل وفرعاً منه، وهذا أمر كوني قدري من الله، أنشأ المرأة في إيجادها الأول عليه. وقد جاء الشرع الكريم المنزل من الله ليعمل به في أرضه، بمراعاة هذا الأمر الكوني القدري في حياة المرأة في جميع النواحي... فمحاولة استواء المرأة مع الرجل في جميع نواحي الحياة لا يمكن أن يتحقق؛لأن الفوارق بين النوعين كوناً وقدراً أولاً، وشرعاً منزلاً ثانياً، تمنع من ذلك منعاً باتاً، ولقوة الفوارق الكونية والقدرية والشرعية بين الذكر والأنثى صح عن النبي ﷺ ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»(١). فامرأة عمران تقول: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ وهي صادقة في ذلك بلا شك»(٢) وقد كذب من قالوا إن الذكر كالأنثى .

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٥).

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٧/ ٤١٤ ـ ٤١٦).

والشعوب: جمع شعب بفتح الشين، وهو مجمع القبائل التي ترجع إلى جد واحد من أمة مخصوصة، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل. فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس وأبو طالب فصيلة. ولم يذكر من هذه الست في القرآن إلا ثلاث، الشعوب، والقبائل كما في هذه الآية الكريمة، والفصيلة في سورة المعارج في قوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾ [المعارج: ١٣].

وعندما قدم القرآن قوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، جاء بعدها بجملة ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لأنهم لما تساووا في أصل الخلقة من أب واحد، وأم واحدة، كان الشأن ألا يفضل بعضهم بعضاً إلا بالكمال الإيماني، وهو الكمال الذي يرضاه الله لهم والذي جعل التقوى وسيلته؛ ولذلك ناط وعلَّق التفاضل في الكرم بـ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ إذ لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله به، والمراد بالأكرم: الأَنْفَس والأَشْرَف، والأتقى: الأفضل في التقوى. وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ تعليل لمضمون: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ أي إنما كان أكرمكم أتقاكم لأن الله عليم بالكرامة الحق وهي التقوى، خبير بمقدار حظوظ الناس من التقوى، فهي عنـــده حظوظ الكرامة؛ فلذلك الأكرم هو الأتقى، وهـــذا كقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] ومعرفة وعلم أن قوله ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ لا ينافي أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى، مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس مثل حسن التربية، ونقاء النسب، والمعرفة في العلم والحضارة، وحسن السمعة في الأمم وفي الفضائل وفي الأسر، وكذلك بحسب ما خلده التاريخ الصادق للأمم والأفراد مما يترك آثاراً لأفرادها، وخلالاً في سلائلها، فإن في خلق الأبناء آثاراً من طباع الآباء الأدنين أو الأعلين، تكون مهيئة نفوسهم للكمال أو ضده، وإن للتهذيب والتربية آثاراً جمة في تكميل النفوس أو تقصيرها، وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة، وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال والذكاء الحقيقي الذي

تـخططه التقوى)[١]. وقد أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «**أَتْقَاهُمْ للهِ**» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ الله ابْنُ نَبِيِّ الله ابْنِ نَبِيِّ الله ابْنِ خَلِيلِ الله**» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ: «**فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقُهُوا**»[٢]. وأخرج مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِى هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِى مِنْ بَنِى هَاشِمٍ**»[٣]. وقال ﷺ: «**فَاطِمَةُ مُضْغَةٌ مِنِّي، يَقْبِضُنِي مَا قَبَضَهَا، وَيَبْسُطُنِي مَا بَسَطَهَا، وَإِنَّ الأَنْسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَنْقَطِعُ غَيْرَ نَسَبِي، وَسَبَبِي، وَصِهْرِي**»[٤] وقوله ﷺ: «**أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عبد الْمُطَّلِبْ**»[٥].

أهم الفوائد والأحكـــام:

أ ـ أن أصل البشرية واحد، فلا أثر للألوان والصور واللغات والقوميات.

ب ـ إن التفاضل بين الناس عند الله هو بالتقوى .

ج ـ المساواة في الأصل والمنشأ الإنساني وفي الواجبات والحقوق التشريعية أصل من أصول الشريعة الإسلامية العادلة.

د ـ خلق الله الخلق شعوباً وقبائل وأنساباً وأصهاراً للتعارف والتواصل والتعاون، وليس للتناكر والمعاداة والتفاخر بالأنساب والأعراق، فهي اعتبارات جاهلية تتعارض مع وحدة الأصل ومع أصول الشريعة الإسلامية.

هـ ـ ذهب جمهور العلماء إلى مراعاة الحسب والمال عند الزواج، عملاً بالأعراف، ومراعاة لواقع الحياة المعيشية، وتحقيقاً لهدف الزواج وهو الدوام والاستقرار، وذهب مالك إلى عدم اشتراط النسب في الكفاءة في الزواج إلا بالدين، لقوله ﷺ: «**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا**

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢١٦ ـ ٢١٩) باختصار.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٢٣).

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٦٤) ومسلم (١٧٧٦).

وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[١]، فقد تزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف، وتزوج سالم هنداً بنت الوليد[٢].

المقطع الثامن: بيان أصول الإيمان الصحيح وقيمته:

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أسباب النزول الواردة في الآيات:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة، كان من بين الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ في سنة تسع المسماة سنة الوفود، وكان وفد بني أسد ينزلون بالقرب من المدينة، وكان قدومهم المدينة عقب قدوم وفد بني تميم الذي ذكر في أول السورة. وكانت هذه السنة سنة جدب في بلادهم، فأسلموا وكانوا يقولون للنبي ﷺ: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما فعلت محارب وهوازن وغطفان يفدون على رسول الله ﷺ ويروجون بهذه المقالة، ويمنون عليه ويريدون أن يصرف إليهم الصدقات، فأنزل الله فيهم هذه الآيات إلى آخر السورة[٣]، لوقوع القصتين قصة وفد بني تميم وقصة وفد بني أسد في أيام متقاربة، والأغراض المقصودة ببيان الجفاء متناسبة.

١) المفردات اللغوية:

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ سكان البادية من العرب.

﴿ءَامَنَّا﴾ صدقنا بما جئت به من الشرائع، وامتثلنا الأوامر. ﴿أَسْلَمْنَا﴾ انقدنا ظاهراً. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ﴾ لم يدخل الإيمان في قلوبكم إلى الآن ولكنه يتوقع منكم. ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الإيمان والقيام بالفرائض واجتناب المحارم. ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للمؤمنين ما وقع منهم من الذنوب، ورحيم بهم ومتفضل عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

(٢) الفروق للقرافي (٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٣).

(٣) أسباب النزول للواحدي (٢٦٥ ـ ٢٦٦).

٢) شرح الآيـــات:

هـذا المحـور مـن المحـاول الأخـيرة لهـذه الـسورة الكريمـة، كـما بـدأت بـالأدب مـع الله سبحانه بألا نتقدم على شرعه ولا على نبيه ﷺ، جاءت لتؤكد على الإيـمان الـصحيح، وإن كـان سبب نزول هذه الآيات الكريمات مقولة جماعة من أعراب البادية، فإن العبرة بعمـوم اللفـظ لا بخصوص الـسبب؛ حيـث حـددت هـذه الآيـات الكـريمات أصـول الإيـمان الـصحيح، وكأنهـا تلخص مقاصد هذه الشريعة وهذه الدعوة الربانية وهي في عامها الأخـير، وقـد تـدفقت وفـود العرب معلنة إسلامها مذعنة لهـذه الـشريعة الـسمحاء، فأكـدت عـلى أن أول الإيـمان التـصديق بألوهية الله سبحانه وتعـالى ووحدانيتـه، والتـصديق بنبـوة محمـد رسـول الله ﷺ ورسـالته، مـع إخلاص القلب بالتوحيد الخالص، ثم يصدق ذلك بجوارحـه بالجهـاد في سـبيل الله عـزَّ وجـلّ بالمال والنفس.

لقد وجهت هذه الآيات الكريمات أعراب بني أسد، الذين انفردوا بتلك المقولة حيث لم ترد عن غيرهم من العرب، فقالوا آمنا؛ مع العلم أنهم لازالوا في شك لم يتمكن الإيمان منهم، فأراد الله سبحانه أن يعلمهم حقيقة ما هو قائم في نفوسهم وهم يقولون هذا القول، وأنهم دخلوا في الإسلام استسلاماً، ولم تصل قلوبهم إلى مرتبة الإيمان، ونفى عنهم الغدر والنفاق بطريق غير مباشر إذ لو كانوا منافقين لأغلظ عليهم القرآن وفضحهم. فأنبأهم الله بما في قلوبهم وعلمهم ماذا يقولون: قوله ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ تعريضاً لهم بأنهم قد كذبوا فهؤلاء الأعراب لما جاءوا مظهرين الإسلام وكانت قلوبهم غير مطمئنة لعقائد الإيمان لأنهم حديثو عهد به، ولفت نظرهم وأعلمهم أنهم لم يخف باطنهم على الله سبحانه، فلا يحسبوا أنهم غالطوا رسول الله ﷺ، وطالبهم بوجوب الصدق في القول ليطابق الواقع، فعليكم أن تقولوا قولاً صادقاً.

قوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ يبين معنى نفي الإيمان عنهم بأنه ليس انتفاء الإقرار باللسان وإظهار شرائعه بالأبدان، ولكن انتفاء رسوخه، وعقدُ القلب عليه، إذ كان فيهم بقية من ارتياب، ورغم الإفادة بأن عدم الإيمان متصل بزمن التكلم، لكن فيه إشارة وبشارة بأن المنفي بها متوقع الوقوع، وقريب، وفيه دلالة على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔاًۚ﴾ إرشاد إلى دواء مرض الحال من ضعف الإيمان بأن: يطيعوا الله سبحانه ورسوله ﷺ إطاعة تامة، فإذا كان ذلك حصل إيمانهم،

فإن مما أمر الله به على لسان رسوله ﷺ بيان عقائد الإيمان، بأن يقبلوا على التعلم من رسول الله ﷺ مدة إقامتهم بالمدينة عوضاً عن الاشتغال بالمن والتعريض بطلب الصدقات. فإن أخلصتم الإيمان كما أمركم الله ورسوله، تقبل الله أعمالكم التي ذكرتم من أنكم جئتم طائعين للإسلام من غير قتال، ولا تنقص أجوركم على أعمالكم الصالحة المتقبلة.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استئناف، تعليم لهم بأن الله تجاوز عن كذبهم إذا تابوا، وترغيب في إخلاص الإيمان؛ لأن الغفور كثير المغفرة شديدها، ومن فرط مغفرته أنه يجازي على الأعمال الصالحة الواقعة في حالة الكفر، غير معتد بها، فإذا آمن عاملها جوزي عليها بمجرد إيمانه، وذلك من فرط رحمته بعباده، وترتيب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعد ﴿غَفُورٌ﴾ لأن الرحمة أصل للمغفرة.

٣) أهم الفوائد والأحكام في الآيات:

أ ـ أرشدت الآيات إلى توبيخ من في إيمانه ضعف، وأنه لابد من الإيمان والإذعان التام، بعد الإسلام الظاهر والخضوع والانقياد خوفاً من القتل.

ب ـ إن الإسلام يستطيعه كل إنسان يمكن أن يعمل بجوارحه يصلي ويسجد ويقرأ القرآن ويصوم ويتصدق وقلبه خال من الإيمان، كما أخبر النبي ﷺ عن الخوارج: «**أنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، وإنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية**».

ج ـ كل إنسان يجزى على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لكن رحمة الله تعالى واسعة، وأنها سبقت غضبه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. فالعاصي والمقصر يمكن أن يعاقب، ويمكن أن يعفو الله عنه.

د ـ إن السيئات يمكن أن تمحى بالتوبة أو بالمصائب المكفرة، أو بالحسنات الماحية أو بغير ذلك، وإن الحسنات لا يمكن أن تنقص.

هـ ـ في هذه الآية الكريمة فرق بين الإسلام والإيمان وأن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن، وكذلك في حديث جبريل عليه السلام فرق بين الإسلام والإيمان، ولا يناقض وروده في أدلة أخرى بكون الإيمان هو الإسلام؛ لأنه كما قال العلماء، إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، بمعنى إذا ذكرا منفصلين كان كل منهما دالاً على الدين بكليته ظاهره

وباطنه، أما إذا ذكرا مجتمعين كان الإيمان دالاً على الأمور الباطنة والإسلام على الظاهرة[١].

و- كما دلت هذه الآيات على أن هؤلاء الأعراب ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون ولكن لم يستحكم الإيمان في قلوبهم فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد[٢]. ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في براءة.

ز- كما دلت على النهي عن تزكية النفس والاغترار بالعمل ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ وإنما على المسلم أن يتهم نفسه دائماً بالتقصير في جنب الله والقيام بحقه تعالى.

المقطع التاسع: صفات المؤمنين:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

١) المفردات اللغوية:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ الذين صدقوا في إيمانهم حقاً. ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ الريب: هو الشك، وهو ضد اليقين، أي لم يشكوا ويترددوا في إيمانهم بالله رباً وبمحمد رسولاً ونبياً. ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ في طاعة الله ورسوله ﷺ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ هؤلاء هم الذين يستحقون اسم الإيمان، وليس الذين تلفظوا بألسنتهم ظاهرياً فقط.

﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ أتخبرون الله بمقولتكم: آمنا. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قد أحاط علمه فلا يخفى عليه شيء، وهو أعلم منكم بما في نفوسكم.

٢) شرح الآيـــات:

بين لهم حقيقة الإيمان، فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله، دون ارتياب مع قول اللسان والعمل بالجوارح، وإنما أداة حصر تفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، أي: إنما لم يكونوا مؤمنين لأن الإيمان ينافيه الارتياب.

---

(١) تفسير ابن عثيمين (٧/ ٤١ ـ ٤٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٩).

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي ثم لم يشكوا ولم يترددوا، بل استقروا وثبتوا على الإيمان مع طول المدة، لأن ﴿ثُمَّ﴾ تدل على الترتيب والمهلة، فلم يلحقهم شك بالإيمان بالله وبرسوله ﷺ، ففي ﴿ثُمَّ﴾ إشارة أن انتفاء الارتياب في إيمانهم أهم رتبة من الإيمان، إذ به قوام الإيمان.

وهنا قد يطرح تساؤل: عن الوساوس التي يلقيها الشيطان في قلب المؤمن، من تشكيك في الإيمان، أو في القرآن، أو في الرسول، ويتمنى الإنسان من أن تقطع أعضاؤه إرباً ولا يتكلم بذلك، فما موقف الإنسان من هذا؟ لقد أجاب النبي الكريم ﷺ عن هذا، بأنه صريح الإيمان أي خالص الإيمان، فقد روى أبو هريرة قال: «جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِى أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ**». قَالُوا نَعَمْ. قَالَ «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**». رواه مسلم(١)، وفي رواية أخرى لمسلم: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوَسْوَسَةِ؟ فَقَالَ: «**تِلْكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»(٢). وعلى المؤمن إذا أصابته الوسوسة أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف ٢٠٠ ـ ٢٠١].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ المتصفون بهذه الصفات المذكورة هم الصادقون في إيمانهم، لا كبعض الأعراب الذين أظهروا الإسلام، ولم تطمئن قلوبهم بالإيمان.

ونقف قليلاً أمام هذا الاحتراس في الآية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ إنه ليس مجرد عبارة. إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية، وعلاج لحالة تقوم في النفس البشرية حتى بعد إيمانها. ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ وشبيه بها الاحتراس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ فعدم الارتياب والاستقامة على قوله: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، تشير إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة، تحت تأثير التجارب القاسية والابتلاءات الشديدة، من ارتياب ومن اضطراب، وإن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة الدنيا بشدائد تزلزل، ونوازل تزعزع، والتي تثبت فلا تضطرب وتثق فلا ترتاب، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله. والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق، وأخطار

(١) أخرجه مسلم (ح:١٣٢).

(٢) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٧٢٤).

الرحلة، لتعزم أمرها، وتحتسب، وتستقيم، ولا ترتاب عندما يدلهم الأفق، وتتلبد الغيوم ويظلم الأفق، وتهزها العواصف والرياح.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد قال: إن النبي ﷺ قال: «**المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا الله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل**»(١).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾. أعيد فعل ﴿ قُلْ ﴾ ليدل على أن المقول لهم هذا هم الأعراب الذين أمر الله نبيه ﷺ أن يقوله لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ إلى آخره، فأعيد هنا لما طال الفصل بين القولين بالجمل المتتابعة، فهذا متصل بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ اتصال البيان بالمبين والتعليم، مبالغة في إيصال العلم إلى المعلم، وهذا يفيد أنهم تكلفوا وتعسفوا في الاستدلال على خلوص إيمانهم ليقنعوا به رسول الله ﷺ الذي أبلغهم أن الله نفى عنهم رسوخ الإيمان بمحاولة إقناعه؛ تدل على محاولة إقناع الله بما يعلم خلافه. والاستفهام في ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ مستعمل في التوبيخ، وقد أيد التوبيخ بجملة الحال في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وفي هذا تجهيل، إذ حاولوا إخفاء باطنهم عن المطلع على كل شيء.

والإنسان يدعي العلم وهو لا يعلم نفسه، ولا ما يستقر فيها من مشاعر، ولا يدرك حقيقة نفسه ولا حقيقة مشاعره، فالعقل نفسه لا يعرف كيف يعمل؛ لأنه لا يملك مراقبة نفسه في أثناء عمله، وحين يراقب نفسه يكف عن عمله الطبيعي، فلا يبقى هناك ما يراقبه ! وحين يعمل عمله الطبيعي لا يملك أن يُشغل في الوقت ذاته بالمراقبة ! ومن ثم فهو عاجز عن معرفة خاصة ذاته، وعن معرفة طريقة عمله ! وهو هو الأداة التي يتطاول بها الإنسان. والله سبحانه يعلم ما في السموات وما في الأرض علماً حقيقياً، لا بظواهرها وآثارها، ولكن بحقائقها وما هياتها، وعلماً شاملاً محيطاً غير محدود ولا موقوت، مع الشمول والإحاطة بكل شيء.

٣) الفوائد والأحكام في الآيـــات:

أ ـ الإيمان الحقيقي هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره

(١) المسند (٣/ ٨) وفي إسناده دراج بن أبي السمح عن أبي الهيثم وهو ضعيف.

وشره، ثم الثبات والاستقامة عليه بدون شك ولا ريب.

ب ـ ومن الفوائد أن العمل من الإيمان كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، وأن الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس من الإيمان.

ج ـ الجهاد بالمال قد يقدم على الجهاد بالنفس أحياناً، لأن المال محبوب إلى نفس يتعب الإنسان بدنه، ولا يحب أن ينفق شيئاً من المال في الغالب، وكذلك قدم المال لأنه يسبق الجهاد بالنفس؛ فبالمال تُشترى عدة القتال.

د ـ كما يكون الجهاد بالسيف والسنان، يكون باللسان والبيان، فإذا لم تستطع القتال لتكون كلمة الله هي العليا، فالعلم الشرعي سبب لأن تكون كلمة الله هي العليا، وهو نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله. قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢] أي جاهدهم بالقرآن.

المقطع العاشر: النهي عن المن:

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

١) المفردات اللغوية:

﴿يَمُنُّونَ﴾ يمتنون ويعدون متابعتهم لك منّةً عليك، ويطلبون عليها أجراً. والمنُّ: هو ذكر المعروف والإحسان. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾ الله هو صاحب الفضل عليكم أن وفقكم للإيمان ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في إدعاء الإيمان، فلله المنة أولاً وآخراً.

﴿غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ما غاب فيهما. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يعلم ما في صدور هؤلاء الأعراب وما يكنونه ويخفونه في ضمائرهم.

٢) شرح الآيـــات:

بعد بيان حقيقة الإيمان التي لم يدركوها ولم يبلغوها، يتوجه إلى رسول الله ﷺ بالخطاب عن منِّهم عليه بالإسلام، وهذا المنّ ذاته دليل على أن حقيقة الإيمان لم تكن قد استقرت بعد في تلك القلوب، وأن حلاوة الإيمان لم تكن قد تذوقتها تلك الأرواح، ليبطل ما أظهره بنو أسد للنبي ﷺ من مزيتهم إذ أسلموا من دون إكراه بغزو، والمن ذكر النعمة والإحسان ليراعيه

المحسَنُ إليه للذاكر، وقد يكون المن صريحاً، وقد يكون بالتعريض بأن يذكر المانُّ من معاملته مع الممنون عليه ما هو نافعه مع قرينة تدل على أنه لم يرد مجرد الإخبار، وكانت مقالة بني أسد مشتملة على النوعين من المنّ؛ لأنهم قالوا: ولم نقاتلك كما قاتلك محارب وغطفان وهوازن، وقالوا: جئناك بالأثقال والعيال.

نحن نقف أمام هذا الرد الذي يتضمن حقيقة ضخمة يغفل عنها الكثيرون، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين. إن أعظم منّة، أن يمن الله على العبد بالهداية إلى الإيمان، إن الإيمان هو أكبر المنن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض، إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد؛ وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع، ولا شك أن هذا أعظم منة يمن الله على العبد بالهداية إلى الإيمان، مع أن الله أضل كثيراً من الناس عنه، كما أخبر ﷺ في الحديث الصحيح عند البخاري يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِين[1]. فإن هذه أعظم المنن، ولهذا كان الأنصار، رضوان الله عليهم، حين جمعهم النبي ﷺ يوم قسم غنائم حنين، كلما ذكر إليهم شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن. قال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟» كُلَّمَا قَالَ شَيْئاً قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ»[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أخبر الله سبحانه في هذه الآية أنه يعلم كل ما غاب في السموات والأرض، وهذا تقويم لهم على الحق ليعلموا أن الله لا يُكتم، وأنه لا يُكذب عليه؛ لأنه سبحانه يعلم كل غائبة في السماء والأرض، فإنهم كانوا في الجاهلية لا تخطر ببال كثير منهم أصول الصفات الإلهية، فقد أكّدَ لهم الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ لأنهم بحال من ينكر أن الله يعلم الغيب، فكذبوا على النبي ﷺ، مع علمهم أنه مرسل من الله، فكان كذبهم عليه مثل الكذب على الله، وأفادت هذه الآية تأكيد مضمون قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، ولكن هذه زادت بالتصريح بأنه يعلم الأمور الغائبة. وعطف عليها جملة ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٦٥٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١).

من باب عطف الأخص على الأعم؛ لأنه لما ذكر أنه يعلم الغيب، وكان شأن الغائب ألا يُرى، عطف عليه علمه بالمبصرات، احتراساً واحتياطاً من أن يتوهموا أن الله يعلم خفايا النفوس وما يجول في الخواطر ولا يعلم المشاهدات، نظير قول كثير من الفلاسفة: إن الله الخالق يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، ولهذا أوثر هنا وصف ﴿بَصِيرٌ﴾ ليعلم الإنسان أن الله تعالى بصير بعمله، محيط به، فيخشى الله ويتقيه، فالكل معلوم عند الله عزَّ وجلّ ويعلم ما تجيش به القلوب، وما تصدقها الجوارح من أعمال. نسأل الله تعالى أن يمن علينا بالهداية والتوفيق.

٣) أهم الفوائد:

أ ـ إن نفع الإيمان عائد للإنسان نفسه، فلا يصح لأحد أن يمتن بإسلامه على أحد، بل المنة والفضل والنعماء لله عزَّ وجلّ الذي وفق عباده للإيمان وهداهم إليه من بين بني البشر، ثم يجازيهم عليه سبحانه وتعالى. والصادقون هم الذين يعترفون ويقرون بهداية الله لهم.

ب ـ وجوب استحضار منَّة الله تعالى على العبد أن وفقه لطاعته، وخطورة تسرب شيء من الشعور بمنة العبد على الله، وهذا محبط للعمل مذهب للإيمان. ومما ينبغي لقبول العمل شهود هذه المنَّة، فلولا فضله ومنته ما كان هذا العمل، وشهود المنة يكون قبل العمل وأثناء العمل، وبعده.

جـ ـ إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ولا في أنفسنا، فهو تعالى يعلم المقاصد والغايات ويعلم ما غاب من السموات والأرض وما غاب فيها.

وبهذا تختم السورة هذه الآداب الربانية والأخلاق الفاضلة بالتنبيه إلى تقوى الله عز وجل في السر والعلن. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨] بعد أن بدأت السورة بالأمر بتقواه تعالى في أول آية ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وبين أولها وآخرها جاءت الآيات في عدة مواضع آمرة بالتقوى تصريحاً وتلميحاً ليستقيم قلب المسلم، ويسلم من العوائق التي تحول دون صفائه ونقائه، والأسباب التي تفسده وتكدره، وإذا استقام القلب وسلم استقامت الجوارح وحسنت الأخلاق، وتحققت السعادة الأبدية للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة.

القسم الثالث: السنن النبوي وعلومها

مكانة السنة النبوية ومنزلتها

بعد أن تعرفنا على المصدر الأول للإسلام وهو القرآن الكريم، سوف نتعرف في هذا القسم ـ إن شاء الله تعالى ـ على المصدر الثاني للإسلام وهو السنة النبوية المطهرة، وذلك من خلال التعرف على معنى السنة في اللغة واصطلاحات العلماء، مع التركيز على معناها عند أهل الحديث، كما سنتعرف على معنى الحديث والخبر والأثر في اصطلاح العلماء. وعلى أن السنة النبوية وحي من الله وحجة في التشريع، وسنرى جهود الصحابة، الكرام رضوان الله، عليهم في تلقي السنة النبوية وروايتها.

وبالإضافة إلى ذلك سنتعرف على كيفية رواية السنة، تدوينها، ونقلها، والتعريف بأهم كتبها من صحاح ومسانيد، ومعرفة أبرز أصحاب الكتب، ومعرفة جهود أهل العلم في حفظ السنة ونقلها، والتثبت فيها، وحمايتها من المدخول، ومعرفة منهجهم العلمي الدقيق في التحقيق والتحري، كما سنعرف أهميتها ومكانتها من الكتاب، وكونها شارحة له ومبينة، ومكانتها في الدين عموماً، وضرورة اتباعها وان استقلت بحكم، ورد شبه الطاعنين على السنة، وغير ذلك مما يتعلق بالسنة.

تعريف السنة في اللغة والاصطلاح:

السنة في اللغة: (هي الطريقة أو السيرة، محمودة كانت أو مذمومة)[١]. ومن استعمالها بهذا المعنى اللغوي قوله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً**»[٢].

تعريف السنة في الاصطلاح: لقد اختلفت تعريفات السنة، بحسب اختصاصات المعرفين لها:

فتعريفها في اصطلاح المحدثين هي: كل ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو

(١) انظر: لسان العرب ١٣ ص٢٢٥ مادة سنن.

(٢) أخرجه مسلم في (١٠١٧).

تقرير، أو صفة خَلقية أو خُلقية أو سيرة، سواء أكان ذلك قبل البعثة أم بعدها[١].

تعريف السنة في اصطلاح الفقهاء: هي كل ما صدر عن النبي ﷺ ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب[٢].

شرح تعريف السنة عند المحدثين:

معنى (قول): أي كل ما تكلم به النبي ﷺ في المناسبات المختلفة وما بيَّنه من أحكام الإسلام، وعقيدته، وآدابه كقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[٣]. وكقوله ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»[٤]. وغير ذلك مما هو مذكور في كتب الصحاح والمسانيد والسنن.

ومعنى (فعل): أي أفعاله ﷺ التي نقلها إلينا الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، في شؤون العبادة والمعاملة والتشريع والخلق. كصلاته ووضوئه وحجه، مثل قوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[٥] و«**خذوا عني مناسككم**»[٦].

ومعنى (تقرير): هو كل ما أقره ﷺ من أقوال وأفعال الصحابة.

مثاله: إقراره ﷺ في أمر صلاة العصر في غزوة بني قريظة حين قال لهم ﷺ: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**»[٧]. فمنهم من أخذ بظاهر الأمر فأخر صلاة العصر حتى انتهوا إلى بني قريظة، ومنهم من حمل هذا الأمر على الحث على الإسراع في الذهاب إلى بني قريظة، فصلوا العصر في وقتها قبل بلوغ بني قريظة، فبلغه ﷺ ما فعله الفريقان ولم ينكر على أيهما. ومثل إقراره ﷺ للحبشة وهم يلعبون بحرابهم في المسجد النبوي.

وأما معنى الصفة الخَلْقية: (بفتح الخاء المعجمة) فيتناول هيئة الرسول ﷺ من خاتم النبوة إلى نعته على ما خلقه الله تعالى عليه كطوله، ولونه، وصفة وجهه، وابتسامته ﷺ وغير

---

(١) انظر: فتح المغيث للسخاوي.

(٢) التعريفات للجرجاني، ص١٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٣١٣)، وصححه الألباني في سلسلة الصحيحة برقم ٢٠٥.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الآذان باب الآذان للمسافر حديث رقم ٦٣١.

(٦) أخرجه مسلم (١٢٩٧).

(٧) أخرجه البخاري ج١ ص ٢٨٣ رقم الحديث ٩٤٦.

ذلك من الصفات. كحديث أم معبد[١] في وصف النبي ﷺ وحديث هند بن أبي هالة[٢].

وأما الخُلقية: (بضم الخاء المعجمة) فتتناول جميع شمائله ـ ﷺ ـ من صدق، وأمانة، وشجاعة، ورحمة، وعدل، وعطف وغيرها من الأخلاق الفاضلة التي كان يتسم بها النبي ﷺ. وجمعها العلماء في مؤلفات مثل الشمائل للترمذي.

وأما قبل البعثة: وذلك حينما وصفته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بمكارم الأخلاق التي يتصف بها النبي ـ ﷺ ـ قبل البعثة واشتهر بها، وذلك حينما أخبرها خبر الوحي فقالت: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المحروم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر»[٣].

معنى الحديث في اللغة: هوالجديد من الأشياء، كما يطلق على الخبر كثيره وقليلة[٤].

وفي الاصطلاح: هو بمعنى السنة، وهو ما أثر عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خلقية أو خلقية[٥].

معنى الخبر لغة: النبأ، ومعنى الأثر لغة: البقية من الشيء.

معنى الخبر والأثر اصطلاحاً:

١- يرى جمهور العلماء أن الخبر والأثر لفظان مرادفان للحديث.

٢- ومن العلماء من فرق بين الحديث والأثر والخبر، فجعل الحديث: ما جاء عن النبي ﷺ، والخبر: ما جاء عن غيره، أما الأثر فهو ما جاء عن الصحابة والتابعين[٦].

علم الحديث رواية:

هو علم يشتمل على أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وتقريراته، وصفاته، وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها، ليتحقق حفظ الحديث وصيانته من الخلل عند النقل، مع بيان معناه وما

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٤/ ٤٩ ـ ٥١. والحاكم في المستدرك: ٣/ ١٠ وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال: ص ٦٤، والترمذي في الشمائل: ص ٣٥حديث ٨.

(٣) أخرجه البخاري ـ كتاب الوحي حديث رقم: ٣.

(٤) القاموس المحيط، مادة حدث ج١ ص ١٦٤

(٥) الوسيط لمحمد أبو شهبة ص١٥

(٦) انظر: تدريب الراوي للسيوطي، ص/ ٤٢

يستنبط منه في كتب شروح الحديث.

علم الحديث دراية:

هو علم مصطلح الحديث أو أصول الحديث، وهو علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن. أو هو: مجموعة المباحث والمسائل التي يعرف بها حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد(١).

والسند عند المحدثين: هو حكاية رجال الحديث الذين رووه واحداً عن واحد إلى رسول الله ﷺ. أو هو سلسلة الرواة الذين نقلوا ألفاظ الحديث عن مصدره الأول ﷺ.

والإسناد: هو رفع الحديث إلى قائله، وقد يطلق الإسناد على السند.

والمتن: هو ما ينتهي إليه السند من الكلام، وهو ألفاظ الحديث المنسوبة إلى النبي ﷺ(٢).

ويهدف علم مصطلح الحديث لتحقيق حفظ الحديث النبوي الشريف من الخلط فيه، أو الدس والافتراء، ومعرفة المقبول من المردود.

مكانة السنة في التشريع الإسلامي:

إن القرآن هو المصدر الأول للشريعة الإسلامية كما هو معلوم، فقد أنزله الله على رسوله ﷺ هدىً للمتقين ودستوراً للمسلمين، وشفاء لصدور الذين أراد الله لهم الشفاء، ونبراساً لمن أراد الله لهم الفلاح، وقد تلقاه المسلمون عن رسول الله ـ ﷺ ـ مشافهة في عصر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وللرسول ﷺ مهمة أخرى غير تبليغ كتاب الله إلى الناس، وهي تبيين هذا الكتاب، وتفصيل المجمل من أحكامه، وبيان ما أنزله الله في كتابه من قواعد عامة وأحكام مجملة وغير ذلك.

ومن هنا تتضح الحاجة إلى معرفة بيان رسول الله ﷺ تماما كالحاجة إلى تلقي الكتاب ومعرفته، إذ لا يمكن أن يفهم القرآن على حقيقته وأن يعلم مراد الله من كثير من الآيات والأحكام فيه إلا بالرجوع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ الذي أنزل الله عليه الكتاب، وخاطبه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] ومن هنا اتفق المسلمون، قديماً وحديثاً، إلا من شذ من بعض الطوائف المنحرفة والضالة على أن السنة

(١) ينظر: تدريب الراوي للسيوطي (٣- ٤).

(٢) المصدر نفسه (٥- ٦).

هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي[١].

وعليه فإن السنة لها مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة، ولها قوة تشريعية ملزمة، وعليها يقوم جزء كبير من العقيدة والشريعة الإسلامية، والمسلم مأمور باتباع أوامرها والوقوف عند حدودها، فالقرآن والسنة هما المصدران الأصيلان لهذا الدين الحنيف.

الأدلة على مكانة السنة:

وهذه بعض الأدلة على مكانة السنة من القرآن والسنة وأقوال السلف والإجماع، ومن ذلك:

أ) من القرآن:

١ ـ قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال و﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]. وقال جل ثناؤه ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]. وقال جل ثناؤه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. وقال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

في هذه الآيات يذكر الله سبحانه وتعالى: إلى جانب الكتاب الحكمة، وقد ذهب جمهور العلماء المحققين إلى أن الحكمة شيء آخر غير القرآن، وهي ما أطلع الله نبيه ﷺ من أمور دينه وأحكام شريعته، ويعبر العلماء عنها بالسنة)[٢].

قال الشافعي: فذكر الله الكتاب وهو القرآن: وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ، ..لأن القرآن ذكر وأتبعه الحكمة وذكر

(١) انظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٣٧٦

(٢) ينظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٥٠.

الله منَّةً على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز ـ والله أعلم ـ أن يقال الحكمة هنا: إلا سنة رسول الله ﷺ(١).

٢ ـ أن من لوازم الإيمان بالرسالة وشهادة أن محمداً رسول الله وجوب قبول كل ما يرد عن الرسول ﷺ من أمور الدين ولذا أوجب الله تعالى على المسلمين اتباع الرسول ﷺ فيما يأمر وينهى حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر ٧] فرض الله طاعة رسول الله ﷺ مقرونة بطاعة الله، ومذكورة وحدها(٢)، فقال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب ٣٦]. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء ٥٩]: إن (تكراره الفعل (وأطيعوا)، يدل على عموم الطاعة بما أتى به مما في الكتاب، ومما ليس فيه مما هو من سنته»(٣) وقال ابن القيم: «فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه فإنه أوتي الكتاب ومثله معه»(٤).

بل جعل طاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. ووعد الله بالجزاء العظيم لمن يطيع الله ورسوله في آيات منها: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠].

---

(١) الرسالة للإمام الشافعي رحمه الله ص٧٧ ـ ٧٨

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٣) الموافقات ٣/ ٢٢٩.

(٤) إعلام الموقعين: ١/ ٤٨.

ومن خلال نصوص الكتاب يتبين أن الله سبحانه وضع (رسوله ﷺ من دينه وفرضه وكتابه، الموضع الذي أبان، جل ثناؤه، أنه جعله علماً لدينه بما افترض من طاعته، وحرّم من معصيته، وأبان من فضيلته، بما قرن من الإيمان برسوله ﷺ مع الإيمان به ـ سبحانه وتعالى ـ فقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢]. فجعل كمال ابتداء الإيمان الذي ما سواه تبع له: الإيمان بالله عزَّ وجلّ ثم برسوله ﷺ، فلو آمن عبد به ـ سبحانه ـ ولم يؤمن برسوله ﷺ لم يقع عليه اسم الإيمان أبداً، حتى يؤمن برسوله ﷺ معه)[١].

٣ ـ وأخبر الله تعالى في كتابه العزيز أن مهمة رسول الله ﷺ بالنسبة للقرآن أنه مبين له وموضح لمعانيه حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل ٤٤]، وغير ذلك من الآيات في هذا الباب.

ب) ومن السنة:

١ ــ عن المقدام بن معديكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه**»[٢].

فهذا نص قاطع بأنه ﷺ أوتي الكتاب ومثله معه، وهي سنته كما هو واضح في تمام الحديث، فإن النبي يحذر أن يأتي على فترة من الزمان متشبع بما لم يعط يقول: نكتفي بالقرآن ونستغني به عن السنة، مع أنه ﷺ أوتيها وحياً كما أوتي القرآن، وهي مثله في وجوب الطاعة والاحتكام.

وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ كما أخبر، فظهر منكرو حجية السنة والطعن فيها إما كلياً كما عند من يسمون (بالقرآنيين) الذين يزعمون أن الحجة إنما هي في القرآن، وسلفهم في ذلك الخوارج، كما ظهر من يطعن في بعض السنة الثابتة كما هو عند كثير من المتكلمين ومَن يسمون بالعقلانيين اليوم.

---

(١) ينظر: الرسالة ص ٧٥.

(٢) أخرجه أبو داود برقم: ٤٦٠٦ كتاب السنة، باب لزوم الفقه، وصححه الألباني

ج) ومن أقوال السلف رحمهم الله:

١ ـ عن ميمون بن مهران رحمه الله في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] قال رحمه الله والرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ إذا كان حياً، فإذا مات فسنته(١).

٢ ـ وعن حسان بن عطية قال: كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي ﷺ بالسنة، كما ينزل عليه بالقرآن(٢).

٣ ـ وعن الأوزاعي رحمه الله قال: قال: أبو أيوب السختياني رحمه الله: «إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا، وحدثنا من القرآن فاعلم أنه ضال مضل»(٣).

٤ ـ وعن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثيب قال: السنة قاضية على القرآن، وليس القرآن بقاض على السنة(٤).

والمقصود أن السنة هي بهذه الأهمية، وقضاؤها على القرآن بيانها له، وهي الشارحة له، والمشروح لا يبين الشرح بل العكس.

د) الإجماع:

أجمعت الأمة الإسلامية منذ عهد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على حجية السنة، وكونها مصدراً أصيلاً للإسلام، ولا يخالف ذلك إلا من لاحظ له في الإسلام، عياذاً بالله(٥).

مكانة السنة بالنسبة للقرآن:

كلف الرسول ﷺ بمهمة التبيين للناس ما أنزل إليهم من الله عزَّ وجلّ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل ٤٤].

وقد قام ﷺ بهذه المهمة وبين للناس ما في القرآن من عبادات وأحكام ومعاملات، وغير ذلك وقام بهذه المهمة خير قيام، فأدى الأمانة وبلغ الرسالة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها

(١) الإبانة لابن بطة: ١/ ٢١٧، وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: ٢/ ٣٥٨.
(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ١٥٣).
(٣) أخرجه البيهقي في مدخل الدلائل، حجية السنة (ص ٣٣٢).
(٤) أخرجه الدارمي في السنن، باب اتباع السنن (برقم ٦٠٧).
(٥) أصول الحديث، علومه ومصطلحه (ص٤١).

كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فجزاه الله عن الأمة الإسلامية والإنسانية خير الجزاء، فالسنة لها مكانة عظمية بالنسبة للقرآن ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

١ ـ السنة مفصلة لمجمل القرآن:

فهناك أحكام مجملة في القرآن الكريم فصلها رسول الله ﷺ، وكان تنفيذ المسلمين لهذه الأحكام المجملة متوقفاً على هذا التفصيل منه ﷺ، ففي القرآن آيات تأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأداء الحج أمراً مجملاً مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ [آل عمران ٩٧]. فتأتي السنة المطهرة فتفصل عدد الصلوات وأوقاتها وعدد ركعاتها وأركانها وشروطها، بهيئات معينة... الخ. قال ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(١).

وفي شأن الزكاة بين ﷺ الأموال التي تجب فيها الزكاة والتي لا زكاة فيها وعلى من تجب الزكاة والأنصبة.. الخ.

وكذلك حدد ـ ﷺ ـ وقت الصيام وعلى من يجب الصيام،... الخ، وكذلك الحج حينما قال ـ ﷺ ـ: «**خذوا عني مناسككم**»(٢). وغير ذلك من الأحكام التي أتت مجملة، وفصلتها السنة النبوية المطهرة.

وقد فهم الصحابة ذلك، فعن عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان جالساً ومعه أصحابه، فقال رجل من القوم: لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له: ادن، فدنا، فقال: أرأيت لو وكِلتَ أنت وأصحابك إلى القرآن، أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعاً، وصلاة العصر أربعاً، والمغرب ثلاثاً تقرأ في اثنتين؟ أرأيت لو وُكِلتَ أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعاً والطواف بالصفا والمروة؟ثم قال: أيْ قوم! خذوا عنا، فإنكم والله إن لا تفعلوا لتضلن)(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الآذان باب الآذان للمسافر حديث رقم ٦٣١.

(٢) أخرجه مسلم، وقد سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البيهقي في مدخل الدلائل: ١/ ٥، والخطيب البغدادي في الكفاية علم الرواية ص٤٨ من عدة طرق.

وعن أيوب السختياني أن رجلاً قال لمطرف بن عبدالله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تحدثونا إلا ما ورد في القرآن! فقال له مطرف: إنا والله لا نريد بالقرآن بدلاً، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا[١]؛ ويقصد بذلك رسولنا ﷺ.

٢ ـ في السنة أحكام استقلت بها، وأجمع عليها المسلمون ولم ترد في القرآن الكريم: كحرمة نكاح المرأة على عمتها أو خالتها، وحد شارب الخمر، وميراث الجدة، ورجم الزاني المحصن، وتحريم الحمر الأهلية، وغير ذلك من الأحكام[٢].

٣ ـ تخصيص العموم: ومن ذلك تخصيص قوله ﷺ: «**لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم**»[٣]، لقول الله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١]. فظاهر الآية يدل على أن كل والد يرث ولده، وكل مولود يرث والده، حتى جاءت السنة وبينت أن لابد من اتفاق الدين بين الوالدين والمولود، وأما إذا اختلف الدين فإن ذلك مانع من موانع الإرث[٤].

٤ ـ توضيح المبهم: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام ٨٢]. فعندما نزلت هذه الآية لم يستطع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أن يفهموا المعنى الصحيح لكلمة (ظلم) في هذه الآية وما المراد منها؟ ففهموها فهماً غير ما أراد الله، وأن المراد بها التقصير في أي حق من الحقوق؛ ولذلك أصاب بعضهم اليأس وقالوا: (أينا لم يظلم نفسه)[٥]. فبين لهم النبي ـ ﷺ ـ أن المراد بالظلم هنا: الشرك، واستدل بقوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان١٣]. وبهذا انتشلهم ـ ﷺ ـ من يأسهم وردهم إلى الفهم الصحيح لكتاب الله العزيز.

٥ ـ تأكيد ما جاء في القرآن الكريم وموافقته: فمن ذلك قوله ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ،**

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: ٢/ ٣٦٨.

(٢) السنة قبل التدوين ص ٢٧. والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي ص ٣٧٦ فيما بعدها.

(٣) حديث متفق عليه أخرجه البخاري برقم ٦٧٦٤ ومسلم برقم ١٦١٤.

(٤) السنة قبل التدوين ص ٢٦.

(٥) أخرجه البخاري برقم: ٦٩٣٧.

وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[١] وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة ٤٣] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة ١٨٣]وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران ٩٧].

فمن هنا يتضح مدى أهمية السنة، وأنها المصدر الثاني لهذه الشريعة، وأنها الوحي غير المتلو، وأنها من عند الله عزَّ وجلّ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم ٣ ـ ٤].

جهود الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، في تلقي السنة النبوية وروايتها:

لقد تلقى الصحابة الكرام حديث رسول الله ﷺ وأخذوه عنه، كما وجههم إلى ذلك رسول الله ﷺ وحثهم على سماعه ونقله، في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ «**نضّر الله امرأ سمع منا مقالة فوعاها، وأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع**»[٢]وقوله ﷺ «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»[٣] وقوله ﷺ «**بلغوا عني ولو آية**»[٤]وقوله ﷺ «**من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[٥] فاستجاب الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، فاستودعوه حافظتهم الفذة، وترجموه إلى عقيدة وعمل، وسلوك وأخلاق، فحفظ بذلك أشد الحفظ وأقواه. ولما اختار الرسول الكريم ﷺ جوار ربه، خلفه الصحابة الكرام، فقاموا بحمل الرسالة، ورواية الحديث النبوي الشريف بدقة وأمانة، معتمدين على توجيهات القرآن الكريم السديدة في التلقي، ومنها قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، فبذلوا جهوداً متنوعة لتلقي السنة وحفظها فمنها:

١ ـ **الكتابة والتدوين**، فقد جاء عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: كنت أكتب كل شي إسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه)[٦]. وهذا أحد الصحابة، واسمه أبو شاه، لما سمع

(١) أخرجه البخاري برقم ٨.
(٢) أخرجه الترمذي برقم ٢٧٩٥.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٣٦٦.
(٤) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٦١.
(٥) أخرجه مسلم: (٣).
(٦) أخرجه أبو داود في سننه برقم ٣٦٤٦، وصححه الألباني.

خطبة النبي ﷺ طلب أن تكتب له، فيقو ل الرسول ﷺ: «**اكتبوا لأبي شاه**»(١).

٢ ـ السؤال عن السنة والتثبت من صحة الرواية عند تحملها وعند روايتها، فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسأل عن الذي عنده علم في ميراث الجدة، فيشهد المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ أعطاها السدس، فلم يكتف الصديق بذلك، بل طلب شخصاً آخر يؤكد هذه الرواية، فشهد محمد بن مسلمة ﷺ بمثل ما قال المغيرة، فأنفذه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).. وكذلك قصة استئذان أبي موسى الأشعري على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وطلب الشهود، ثم قال عمر (إني لم أتهمك، ولكن أحببت أن أتثبت)(٣).

٣ ـ التناوب على سماع الحديث، حيث جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يتناوب مع جار له أنصاري في النزول إلى المسجد النبوي لسماع الحديث النبوي(٤).

٤ ـ الرحلة في سبيل الحصول على الحديث: لقد رحل الصحابة الكرام في سبيل الحصول على الحديث الواحد، فخرجوا إلى الشام، ومصر، وغيرهما. فهذا جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يرحل إلى الشام مسيرة شهر ليسمع حديثاً واحداً من عبد الله بن أنيس، وهو حديث (يحشر الناس يوم القيامة عراة...)(٥). ثم يرجع إلى المدينة بعد سماعه. وهذا أبوأيوب يرحل إلى مصر ليسمع حديث (من ستر مؤمناً في الدنيا)(٦)، ثم يرجع إلى المدينة بعد سماعه.

٥ ـ استدراك بعضهم على بعض:

إذا خالف ما هو ثابت، فعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ دَخَلْتُ أَنَا وَعُرْوَةُ بن الزُّبَيْرِ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ الله بن عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جَالِسٌ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ، ... وفيه: ثُمَّ قَالَ لَهُ: كَمِ اعْتَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: أَرْبَعً، إِحْدَاهُنَّ فِي رَجَبٍ، فَكَرِهْنَا أَنْ نَرُدَّ عَلَيْهِ.

قَالَ وَسَمِعْنَا اسْتِنَانَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحُجْرَةِ فَقَالَ عُرْوَةُ: يَا أُمَّاهُ، يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَلاَ تَسْمَعِينَ مَا يَقُولُ أَبُو عبد الرَّحْمَنِ؟ قَالَتْ: مَا يَقُولُ؟ قَالَ: يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة، برقم ١١٢، كتاب العلم باب كتابة العلم.

(٢) تذكرة الحفاظ ـ للذهبي (١/ ٢).

(٣) تذكرة الحفاظ، ج١، ص٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب التناوب في طلب العلم، برقم ٨٩.

(٥) أخرجه الروياني في مسنده: ١/ ٤٦٩.

(٦) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٩. قال الأرنؤوط: المرفوع منه صحيح لغيره. والألباني في السلسلة الصحيحة: ٢٣٤١.

عُمَرَاتٍ إِحْدَاهُنَّ فِي رَجَبٍ، قَالَتْ: يَرْحَمُ اللهُ أَبَا عبد الرَّحْمَنِ، مَا اعْتَمَرَ عُمْرَةً إِلاَّ وَهُوَ شَاهِدُهُ، وَمَا اعْتَمَرَ فِي رَجَبٍ قَطُّ(١).

ومن هنا نقول: إن الصحابة الكرام قد بذلوا جهودهم في نقل حديث رسول الله ﷺ كما نقلوا القرآن الكريم غضاً طرياً، وقد توصلوا بدقة استنباطهم وعمق فهمهم إلى استنباط قوانين للرواية حفظوا بها حديث رسول الله ﷺ من الخطأ والخلط، كما صانوه من الدس والاختلاق، وكانت هذه القواعد هي أصول علوم الحديث التي تكاملت على أيدي المحدثين فيما بعد.

(١) أخرجه البخاري: ١٧٧٥ و١٧٧٦.

عناية المسلمين بتدوين السنة النبوية وعلومها

١ ـ كتابة الحديث في العهد النبوي:

أ ـ كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يتلقون السنة القولية والعملية من رسول الله ﷺ بحرص بالغ، وعناية فائقة، إذ هي بيان للقرآن الكريم، وتوضيح لمعالم الإسلام.

وكان التعويل في الأعم على الحفظ، إذ لم تكن الكتابة شائعة بين العرب، وكان عدد الكتبة قليل، فوجههم رسول الله ﷺ في أول الإسلام إلى كتابة القرآن الكريم، وعرفوا بكتبة الوحي. وحين أراد بعض الصحابة في أول الأمر كتابة الحديث النبوي نهاهم رسول الله ﷺ قائلاً: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»(١). وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جهدنا بالنبي ﷺ أن يأذن لنا في الكتاب فأبى»(٢). وإنما كان هذا النهي عن كتابة الحديث حتى لا يختلط شيء منه بالقرآن، وحتى تنصرف الهمم إلى العناية بكتابة القرآن ليتم ما وعد الله سبحانه من حفظ هذا الكتاب من الضياع أو التحريف؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ب ـ ثم أذن رسول الله ﷺ بالكتابة فأذن لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنه كان متقناً ضابطاً يعرف السريانية والعربية ويكتب بهما، وكان حريصاً على كتابة حديث رسول الله ﷺ، فكان يكتب بين يدي رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ يقرّه على ذلك، فقد قال: قلت يارسول الله، إني أسمع منك أشياء، أفأ كتبها؟ قال: نعم، قلت: في الغضب والرضا، وفي رواية عند الغضب، وعند الرضا؟، قال ﷺ: «**نعم، إنه لا ينبغي لي أن أقول إلا حقاً**»(٣).

ولقد كان النهي عن الكتابة أول الأمر لما ذكر، ثم نسخ هذا الحكم بالأحاديث التي دلت على إباحة كتابة الحديث، ومن هذه الأحاديث، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما فتح الله عزَّ وجلّ على رسول الله ﷺ مكة، قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه.... الحديث، قام أبو شاه ـ رجل من أهل

(١) أخرجه مسلم برقم: ٣٠٠٤.

(٢) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (ص ٢٧٩).

(٣) أخرجه أحمد: ٢/ ١٦٢، وقال شعيب: صحيح لغيره. والحاكم في العلم (برقم ٣٥٨).

اليمن ـ فقال: اكتبوا لي يارسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**اكتبوا لأبي شاه**»(١).

ونخلص مما سبق أن كتابة الحديث الشريف كانت بدايتها في حياة رسول الله ﷺ وبين يديه، ولكن لم تكن شاملة، أو بشكل تدوين رسمي مثل القرآن الكريم، بل كانت جهوداً شخصية.

٢ ـ كتابة الحديث في العهد الراشدي:

لم ير الخلفاء الراشدون، رضوان الله عليهم، اشتغال الناس بتدوين السنة النبوية، صرفاً لعناية الكتبة إلى جمع القرآن الكريم، مع الاعتماد على أن السنة النبوية؛ محفوظة عن طريق الرواية الشفوية من جهة، والتطبيق العملي لها من جهة أخرى، وساعدهم على ذلك محبتهم الشديدة لحديث رسول الله ﷺ، وتمسكهم بتطبيقه، مما حملهم على حفظ السنة النبوية في صدورهم، واستيعابهم لها في قلوبهم وسلوكهم، وساعدهم على ذلك أيضاً صفاء أذهانهم، على ما كان عليه حال العرب الذين يعتمدون على ذاكرتهم في حفظ تاريخهم وأنسابهم وغزواتهم وأشعارهم، وتشهد لهم بذلك تلك المعلقات التي رووها، وغيرها.

فلم يكن هناك تدوين رسمي للسنة النبوية على مستوى الأمة في هذا العصر المبارك، ولكن حدثت محاولات، ـ فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثبت عنه أنه جمع خمسمائة حديث عن رسول الله ﷺ، فبات ليلة يتقلب كثيراً، فلما أصبح قال لأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أي بنية، هلمي الأحاديث التي عندك ! قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فجئته بها فدعا بنار فأحرقها !(٢).

ـ وهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لم يثبت عنه أنه أمر بتدوين السنة، والمشهور في ذلك ما رواه عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد أن يكتب السنن، فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستخير الله عزَّ وجلّ شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله عزَّ وجلّ له، فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فانكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً)(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (٥/ ١).

(٣) مصنف عبد الرزاق: ١١/ ٢٥٧، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٣٢).

وهذا الخبر يبين أسباب منع التدوين للسنة النبوية بصورة رسمية في عهد الخلفاء الراشدين، ولا ينفي هذا أن بعض أفراد الصحابة كانوا يكتبون لأنفسهم.. ولكن الشيء الذي لم يحدث في ذلك العصر هو تدوين السنن المحفوظة في الصدور، كما فعلوا في كتابة القرآن الكريم. ولقد كان القصد من هذا المنع من التدوين هو توفير الجهود كلها للاشتغال بحفظ القرآن الكريم، وحتى لا يلتبس به شيء غيره.. وهذا معنى قول أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً).

وأيضاً كان المحذور من كتابة السنن في ذلك العهد المبكر أن تنتشر هذه الصحف في الآفاق، وأن يقع الوهم بأن شيئاً منها من القرآن، مادام قد كتب في العصر الذي كتب في القرآن. ولهذا كتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الأمصار «من كان عنده شيء فليمحه»(١).

ـ وهذا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً لم يثبت عنه أنه أمر بتدوين السنة، بل كره ذلك، فقد خطب الناس، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم، وتركوا كتاب ربهم»(٢).

ولم يكن على السنة النبوية في هذا العصر من بأس ـ مع ترك تدوينها ـ إذ كان المعول فيه على الحفظ الدقيق والرواية الواعية، فهذا أبو نضرة يقول: قلت لأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا نكتب ما نسمع منك ـ أي من الأحاديث والسنن ـ قال أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتريدون أن تجعلوها مصاحف؟ إن نبيكم ﷺ كان يحدثنا فنحفظ.. فاحفظوا كما كنا نحفظ»(٣).

وقد كان هذا كله من تقدير العزيز العليم، الذي تكفل بحفظ القرآن، فهدى الصحابة، رضوان الله عليهم، في هذا العهد الراشد إلى تخصيص القرآن وحده بالكتابة، لئلا يلتبس به شيء حتى يثبت في الصدور وينتشر في الآفاق.. أما السنن فلم يضع أوينقص منها شيء ـ رغم أنها لم تدون ـ إذ كانت الصدور الواعية تمسك بها.. وكان العمل بها والاهتداء بهديها يجعلها أمراً مشهوراً وطريقاً مسلوكاً.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٣٢).

(٢) نفس المصدر (١/ ١٣٠).

(٣) نفس المصدر(١/ ١٣١).

٣ ـ تدوين السنة النبوية في العهد الأموي:

بعد أن انقضى عصر الصحابة، رضوان الله عليهم، وجاء عصر التابعين ومن بعدهم.. وكان القرآن الكريم قد تواتر ولقي من العناية ما جعله في مأمن بعد ذلك من التحريف، أو الخلط بغيره، لم يعد هناك بأس من كتابة الحديث؛ وذلك خشية ذهاب الحديث بذهاب حفاظه.. وخوفاً من أن يتطرق إليه، مع اختلاف العصور، الوهم أو الخطأ، أو التحريف، أو النسيان، مع ظهور الوضع والكذب على رسول الله ﷺ، وصعوبة حفظ الأسانيد الطويلة، كل هذه الأشياء جعلت الولاة يفكرون في تدوين السنة النبوية، فقد ورد في بعض الأخبار أن أول من فكر في تدوين السنة النبوية هو عبدالعزيز بن مروان أمير مصر، ولكن لم تذكر لنا كتب العلم مصير تلك المحاولة، ولذا لما تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان رحمه الله الخلافة عام (٩٩هـ) أمر بكتابة الحديث وتدوينه رسمياً. فكتب إلى عامله على المدينة أبي بكر ابن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ(١).

وكتب إلى عماله في الآفاق بمثل ما كتب إلى أبي بكر ابن حزم.

وكان أول من استجاب لهذه الرغبة الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله (المتوفى سنة ١٢٤هـ) حيث بدأ بجمع الأحاديث النبوية، والآثار المروية عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم، يقول صالح بن كيسان: كنت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم، فاجتمعنا على أن نكتب السنن، فكتبنا كل شيء سمعناه عن النبي ﷺ، ثم قال ـ أي ابن شهاب ـ: اكتب لنا ما جاء عن أصحابه، فقلت: لا، ليس بسنة. وقال هو: بل هو سنة، فكتب ولم أكتب، فأنجح وضيعت. آه(٢).

وبدأت هذه الكتب المدونة في السنة النبوية تنتشر في الأمصار الإسلامية في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله كما يدل على ذلك قول الإمام محمد بن شهاب الزهري إمام أهل الحجاز والشام: (أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً)(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم (برقم ١٠٢).

(٢) جامع بيان العلم لابن عبد البر (١/ ١٥٥و١٥٦).

(٣) المصدر السابق.

ولذلك كان الإمام الزهري يفخر بعلمه وبسبقه في تدوين الحديث والأثر ويقول: لم يدون هذا العلم أحد قبل تدويني[١].

٤- تدوين الحديث في العصر العباسي:

لقد ازدهرت المكتبات، وكثرت الكتب والصحف في العصر العباسي، وساهم في ذلك ظهور صناعة الورق، وكذا حوانيت الوراقين، متوجاً ذلك بدعم الخلفاء والأمراء وتشجيعهم العلماء على التأليف، فقد طلب ثاني خلفاء العباسيين ووالدهم جميعاً أبو جعفر المنصور الذي ـ ولي الخلافة سنة (١٣٦هـ) ـ طلب إلى الإمام مالك أن يجمع ما ثبت لديه ويدونه في كتاب، ويوطئه للناس، فألف كتابه هذا وسماه الموطأ، وجمع فيه ما بلغه من صحيح حديث رسول الله ﷺ في الأحكام وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ويعد من أوائل المصنفات التي وصلت إلينا كاملة.

٥ـ تصنيف الحديث وظهور الكتب الستة في القرن الثالث الهجري:

لقد ظهرت المصنفات الكثيرة وتوالى الجمع والتصنيف في هذا القرن حيث يعد بحق العصر الذهبي للسنة النبوية، إذ فيه اتجهت همم العلماء والرواة إلى جمع الحديث النبوي الشريف مفرداً عن أقوال الصحابة والتابعين، مع مراعاة الدقة البالغة في التمييز بين الصحيح وغيره، فمن أوائل المؤلفين في الحديث حسب المدن، الإمام ابن جريج في مكة المكرمة، والإمام مالك وابن إسحاق في المدينة المنورة، وسفيان الثوري بالكوفة، وعبد الله بن المبارك بخراسان، وهكذا توالت المؤلفات الحديثية، وكان التصنيف على منهجين وطريقتين: الطريقة الأولى على المسانيد ومن أشهرها مسند الإمام أحمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١هـ). والطريقة الثانية على الأبواب الموضوعية ومنهم من اقتصر على الصحيح، ومنهم من جمع الصحيح وغيره. وفي هذا القرن كتب الإمام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ ست وخمسين ومائتين كتاب الجامع الصحيح، كما ألف مسلم المتوفى سنة ٢٦١هـ إحدى وستين ومائتين صحيحه، وابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣هـ ثلاث وسبعين ومائتين كتابه المعروف بسنن ابن ماجه، وفيه جمع أبو داود المتوفى سنة ٢٧٥هـ خمس وسبعين ومائتين كتابه المعروف بسنن أبي داود، والترمذي

(١) السنة قبل التدوين (ص/ ٣٣٢).

المتوفى سنة ٢٧٩هـ تسع وسبعين ومائتين كتابه الجامع، والنسائي المتوفى سنة ٣٠٣هـ ثلاث وثلاثمائة سننه، وهذه هي الكتب التي أطلق عليها علماء الحديث اسم الكتب الستة، وكلها كتبت في القرن الثالث للهجرة، ثم توالت المؤلفات فظهر في فترة تالية صحيح ابن خزيمة المتوفى سنة ٣١١هـ إحدى عشرة وثلاثمائة، وصحيح ابن حبان المتوفى سنة ٣٥٤هـ أربع وخمسين وثلاثمائة.

ونظراً لمكانة الصحيحين (البخاري ومسلم) سوف نفرد لهما تعريفاً، لنوضح خصائص ومزايا كل كتاب، ثم نذكر تعريفاً موجزاً للسنن الأربعة: سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي وابن ماجة.

فنبدأ أولاً بصحيح الإمام البخاري رحمه الله:

أ ـ اسمه: (الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه).

ب ـ سبب تأليف الكتاب: من ذلك ما سمعه البخاري من أستاذه أمير المؤمنين في الحديث إسحاق بن راهويه حيث قال لتلاميذه: لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ. اهـ. قال البخاري: فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع (الجامع الصحيح). وأيضاً ما ذكر عن نفسه بأنه رأى النبي ﷺ في المنام، وبيد البخاري مهفة يذب عن النبي ﷺ، فعندما قصها على المعبرين، عبروها له بأنه يذب الأحاديث الضعيفة عن حديث رسول الله ﷺ، فوقع في قلبه تصنيف الكتاب الصحيح، ومكث في تصنيفه ستة عشر عاماً، وما وضع فيه حديثاً إلا اغتسل قبله وصلى ركعتين، وبعد أن أكمله عرضه على الأئمة أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين وعلي بن المديني، وغيرهم فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة إلا في أربعة أحاديث، قال الإمام العقيلي: والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة[1]. وتلقاه العلماء بالقبول في كل عصر. قال البخاري عنه: جعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى، وما أدخلت فيه إلا صحيحاً، وما تركت من الصحيح أكثر[2] حتى لا يطول.

وقال الإمام النووي: اتفق العلماء على أن أصح الكتب بعد القرآن الكريم الصحيحان، صحيح البخاري وصحيح مسلم، وتلقتهما الأمة بالقبول، وكتاب البخاري أصحهما وأكثرهما

(١) ينظر منهج الإمام البخاري في تصحيح الأحاديث وتعليلها ص٢٥ أبو بكر كافي دار ابن حزم.

(٢) توجيه النظر إلى أصول الأثر ١/ ٣٢١.

فوائد[١]... فقد التزم مع صحة الأحاديث، استنباط الفوائد الفقهية، والنكت الحكمية، فاستخرج بفهمه الثاقب من المتون معاني كثيرة فرقها في أبوابه بحسب المناسبة، واعتنى فيها بآيات الأحكام... ثم إن تراجم الأبواب ـ أي عناوين الأبواب ـ قد تكون ظاهرة وخفية، فالظاهرة أن تكون دالة بالمطابقة لما يورد في مضمونها، وإنما فائدتها الإعلام بما ورد في ذلك الباب.. ولذا اشتهر في قول جمع من الفضلاء: فقه البخاري في تراجمه[٢].

وقال الإمام الذهبي: وأما جامع البخاري الصحيح، فأجل كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالى. وهو أعلى شيء في وقتنا إسناداً للناس. ومن ثلاثين سنة يفرحون بعلو سماعه، فكيف اليوم فلو رحل الشخص لسماعه من مسيرة ألف فرسخ لما ضاعت رحلته[٣].

ترتيب الكتاب: وقد رتبه على سبعة وتسعين كتاباً: بدأ بكتاب (بدء الوحي) وختمه بكتاب (التوحيد) وأدرج ما بينهما سائر الكتب الأخرى الشاملة لجميع أبواب الدين، ولذا سمي بكتاب الجامع.

وقد اعتنى العلماء بصحيح البخاري على مدى العصور المتوالية، شرحاً، واستنباطاً للأحكام منه، وقد زادت المؤلفات حوله على أربعمائة كتاب، ومن أشهرها كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر (المتوفى ٨٥٤هـ) الذي طبع في أربعة عشر مجلداً، وقال عنه العلماء: لقد كان شرح البخاري ديناً في عنق الأمة حتى جاء الحافظ ابن حجر بشرحه فتح الباري فوفى هذا الدين، والله أعلم.

ثانياً: صحيح الإمام مسلم:

اسمه: (المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ).

ألف الإمام مسلم كتابه الصحيح استجابة لطلب أحد طلبة العلم النبهاء، في مدة استمرت خمس عشرة سنة، انتهى منه عام مائتين وخمسين هجرية، في بلده وفي حياة كثير من مشايخه، ورتبه على الأبواب، لكنه لم ينص على هذه الأبواب لئلا يزداد حجم الكتاب أو لغير ذلك، ثم جاء بعده الأئمة فشرحوا الكتاب مع وضع أسماء لتلك الأبواب؛ ولذا قد يحدث

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١٤.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/ ١٢.

(٣) تاريخ الإسلام: ١٩/ ٢٤٢.

اختلاف في بعضها.

ولقد اعتنى العلماء بصحيح الإمام مسلم فكثرت عليه الشروح حتى زادت على مائة كتاب، ومن أشهرها شرح الإمام النووي المعروف باسم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج) وطبع في تسع مجلدات كبار.

ثالثاً: سنن أبي داود:

للإمام الحافظ سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني. ولد سنة ٢٠٢هـ، طلب العلم صغيراً، ومن الذين طافوا البلاد في طلب الحديث، ولقي كثيراً من أئمة الحفاظ في عصره كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وله مصنفات أشهرها: (السنن) وقد صنفه على أبواب الفقه واقتصر فيه على الأحكام ولم يذكر القصص والمواعظ. قال رحمه الله: «كتبت عن رسول الله ﷺ. خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته في هذا الكتاب جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث[١] ذكرت الصحيح وما يشبهه وما يقاربه»، وقال رحمه الله: «ما ذكرت في كتابي حديثاً أجمع الناس على تركه»[٢]. ومن أهم شروحه: معالم السنن لأبي سليمان محمد بن محمد الخطابي، توفي أبو داود رحمه الله سنة ٢٧٥هـ[٣].

رابعاً ـ سنن الترمذي:

ويسمى «جامع الترمذي» أو «الجامع الصحيح»، للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي ولد سنة ٢٠٠هـ، طلب العلم صغيراً، ورحل في طلبه إلى كثير من البلدان، ولقي كثيراً من أئمة عصره، كالإمام البخاري ومسلم وأبي داود، وكان من أئمة الحفاظ الذين اشتهروا بالضبط والإتقان إلى جانب زهده وورعه، بكى حتى ابيضت عيناه، وبقي ضريراً سنين آخر عمره وتوفي سنة ٢٧٩هـ[٤]، وقد ترك عدة مصنفات من أشرها كتابه: السنن، فيه الصحيح والحسن والضعيف والغريب والمعلل وكشف عن علته، ويتجه أهل التحقيق إلى أن غالبية أحاديث هذا الكتاب صحيحة،

---

(١) بلغد عددها في المطبوع من رواية اللؤلؤي بالمكرر (٥٢٧٤) حديث.

(٢) معالم السنن ـ للخطابي ص ٦، ٨، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٢١٠).

(٣) انظر: ترجمته مفصلة في سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٠٣).

(٤) انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء، (١٣/ ٢٧٠).

والضعيف فيها قليل، قال الترمذي: (صنفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به، ومن كان في بيته فكأنما في بيته نبي بينكم[١]. ومن أهم شروحه عارضة الأحوذي لأبي بكر بن العربي، وتحفة الأحوذي للمباركفوري.

خامساً ـ سنن النسائي:

ويسمى بالمجتبى أو المجتنى ـ بالنون ـ، وبالسنن الصغرى؛ لأنه اختصره من كتابه «السنن الكبرى»، للإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، نسبة إلى بلده نسا بخراسان، ولد سنة ٢١٥هـ، طلب العلم صغيراً، ورحل في طلبه، وهو ابن خمس عشرة سنة إلى بلاد مختلفة، وسمع من كبار علماء عصره في بلده، ومن تلك البلدان على سبيل المثال الحجاز، والعراق، ومصر، والشام، وغيرها، ثم استوطن مصر.

وبرع فيها وكان فقيهاً شافعي المذهب كثير العبادة، متمسكاً بالسنةن توفي بالرملة بفلسطين سنة ٣٠٣هـ[٢]، ودفن في بيت المقدس، وللنسائي خمسة عشر مؤلفاً أكثرها في الحديث وأشهرها كتابه: «السنن» صنفه على أبواب الفقه ويدعى المجتبى وكان رَحِمَهُ اللَّهُ في أول الأمر ألف كتاباً يقال له «السنن الكبرى» ثم اختصره، وأسقط كل حديث تكلم في إسناده بالتعليل. وأما شروحه فمنها: شرح السيوطي، وحاشية السندي، وهما مطبوعان.

سادساً ـ سنن ابن ماجه:

للإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد بن عبدالله القزويني، عرف بابن ماجه ولقب به، ولد في قزوين سنة ٢٠٩هـ، وطلب العلم في مطلع شبابه، ورحل إلى العراق والحجاز ومصر والشام وغيرها ولقي كثيراً من أئمة عصره، له مصنفات في السنن والتفسير والحديث والتاريخ وأشهر كتبه كتاب: السنن ووضعه على أبواب الفقه. توفي سنة ٢٧٣هـ[٣]، وقد جمع في كتابه الصحيح والحسن والضعيف، لهذا لم يدخله كثير من أهل العلم في الكتب الستة قبل القرن السادس، وأول من ضم سنن ابن ماجه إلى الكتب الخمسة أبو الفضل طاهر المقدسي: ٤٤٨ ـ ٥٠٧هـ، في كتابه أطراف الكتب الستة وبهذا أصبحت كتب الحديث المعتمدة ستة

---

(١) انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء، (١٣/ ٢٧٠).

(٢) انظر: فضائل الكتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي (ص ٢٢).

(٣) انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء ج١٣، ص٢٧٧.

وتابعه على ذلك أهل العلم من بعده.

وكان العلماء قبل ذلك يعدون الأصل السادس كتاب الموطأ للإمام مالك رحمه الله؛ لأنه أصح من سنن ابن ماجه، وإنما قدم العلماء سنن ابن ماجه على الموطأ، لما في السنن من زوائد على الكتب الستة بخلاف الموطأ فجعل ابن ماجه ما فيه موجوداً في الكتب الخمسة إلا القليل منه(١). فلم يقدم كتاب ابن ماجه على الموطأ لأنه أصح منه بل لكثرة الزيادات فيه(٢).

ثم تأتي بعد ذلك كتب الأحاديث الأخرى منها:

سابعاً ـ موطأ الإمام مالك بن أنس الأصبحي الحميري المدني الفقيه أحد أعلام الإسلام وأحد أصحاب المذاهب الأربعة وإمام دار الهجرة ولد سنة ٩٣هـ، وتوفي سنة ١٧٩هـ.

ثامناً ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني المروزي. خرجت أمه به من سرد وهي حامل به فولدته في بغداد سنة ١٦٤هـ، وفيها نشأ وطلب العلم، وهو أحد أصحاب المذاهب الأربعة توفي رحمه الله سنة ٢٤١هـ.

تاسعاً ـ ثم صحيح ابن خزيمة للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن إدريس بن خزيمة النيسابوري ولد سنة ٢٢٣هـ، وتوفي سنة ٣١١هـ، وقيل: إن أصح ما صنف بعد الشيخين ابن خزيمة فابن حبان(٣).

عاشراً ـ ثم صحيح ابن حبان: للإمام الحافظ أبي حاتم أحمد بن حبان البستي الشافعي ت: ٣٥٤هـ، له تصانيف عدة أشهرها المسند الصحيح، وقد رتبه الأمير علاء الدين بن عبدالله على الأبواب ترتيباً حسناً وسماه: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان(٤)، وغير ذلك من الكتب في علم الحديث.

٦ ـ منهج المحدثين في توثيق السنة:

لقد بذل علماء الحديث جهوداً حثيثة مباركة وفق منهج علمي دقيق التزموه في تدوينهم للسنة النبوية وتمييزهم للمقبول من المردود منها. وقد ظهرت هذه العناية بالسنة النبوية المطهرة في قواعد ثابتة ومنهج نقدي واضح، وأبرز معالم هذه المنهج:

---

(١) علوم الحديث لأحمد محمد علي داود ـ ص١٥٦.

(٢) أصول الحديث ـ للخطيب ص ٣٢٣.

(٣) الرسالة المستطرفة ـ ص ١٧.

(٤) الرسالة المستطرفة ـ ص ١٦.

أولاً: نقد السند. والسند في اصطلاح المحدثين: هو سلسلة الرواة الذين ينقلون ما أضيف إلى رسول الله ﷺ، وسمي سنداً لاعتماد الحفاظ عليه في معرفة قبول الحديث ورده.

وقد اجتهد الصحابة، رضوان الله عليهم، ومن جاء بعدهم في المحافظة على الحديث، وفحص رواته وأحوالهم وجعلوا الاهتمام بالإسناد من الدين، قال الإمام عبدالله بن المبارك: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء[١]. اهـ. وقال الإمام شعبة: إنما يعلم صحة الحديث بصحة الإسناد. اهـ. وقال الإمام سفيان الثوري: الإسناد سلاح المؤمن، إذا لم يكن معه سلاح، فبأي شيء يقاتل[٢]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: والإسناد من خصائص هذه الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة[٣] اهـ.

ولقد أراد أعداء الإسلام الكيد لهذا الدين والنيل منه، بتلفيق الأحاديث المكذوبة، فأفزع هذا الصنيع الخبيث علماء الإسلام، فنهض جمع منهم لمهمة الكشف عن هؤلاء الرواة، بدراسة أحوالهم، والتحري عن ميولهم ومذاهبهم، مع التجرد عن الهوى، والتحلي بالحيادية الحقيقية في البحث، حيث إن محبتهم لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أغلى من محبتهم لأنفسهم وأهليهم وأوطانهم، فكانوا يبحثون عن القرائن التي تجلي الحكم عن هذا الراوي أو ذاك، دون الاهتمام بأن تكون النتيجة سلبية أو إيجابية، بل غايتهم أن تكون النتيجة صحيحة صادقة، مثل المخبري عندما يحلل مادة، فيذكر النتيجة حتى وإن لم يرض عنها الطبيب.

فكان هدف علماء الحديث مرضاة الله سبحانه وتعالى، مع إخلاصهم وحرصهم الشديد ألا يدخل في سنة رسول الله ﷺ ما ليس منها، نصيحة للأمة.

ثانياً: نقد المتن: والمتن في اصطلاح المحدثين: هو ألفاظ الحديث النبوي الشريف، وهو ما ينتهي إليه السند من الكلام.

ولقد كان الاهتمام بالمتن وتمحيصه معروفاً منذ عهد الصحابة، رضوان الله عليهم، إذ جاءت روايات كثيرة تؤكد ذلك، وقد سبق إيراد الكثير منها، مما يدل على عنايتهم بنقد المتن،

---

(١) صحيح مسلم ـ مقدمة الصحيح باب بيان أن الإسناد من الدين ج١ ص٢٠٣.

(٢) أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني ص ١٤ منشورات دار ومكتبة الهلال.

(٣) منهاج السنة النبوية ٧/ ١٨.

كما اعتنوا بنقد السند، حتى يتم الحكم على الحديث حكماً شاملاً عادلاً. وجعلوا من شروط قبول الحديث إضافة إلى اتصال السند وضبط رواته ألا يكون شاذاً ولا معللاً، وهذا القيد متعلق بسلامة المتن.

٧ ـ ثمرة علوم الحديث وفائدة تقسيم الحديث إلى مقبول ومردود:

إن أهمية علوم الحديث ترجع إلى علاقته بحفظ السنة النبوية الشريفة فهو الذي وضع القواعد والأطر التي أعطت الحديث الشريف صفاء وإشراقاً لا شية فيه، وخلصته من تلك الأحاديث المنحولة والمكذوبة، وأصبح المسلم، بسبب هذا العلم المبارك، يأخذ الحديث وهو مطمئن البال بأن النبي ﷺ قد قاله حين يثبت بالإسناد، ويسلم من الشذوذ والعلة.

ولذا قسم العلماء الحديث الشريف إلى مقبول ومردود وفق قواعد كل قسم نتعرف عليها.

أولاً: الحديث المقبول: ينقسم الحديث المقبول إلى:

أ ـ حديث صحيح لذاته وهو: هو الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابطن عن العدل الضابط، من أوله إلى منتهاه، ولا يكون شاذاً ولا معللاً[١]..

وشروطه خمسة:

١ ـ اتصال السند.

٢ ـ عدالة الراوي.

٣ ـ ضبط الراوي.

٤ ـ عدم الشذوذ.

٥ ـ عدم العلة.

ب ـ حديث صحيح لغيره: وهو الحديث الحسن لذاته إذا تعددت طرقه[٢].

ج ـ حديث حسن لذاته: وهو خبر ما كان بنقل عدل، خف ضبطه، متصل السند، غير معلل ولا شاذ، وهو الحسن لذاته، فإذا تعددت طرقه صحّ لغيره[٣].

---

(١) التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح (ص٢٠).

(٢) الوسيط في مصطلح الحديث ص ٢٣٠.

(٣) انظر: تدريب الراوي ١/ ١٠٥.

د ـ حديث حسن لغيره: ما كان في إسناده مستور لم تتحقق أهليته غير أنه لم يكن مغفلاً كثير الخطأ فيما يرويه، ولا متهماً بالكذب في الحديث، ولا بسبب آخر مفسقاً على أن يعضد براوٍ معتبر من متابع أو شاهد[١]، فهو الحسن لغيره.

وهذه الأنواع الأربعة هي المقبولة التي يعمل بها، مع ترجيح الصحيح على غيره إن تعارض معه.

ثانياً: الحديث المردود. وينقسم إلى نوعين:

النوع الأول: الحديث الضعيف: وهو الحديث الذي لم تتحقق فيه صفة الحديث الصحيح أو الحسن المتقدمة[٢].

وأسباب ضعف الحديث خمسة هي:

١ ـ عدم اتصال السند.

٢ ـ عدم العدالة.

٣ ـ عدم الضبط.

٤ ـ الشذوذ.

٥ ـ العلة.

وكل سبب من هذه الأسباب يتفرع عنه أنواع عدة من الحديث الضعيف.

وأما حكم العمل به، فقد اختلف العلماء بالعمل بالحديث الضعيف إلى قولين:

القول الأول: عدم العمل به مطلقاً، وفي الأحاديث الصحيحة غنية وكفاية.

القول الثاني: يعمل به في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب بشروط ثلاثة:

١ ـ ألا يكون الضعف شديداً.

٢ ـ أن يكون مندرجاً تحت أصل عام معمول به في الدين.

٣ ـ ألا يعتقد عند العمل بثبوته، بل يعتقد الاحتياط[٣].

النوع الثاني: الحديث الموضوع: وهو الحديث المكذوب المنسوب إلى رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: مقدمة ابن الصلاح ص ١٣.

(٢) انظر: تدريب الراوي ج ١ ص ١٧٩.

(٣) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ص ٧٢ جمال الدين القاسمي.

اختلاقاً وكذباً مما لم يقله أو يفعله أو يقره.

وحكمه: أجمع العلماء على أنه لا تحل روايته لأحد علم حاله، إلا مع بيان أنه مكذوب ويحذر الناس منه(١).

وطرق معرفة الحديث المكذوبة كثيرة يعرفها الجهابذة النقاد منها:

١ ـ إقرار واعتراف واضع الحديث بعد توبته.

٢ ـ ما يتنزل منزلة الاعتراف من خلال وفاة الشيخ قبل ولادة الراوي، مع زعمه بأنه سمعه من شيخه.

٣ ـ يعرف الوضع بقرائن في الراوي وحاله عند ذكر الحديث.

٤ ـ ويعرف الوضع بقرائن في المروي، من ركاكة اللفظ أو المعنى.

٥ ـ أن يكون المروي تضمن الإفراط بالوعيد على الأمر اليسير، أو المبالغة في الثواب على الفعل اليسير(٢).

وقد جمع العلماء أحاديث الكذابين في مؤلفات مستقلة منها:

١ ـ كتاب الموضوعات لابن الجوزي (توفي ٥٩٧هـ).

٢ ـ اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي (توفي ٩١١هـ).

٨ ـ معرفة كيفية البحث عن حديث ما، وتخريجه بإيجاز:

علم التخريج يعرفك مفاتيح كنوز السنة فإذا سمعت حديثاً نسبه قائله إلى رسول الله ﷺ، أو قرأت ذلك في كتاب، وأردت التأكد من صحته فإن علم التخريج هو الذي يدلك على موقعه، وحكمه من الصحة أو الضعف.

تعريف التخريج لغة: يطلق على عدة معان أشهرها:

الاستنباط: قال في القاموس: «والاستخراج والاختراج والاستنباط»(٣)، والخروج

---

(١) انظر: مقدمة ابن الصلاح، ص ٥٨، وتدريب الراوي ـ ج١ ص٢٧٤و قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ص١٢٦ وما بعدها.

(٢) انظر: مقدمة ابن الصلاح، ص ٥٨، وقواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ص١٢٦ وما بعدها.

(٣) القاموس المحيط ص٢٣٧ مؤسسة الرسالة..

يقتضيه الدخول وقد أخرج وخرج به[١]، فيكون الإخراج معناه: الإبراز والإظهار، ومنه قوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُۥ﴾ [الفتح: ٢٩].

والتخريج اصطلاحاً: هو الدلالة على موضع الحديث في مصادره الأصلية التي أخرجته بسنده، ثم بيان مرتبته عند الحاجة[٢].

وللتخريج فوائد كثيرة منها على سبيل المثال:

١- معرفة مصدر أو مصادر الحديث.

٢- جمع أكبر عدد من أسانيد الحديث.

٣- ارتقاء الحديث بكثرة طرقه، وغير ذلك من الفوائد الجمة[٣].

معرفة كيفية البحث عن حديث[٤]:

ترجع أهمية معرفة التخريج لارتباطه بثاني الوحيين الشريفيين السنة النبوية، حيث يعين الباحث للوصول إلى ما يريد الاستشهاد به، من خلال جمع نصوص السنة النبوية بطريق علمية من الكتب المسندة وغير المسندة في الموضوع الواحد من خلال التعامل مع كتب الصحاح، والسنن، والمصنفات، والمسانيد، وغيرها.

ويمكن تخريج الحديث بواسطة المتن، أو بواسطة السند كما يلي:

أولاً: تخريج الحديث بالنظر إلى متن الحديث ومعناه وصفته، ويندرج تحته أربع طرق:

الطريقة الأولى: التخريج عن طريق تحديد موضوع الحديث ومعناه، وذلك بالرجوع إلى الكتب المصنفة على الموضوعات، وهي كتب الجوامع كالجامع الصحيح للبخاري، وكتب السنن، مثل سنن أبي داود والسنن الكبرى للبيهقي وغيرهما، وكتب الزوائد عليهما، ويستفاد من مفتاح كنوز السنة، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف في جمع الأحاديث في موضوع محدد، وكذا الكتب التي أفردها العلماء في ذلك الموضوع وكتب أحاديث الأحكام والترغيب والترهيب.

---

(١) لسان العرب، ج٢، ص٢٤٩.

(٢) أصول التخريج ودراسة الأسانيد (ص١٢).

(٣) انظر: كتاب طرق تخريج حديث رسول الله ﷺ، للشيخ الدكتور/ أبو محمد عبد المهدي، (ص١١-١٤)، وقد ذكر في ذلك إحدى وعشرين فائدة فليرجع إليها لتمام حصول الفائدة.

(٤) التفريج بأصول التخريج.

الطريقة الثانية: التخريج عن طريق معرفة أول لفظة أو كلمة من متن الحديث، والكتب المستخدمة هي المرتبة على أوائل الكلمات مثل الجامع الكبير والصغير وزياداته للسيوطي.

وكتب الأحاديث المشتهرة على الألسنة مثل كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني (توفي ١١٦٢هـ)، أو كتب الفهارس العلمية. مثل فهارس كنز العمال وغيره.

الطريقة الثالثة: تخريج الحديث بمعرفة لفظة منه، وبخاصة إذا كان اللفظ قليل الاستعمال، أو كان اللفظ غريباً، ويرجع فيها إلى كتاب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي لمجموعة من المستشرقين، حيث فهرسوا للكتب التسعة، وهي البخاري ومسلم والموطأ، والمسند، وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والدارمي.

الطريقة الرابعة: التخريج عن طريقة صفة مميزة للمتن تدل على موضعه في مصنفات المكتبة الحديثية، مثل الحديث القدسي والموضوع، والضعيف، والمنسوخ، فيرجع إلى المؤلفات المفردة لها.

ثانياً: تخريج الحديث بالنظر إلى سند الحديث وصفة رواته ودرجتهم. وذلك بالرجوع إلى كتب المسانيد مثل مسند الإمام أحمد، وكتب الأطراف، والكتب المؤلفة في المسلسلات، ورواية الأكابر عن الأصاغر والآباء عن الأبناء. ومن روى عن أبيه عن جده.

ثالثاً: تخريج الحديث بواسطة الحاسب الآلي، وفيها موسوعات مثل الموسوعة الشاملة، وجوامع الكلم.

والحاسب الآلي هو منة مستجدة توفرت لأهل هذا العصر، وإضافته في كل المجالات والعلوم تتمثل في تخزين الكم الهائل من المعلومات المتنوعة بطريقة مرتبة يسهل الوصول إليها والاطلاع عليها، وفي مجال تخريج الحديث، فقد وجدت موسوعات حاسوبية ضخمة أدرجت فيها كتب الحديث ومتونه وأجزاءه ومسانيده ورواته والكلام عليهم، وغير ذلك من خلال تفريغه من مصادره المعروفة، بطريقة مرتبة تسهل الوصول إلى المعلومة (فالحاسب الآلي يُعتبر فِهرساً يُنتفع به كما يُنتفع بالفهارس على جميع الوجوه، من اسم الراوي، أو الصحابي، أو لفظة في الحديث، وغيرها، ولا يعدو الحاسب الآلي إلا أن يكون فِهرساً، لكنه له مزايا وعيوب.

مزايا الحاسب الآلي:

١) السرعة وما يوفره من الوقت.

٢) تنوع أساليب استخدامه.

٣) استيعابه لعدد كبير من المصادر.

عيوبه:

١) عدم دقة برامجه حتى الآن.

٢) إبعاد القارئ عن التعرف على المصادر ومناهجها، حتى إن البعض تصوّر أنه يمكن أن يستغني بهذه البرامج عن الكتب، وهذا غير صحيح، فالكتاب هو الوسيلة الصحيحة للتعلّم.

٣) الاغترار بكثرة المصادر، فالبعض قد يظن أن التخريج بكثرة المصادر.

فيُنصح من يستخدم الحاسب الآلي أن يستغلّ المزايا التي فيه استغلالاً جيداً، وأن يتجنب العيوب.

واجبنا نحو رسول الله ﷺ وسنته

سنتعرف هنا على تعظيم كلام النبي ﷺ، وعلى الواجب علينا نحو رسول الله ﷺ ونحو سنته المطهرة:

أولاً: واجبنا نحو رسول الله ﷺ:

لقد أوجب الله سبحانه وتعالى حقوقاً لنبيه ﷺ، ويمكن أن نجملها فيما يلي:

أ ـ الشهادة له بالنبوة والإيمان برسالته ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات١٥] والإيمان به ﷺ هو طاعته وإتباعه قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:١]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠]، وقال ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا يا رسول الله: ومن يأبى؟ قال ﷺ: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»(١).

ب ـ محبته والأدب معه ومع سنته ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(٢).

ومن علامات محبته ﷺ: الاقتداء به واتباع سنته، والعمل بأوامره والانتهاء عن زواجره قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

---

(١) صحيح البخاري (رقم ٦٨٥١).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩) من حديث أنس.

ومن علامات محبته ﷺ: محبة من أحبهم رسول الله ﷺ، كآل بيته الطيبين الطاهرين، وصحابته الكرام من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، ومحبة زوجاته أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فقد قال ﷺ عن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**اللهم إني أحبه فأحب من يحبه**»(١)، وقال ﷺ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أحبيه فإني أحبه**»(٢).

ومن محبته ﷺ أن نبغض من يبغضه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

ومن محبته ﷺ الإكثار من ذكره، لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، ودوام الذكر سبب لدوام المحبة وزيادتها ونمائها، وأفضل ذكره ﷺ الإكثار من الصلاة عليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ويقول ﷺ: «**إذا سمعتم المؤمن فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه مَن صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً**»(٣). وقال ﷺ: «**البخيل من ذكرت عنده فلم يصل عليَّ**»(٤). ومن ذلك الإكثار من قراءة سيرته ﷺ في كل حين، وليس في أيام معدودات من العام كما يفعله بعضهم.

ج ـ متابعته والاقتداء بسنته ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء:١٤]، وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

(١) انظر: فضائل الصحابة ٣/ ٣٣٦.

(٢) أخرجه الترمذي، برقم ٣٨١٨، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٤).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٠١) والترمذي ح: ٣٥٤٦ بإسناد صحيح.

وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ثانياً: تعظيم كلام النبي ﷺ:

١ـ لقد كان الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، جيلاً قرآنياً فريداً، فقد تأدبوا بأدب القرآن الكريم، والتزموا بأمر النبي الكريم ﷺ مع التعظيم والتقديم له ﷺ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وتعظيم الرسول ﷺ واتباعه هو الحق، ومخالفته هي الضلال والهوى، وقد ذكر الله عزَّ وجلّ أن سبب الإعراض عن طاعة رسول الله ﷺ إنما هو الهوى، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وقد توعد الله سبحانه وتعالى المخالفين لأوامره بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور٦٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء١١٥].

٢ـ وقد سار على نهج الصحابة الكرام في اتباع النصوص وتعظيم المصطفي ﷺ وكلامه، مَن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان، ومن دلائل تعظيمهم لكلام رسول الله ﷺ ما جاء مروياً عنهم في كتب الإسلام ومنه:

ـ عن أبي قتادة قال: كنا عند عمران بن حصين في رهط منا، وفينا بُشير بن كعب، فحدثنا عمران يومئذ فقال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء خير كله**» أو قال: «**الحياء كله خير**». قال بشير: إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة: أن منه سكينة ووقاراً لله، ومنه ضعف ! قال: فغضب عمران حتى احمرت عيناه، وقال: ألا أرى أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه؟ قال: فأعاد عمران الحديث. قال: فأعاد بشير، فغضب عمران. قال: فما زلنا نقول فيه: إنه منا يا أبا نجيد... إنه لا بأس به[1] !! يعني: أنه ليس متهماً بالنفاق.

ـ وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تمنعوا نساءكم

(١) أخرجه مسلم (٣٧).

المساجد إذا استأذنكم إليها) فقال بلال بن عبد الله: والله لنمنعهنّ ! قال: فأقبل عليه عبد الله فسبّه سباً سيئاً، ما سمعته سبّه مثله قط، وقال: «أخبرك عن رسول الله ﷺ، وتقول: والله، لنمنعهن[١] !!

ـ عن عبد الله بن مغفل أنه رأى رجلاً يخذف[٢] فقال له: لا تخذف؛ فإن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن الخذف ـ أو كان يكره الخذف ـ وقال: «إنه لا يصاد به الصيد ولا يُنكَأ به العدو، ولكنها قد تكسر السن وتفقأ العين». ثم رآه بعد ذلك يخذف فقال له: أحدثك عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن الخذف ـ أو كره الخذف ـ وأنت تخذف! لا أكلمك كلمة، كذا وكذا»[٣]!

ـ وقال رجل للإمام مالك بن أنس: يا أبا عبد الله، من أين أحرم؟ فقال مالك: من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة. فقال: وأي فتنة في هذا؟ إنما هي أميال أزيدها ! قال الإمام مالك: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصَّر عنها رسول الله ﷺ؟ إني سمعت الله عزَّ وجلّ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور٦٣][٤].

ـ وقال الإمام الحميدي: روى الشافعي يوماً حديثاً، فقلت: أتأخذ به؟ فقال الشافعي: رأيتني خرجت من كنيسة، أو عليّ زُنَّار، حتى إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لا أقول به؟[٥].

والأمثلة في هذا كثيرة تؤكد تعظيم أصحاب رسول الله ﷺ للسنة النبوية ولأقواله ﷺ، وكذا مَنْ جاء مِن بعدهم من التابعين لهم بإحسان.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٤٢).

(٢) الخذف: رميك بحصاة أو نواة تأخذها بين سبابتيك وتخذف بها أي ترمي، ينظر / كتاب العين ٤/ ٢٤٥، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥٤).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٦).

(٥) حلية الأولياء (٩/ ١٠٦) ومناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٧٤).

ثالثاً: التثبت في فعل السنة:

فقد كان السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أشد الناس في التثبت والتحري والتوقي في فعل السنة، فلا يفعلون شيئاً إلا بعلم، ولا يحكِّمون آراءهم، ولا يستحسنون بعقولهم عبادة لم تكن من هدي النبي ﷺ، وذلك حتى في الألفاظ، فقد كان النبي ﷺ يربيهم على الالتزام حتى بألفاظه الشريفة كما ورد في البخاري من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فإن مُتَّ مُتَّ على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول**» فقلت: أستذكرهن: وبرسولك الذي أرسلت. قال: «**لا. وبنبيك الذي أرسلت**»(١). فإذا كان هذا في الألفاظ فكيف بالعمل والاقتداء في العبادة.

ومن الأمثلة على التزام السلف بالسنة في كل أعمالهم ما يلي:

١- أن رجلاً عطس إلى جنب عبد الله بن عمر فقال: الحمد لله، والسلام على رسوله. فقال له عبد الله: «وأنا أقول الحمد لله، والسلام على رسول الله، وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ، علّمنا أن نقول: الحمد لله على كل حال»(٢).

٢- وعن ابن جريج أن طاوساً أخبره أنه سأل عبد الله بن عباس عن الركعتين بعد العصر، فنهاه عنهما، قال طاووس: فقلت له: ما أدعهما! فقال ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦](٣).

٣- ونظير هذا أن سعيد بن المسيب رأى رجلاً يصلي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين، يكثر فيهما الركوع والسجود فنهاه، فقال: يا أبا محمد؛ يعذبني الله على الصلاة؟ فقال: لا.. ولكن يعذبك على خلاف السنة (٤).

---

(١) البخاري (٦٣١١).

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب ح: ٢٧٣٨، والحاكم في الأدب (٤/ ٢٦٥- ٢٦٦) بإسناد جيد.

(٣) أخرجه الشافعي في الرسالة (ص٤٤٣) والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ١٤٦).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في الصلاة (٣/ ٥٢) برقم (٤٧٥٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٤٦٦).

٤- وقال رجل للإمام مالك بن أنس: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ فقال: من ذي الحليفة من حيث أحرم رسول الله ﷺ، فقال الرجل: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. فقال الإمام مالك: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة. قال: وأي فتنة في هذا إنما هي أميال أزيدها! قال مالك: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣][(١)].

ويلحظ من هذه الأمثلة أن هذه المخالفات إنما كانت من منطلق الاحتياط أو الزيادة في الطاعة، ومع ذلك نهاهم العلماء وأمروهم بتعظيم النصوص والوقوف عند حدودها، وهم في ذلك على قاعدة عظيمة في تجريد الاتباع، ذكرها سعيد بن جبير في قوله: «قد أحسن من انتهى إلا ما سمع»[(٢)].

وقال سفيان: «إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل»[(٣)]. وقال البخاري: «ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت...»[(٤)]، يعني من غير دليل من السنة.

وقال رحمه الله: «كان الأئمة بعد رسول الله ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداءً بالنبي ﷺ»[(٥)].

وبسبب هذه المنزلة العظيمة للسنة اهتم بها أهل السنة والجماعة اهتماماً بالغاً، علماً وعملاً، وحرصوا على حفظها ونقلها، وقاموا بتنقيحها وتمييز صحيحها من مكذوبها وخاصة بعد ظهور الفتن وانتشار البدع وفشو الكذب ولهذا قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف»[(٦)].

---

(١) الفقيه والمتفقه (١/ ١٤٨) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٩٩).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي والسامع (١/ ١٤٢).

(٤) شرح النووي للبخاري (ص١٦٩).

(٥) صحيح البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٣٩).

(٦) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ١٢- ١٣).

وقال ابن سيرين التابعي الجليل: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم»(١).

وقال الإمام مالك: «إن هذا العلم إنما هو لحمك ودمك، وعنه تسأل يوم القيامة فانظر عمن تأخذه»(٢).

وقد رسم أئمة الحديث منهجاً علمياً متميزاً في ضبط أصول الرواية وتقعيد قواعدها فهم المرجع في التثبت من الرواية، لذا ينبغي على طالب العلم ألا يعمل بحديث أو يستدل به حتى يقف على ثبوته وصحته. وقد يسرت الآلة الحديثة البحث والتثبت، ولله الحمد، ومن ذلك كما يأتي.

(١) المصدر نفسه (١/ ١٥).

(٢) المحدث الفاصل (ص٤١٦) والكفاية (ص٣٨).

واجبنا نحو أصحاب رسول الله ﷺ وآله الكرام

ومن تعظيمنا لرسول الله ﷺ يجب علينا أن نعرف قدر من صحب رسول الله ﷺ وآزره ونصره وآواه وجاهد معه وحمل لواء الدعوة معه وبعده ونشر الدين ودافع عنه، ومن أمرنا ﷺ بمعرفة حقهم وقدرهم ومحبتهم والذب عن أعراضهم، وهم الصحابة الكرام وآل بيته وأزواجه رضوان الله تعالى عنهم أجمعين، فمن الواجب علينا:

أولاً: معرفة حق الصحابة الكرام وعظيم مقامهم ووجوب محبتهم وموالاتهم:

وقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه الكريم في مواضع كثيرة، قال سبحانه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] وهذه تزكية لعقيدتهم.

ووصفهم الله تعالى بالصفات الحميدة فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وحكى جهادهم ودعوتهم وذكر نصرتهم للدين، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

كما أثنى عليهم النبي ﷺ وأوصى بهم خيرًا فقال ﷺ: «النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»(١).

(١) أخرجه مسلم (ح: ٢٥٣١).

وقال ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»(١).

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه؛ فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه»(٢).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كان مستنًا فليستن بمن قد مات؛ أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرُها قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشهبوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدي المستقيم»(٣).

ثانيًا: معرفة مراتبهم ومنازلهم:

والصحابة رضوان الله عليهم ليسوا بمنزلة واحدة بل هم على مراتب في الفضل والمنزلة وأولى الصحابة في الثناء عليهم ومدحهم هم أمراؤهم الخلفاء الراشدون المهديون الذين أثنى عليهم رسول الله ﷺ وشهد لهم بالجنة وأمر المسلمين بالاقتداء بهم والاستنان بسنتهم فقال ﷺ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ...»(٤).

وقال في حق شيخهم ومقدمهم وأفضلهم أبي بكر الصديق: «**لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخي وصاحبي**»(٥) وقال في الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «ثم تناولها ابن الخطاب ــ أي الدلو ــ فاستحالت غربًا، فلم أر عبقريًا يفري فرية حتى ضرب الناس بعطن»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (ح: ٢٦٥١)، ومسلم (ح: ٢٥٣٥).

(٢) أخرجه الطيالسي وأحمد وغيرهما بسند حسن. ينظر تخريج الألباني لشرح الطحاوية (ص٤٧٠).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦) وأبو داود (٤/ ٢٠٠) والترمذي (٥/ ٤٤) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (ح: ٢٧٣٥).

(٥) أخرجه البخاري (ح: ٣٦٥٦) ومسلم (ح: ٦١٧٢).

(٦) أخرجه البخاري (ح: ٣٦٦٤) ومسلم (ح: ٦١٦٢).

وقال في حق عثمان ذي النورين رضي الله تعالى عنه: «**ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم**»(١)، وقال في حق علي أبي السبطين رضي الله تعالى عنه: «**لأعطين الراية غدًا رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»(٢).

يليهم بقية العشرة، ثم أصحاب بدر وعددهم (٣١٩) ثم أهل بيعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] وعددهم (١٤٠٠) ثم بقية المهاجرين والأنصار ثم من أسلم قبل الفتح كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ﴾ [الحديد: ١٠] وقال في حقهم جميعًا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] فهذا وعد إلهي بالحسنى ــ وهي الجنة ــ لجميع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من أسلم من قبل الفتح أو بعده.

ثالثًا: محبة أهل بيت رسول الله، وتوليهم ومعرفة حقوقهم، وحفظ وصية رسول الله ﷺ فيهم حين قال: «**أذكركم الله في أهل بيتي**»(٣) وقال لعمه العباس حين اشتكى أن بعض قريش يجفوا بني هاشم فقال ﷺ: «**والذين نفسي بيده لا يدخل قلب أحدكم الإيمان حتى يحبوكم لله ولرسوله**»(٤)، ومعناه: «لا يتم إيمان أحد حتى يحب أهل بيت رسول الله ﷺ؛ لله أولاً؛ لأنهم من أوليائه وأهل طاعته الذين تجب محبتهم وموالاتهم فيه، ومن كان عاصيًا خرج من هذه المحبة بحسب معصيته، وثانيًا: لمكانتهم من رسول الله ﷺ واتصال نسبهم به ﷺ، ولذا قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: «والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي»(٥).

فعلى من شرَّفه الله بهذا النسب والقرابة أن يراعي الله تعالى في هذه القرابة بأن يكون قدوة لغيره في الاستقامة والالتزام بسنة جده ﷺ والتواضع، وألا يحمله ذلك على التكبر وازدراء

---

(١) أخرجه الترمذي (ح: ٣٧٠١) وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه البخاري (ح: ٣٧٠٢) ومسلم (ح: ٢٤٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (ح: ٦٢٢٥).

(٤) أخرجه الترمذي (ح: ٣٧٥٨) وقال: حسن صحيح.

(٥) أخرجه البخاري (ح: ٣٧١٢) ومسلم في صحيحه (ح: ٤٥٨٠) في حديث طويل.

الناس.

وهم البطون الأربعة الذين ذكرهم النبي ﷺ في حديث زيد بن أرقم: «آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس»(١) وهم الذين تحرم عليهم الصدقة ـ يعني الزكاة ـ لأنها من أوساخ المال. ويلحق بهم بنو المطلب لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد**»(٢).

رابعًا: محبة أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن، وهن أزواجه ﷺ في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٦] خصوصًا: خديجة رضي الله تعالى عنها أم أكثر أولاده، وأول من آمن به وعاضده على أمره وكان لها منه المنزلة العالية.

والصديقة بنت الصديق رضي الله تعالى عنها التي قال فيها ﷺ: «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»(٣).

وبقيتهن: سودة بنت زمعة، وحفصة بنت عمر، وزينب بنت خزيمة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وجويرية الخزاعية، وريحانة بنت زيد القرظية، وأم حبيبة بنت سفيان، وصفية بنت حيي النضيرية، وميمونة بنت الحارث.

خامسًا: بيان أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كلهم عدول.

وذلك لثناء الله تعالى عليهم وتعديله لهم وتعديل رسوله ﷺ كما تقدم.

وقد حكى ابن الصلاح الإجماع على ذلك فقال: «ثم إن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة، ومن لابس الفتنة منهم»(٤).

كما حكاه النووي رحمه الله بقوله: «الصحابة كلهم عدول، من لابس الفتن وغيرهم بإجماع من يعتد به»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (ح: ٦٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (ح: ٣١٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (ح: ٣٧٧٠) ومسلم (ح:٦٢٩٩).

(٤) الحديث والمحدثون (ص١٢٩).

(٥) تقريب النواوي مع شرحه تدريب الراوي (ص٢١٤).

ومع القول بعدالتهم فلا يعني ذلك عصمة كل واحد منهم من الذنوب التي قد تقع منهم إما عن غير قصد أو عن اجتهاد. فالعصمة لا تكون إلا للأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم، لكن لهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم من ذنوب. وما روي من آثار في مساوئهم ومثالبهم فهي على ثلاثة أنواع:

أ ـ قسم منها كذب محض: وهو مما دس في كتب التاريخ من أعدائهم.

ب ـ وقسم له أصل، لكن زيد فيه ونقص، وحرّف عن وصفه الطبيعي والصحيح بسبب الأهواء.

جـ ـ وقسم منها صحيح، وما كان منها كذلك فهم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون أو مجتهدون مخطؤون(١).

سادسًا: الإمساك عما شجر بينهم.

وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ـ بناء على ما تقدم ـ، فلا نفرض أنفسنا حكامًا بين صحابة رسول الله ﷺ وإنما نقول كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

ونقول كما أمرنا الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فهذه الآية تقتضي أمران:

١ـ سلامة الألسنة وإمساكها عما جرى بينهم.

٢ـ سلامة القلوب وتطهيرها من الغل والبغض لأحد منهم رضوان الله عليهم أجمعين.

ولهذا قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون؛ ودواء العيون ترك مَسِّها»(٢). وعندما سئل عن القتال الذي حصل بين علي ومعاوية رضي الله تعالى عنهما قال: «تلك دماء طهر الله منها يدي، أفلا أطهر لساني؟!»(٣).

---

(١) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية مع شرح الهراس (ص١٤٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٢٢).

(٣) المرجع نفسه (١٦/ ١٢٢).

وسئل الإمام أحمد عن ذلك القتال فقال: «ما أقول إلا الحسنى، رحمهم الله أجمعين»(١).

سابعًا: تحريم سبهم والطعن في احد منهم وخطورة ذلك.

وقد جاء ذلك صريحًا في العديد من أحاديث النبي ﷺ.

فقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»(٢). وقال ﷺ: «**من سبّ أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»(٣).

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ في الأنصار: «**لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه لله**»(٤).

وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره»(٥).

وقيل لأم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: «إن ناسًا يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر؟ فقالت: ما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فأحب الله تعالى ألا يقطع عنهم الأجر»(٦).

ومن وقع في سبهم فقد وقع في إثم كبير والعياذ بالله، بل هو من علامات النفاق والزندقة كما تقدم، وقد يصل في بعض صوره إلى الكفر والعياذ بالله قال القاضي أبو يعلى: «من قذف عائشة بما برأها الله منه كفر بلا خلاف، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم»(٧).

وقال أبو بكر المروزي: سألت أبا عبد الله ــ يعني أحمد بن حنبل ــ عمن يشتم أبا بكر

---

(١) السنة للخلال (٢/ ٤٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (ح: ٣٦٧٣) ومسلم (ح: ٢٥٤٠).

(٣) أخرجه الطبراني، وحسنه الألباني في الصحيحة (ح: ٢٣٤٠).

(٤) أخرجه الترمذي (ح: ٣٩٠٠) وقال: حديث صحيح، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٥٤١).

(٥) أخرجه ابن ماجه (ح: ١٦٢)، وابن أبي عاصم في السنة بإسناد صحيح.

(٦) منهاج السنة (٢/ ٢٢).

(٧) الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ (ص٥٦٥، ٥٦٦) وينظر: الشفاء في جفون المصطفى ﷺ (ص٢٩٩.

وعمر وعائشة؟ فقال: ما أراه على الإسلام»[١].

وقال الإمام أحمد: إذا رأيت رجلاً يذكر أصحاب رسول الله ﷺ بسوء فاتهمه على الإسلام»[٢].

ولذا قال أبو زرعة الرازي: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا، وهم زنادقة»[٣].

وذلك لأن القدح فيهم يترتب عليه:

١- القدح في رسول الله ﷺ؛ لأنهم جلساؤه ووزراؤه وأمناؤه، فالقدح فيهم قدح فيه ﷺ.

٢- القدح في الشريعة؛ لأنهم هم حملة الشريعة ونَقَلتها عن النبي ﷺ.

٣- القدح في الله تعالى؛ لأنهم في زعمهم أن الله تعالى ما اختار لنبيه ﷺ إلا شرار الخلق.

ونختم بما ذكره الإمام الطحاوي رحمه الله في وصف عقيدة أهل السنة والجماعة بقوله رحمه الله عن الصحابة: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»[٤].

❀❀❀❀❀❀❀

(١) السنة للخلال (٣/ ٤٩٣).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧/ ١٢٥٢).

(٣) الكفاية في علم الرواية (ص٦٧).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٦٨٩).

القسم الرابع: الاجماع والقياس والاجتهاد والفتوى

بعد أن تعرفنا على المصدرين الأصليين للتشريع الإسلامي وهما الكتاب والسنة، بقي أن نتعرف على المصدر الثالث والرابع من مصادر التشريع الإسلامي: الإجماع والقياس.

المصدر الثالث: الإجمـــاع

تعريفه لغة: يطلق على أحد معنيين: الأول العزم على الأمر، والتصميم عليه، ويؤيد العزم قوله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ [يونس: ٧١]. بمعنى: اعزموا، والثاني: الاتفاق، يقال: أجمع القوم على كذا وكذا، أي: صاروا ذوي جمع ومنه قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ [يوسف: ١٠٢][(١)].

واصطلاحاً: هو اتفاق المجتهدين من أمة محمد ـ ﷺ ـ بعد وفاته في عصر من العصور على أمر من الأمور الشرعية[(٢)].

أدلة الإجماع من الكتاب والسنة والآثار:

يعد الإجماع حجة شرعية يجب العمل به، وتحرم مخالفته، وهو من خصائص الأمة الإسلامية.

والأدلة على حجيته:

١) **من الكتاب** قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وجه الاستدلال بهذه الآية أن الله توعد من اتبع غير سبيل المؤمنين فدل على أنه حرام؛ فيكون اتباع سبيل المؤمنين واجباً، إذ ليس هناك قسم ثالث بين اتباع سبيل المؤمنين واتباع غير سبيل المؤمنين.

ولا يصح في هذه الآية أن يكون الذم لاحقاً لمشاقة الرسول ـ ﷺ ـ فقط، أو لاتباع غير سبيل المؤمنين فقط، فإن ذلك باطل قطعاً؛ لئلا يكون ذكر الآخر لا فائدة فيه.... بقي القسم الآخر وهو أن كلاً من الوصفين يقتضي الوعيد؛ لأنه مستلزم للآخر، كما يقال مثل ذلك في

---

(١) انظر: لسان العرب (٨/ ٥٨) مادة جمع.

(٢) انظر: التعريفات/ للجرجاني ج١٠.

معصية الله تعالى، ومعصية والرسول ﷺ[١].

٢) وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فقوله: والوسط: العدل الخيار، وقد جعل الله هذه الأمة شهداء على الناس، ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء الله في الأرض، وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول ﷺ وتشمل الشهادة على أعمالهم وعلى أحكام أعمالهم، والشهيد قوله مقبول[٢].

٣) ومن السنة: قوله ﷺ: «لن تجتمع أمتي على الضلالة أبداً، فعليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة»[٣]. وفي رواية «إِنَّ اللهَّ لاَ يَجْمَعُ أُمَّتِي ـ أَوْ قَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ عَلَى ضَلاَلَةٍ وَيَدُ اللهِّ مَعَ الْجَمَاعَةِ»[٤].

وقوله ﷺ: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع»[٥].

٤) ومن الآثار: فقد وردت بعض الأمثلة على حجية الإجماع من فعل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومنها:

أ) عن ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به فإن لم يكن في الكتاب، وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى بها، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع عليه النفر على أمر يذكر فيه عن رسول الله ﷺ قضاءً فإن أعياه ولم يجد فيه سنة عن رسول الله ﷺ جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم، فإن أجمع رأيهم على شيء قضى به[٦].

ب) وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستشير الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع فقهه، حتى كان إذا

---

(١) ينظر: معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة ص ١٦٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٩/ ١٧٧ ـ ١٧٨، والأصول من علم الأصول ص٦٥. ومعالم أصول الفقيه: ١٦١.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج١٢ ـ ص٤٤٧. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٥/ ٢٦٣ رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح خلا مرزوق مولى آل طلحة وهو ثقة.

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) وصححه الألباني.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) وصححه الألباني.

(٦) أخرجه الدارمي: ١ / ٦٩ قال حسين أسد: رجاله ثقات غير أن ميمون بن مهران لم يدرك أبا بكر فالإسناد منقطع.

رفعت إليه حادثة، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ادعو لي علياً، وادعوا لي زيداً، فكان يستشيرهم، ثم يفصل بما اتفقوا عليه[١].

أنواع الإجماع:

الإجماع نوعان: قطعي وظني.

١ ـ فالقطعي: ما يعلم وقوعه من الأمة بالضرورة كالإجماع على وجوب الصلوات الخمس، وتحريم الزنى، وهذا النوع لا أحد ينكر ثبوته ولا كونه حجة، ويكفر مخالفه إذا كان ممن لا يجهله.

٢ ـ والظني: ما لا يعلم إلا بالتتبع والاستقراء. وقد اختلف العلماء في إمكان ثبوته، وأرجح الأقوال في ذلك أن (الإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة)[٢].

واعلم أن الأمة لا يمكن أن تجمع على خلاف دليل صحيح صريح غير منسوخ، فإنها لا تجمع إلا على حق، وإذا رأيت إجماعاً تظنه مخالفاً لذلك، فانظر فإما أن يكون الدليل غير صحيح، أو غير صريح، أو منسوخاً، أو في المسألة خلاف لم تعلمه[٣].

شروط الإجماع:

للإجماع شروط منها:

١- أن لا يعارضه نص من القرآن، أو السنة، أو إجماع سابق.

٢- أن يستند إلى دليل شرعي، وإن لم يصلنا الدليل.

٣- أنه لا بد من وجود عدد من المجتهدين، ولا بد من اتفاقهم في المسألة؛ فإذا خالف البعض لم يكن إجماعاً إذا كان هذا المخالف ممن تحققت فيه شروط الاجتهاد[٤].

٤- أن يثبت بطريق صحيح، بأن يكون إما مشهوراً بين العلماء، أو ناقله ثقة واسع الاطلاع.

---

(١) مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه، (ص١٦٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٣/ ١٥٧.

(٣) الأصول من علم الأصول لابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، ص٦٥ ـ ٦٦.

(٤) شرح المعتمد للدكتور محمد الحبش: ١/ ٥٠.

٥- ألا يسبقه خلاف مستقر، فإن سبقه ذلك فلا إجماع، لأن الأقوال لا تبطل بموت قائليها.

فالإجماع لا يرفع الخلاف السابق، وإنما يمنع من حدوث خلاف، هذا هو القول الراجح لقوة مأخذه، وقيل: لا يشترط ذلك فيصح أن ينعقد في العصر الثاني على أحد الأقوال السابقة(١).

حكم الإجماع:

اتفق أهل السنة والجماعة على أن الإجماع حجة قطعية ـ على من بعده، ـ لدى توافر شروطه ولم ينازع في ذلك أحد يعتد برأيه(٢).

(١) الأصول من علم الأصول للشيخ ـ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله ص٦٦.

(٢) شرح المعتمد: ١/ ٥٠. والأصول من علم الأصول لابن عثيمين ص٦٧.

المصدر الرابع: القياس

تعريفه لغة واصطلاحاً:

لغة: التقدير والمساواة[١].

واصطلاحاً: إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة بينهما، فالفرع: المقيس، والأصل: المقيس عليه، والحكم: ما اقتضاه الدليل الشرعي من وجوب أو تحريم أو صحة أو فساد أو غيرها، والعلة: المعنى الذي يثبت بسببه حكم الأصل، وهذه الأربعة أركان القياس[٢].

مثاله: شرب الخمر محرم بالنص وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. فيقاس عليه تحريم أي مسكر آخر لتساويهما في علة التحريم. فالأصل: الخمر والفرع: أي مسكر آخر، والحكم التحريم، والعلة: الإسكار في كل.

أدلة القياس:

وقد دل على اعتباره دليلاً شرعياً: الكتاب والسنة وأقوال الصحابة.

ومن أدلة الكتاب قوله تعالى:

أ ـ ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] فقد ذكر الله سبحانه ما لقي اليهود بسبب خيانتهم لله ولرسوله، قال (فاعتبروا) أي قيسوا أنفسكم بهم.

ب ـ وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]. فشبه الله تعالى إعادة الخلق بابتدائه، وشبه إحياء الأموات بإحياء الأرض، وهذا هو القياس[٣].

٢ ـ ومن السنة: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ أُخْتِي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ وَإِنَّهَا مَاتَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَوْ كَانَ عَلَيْهَا دَيْنٌ أَكُنْتَ قَاضِيَهُ؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ «**فَاقْضِ اللَّهَ فَهُوَ أَحَقُّ بِالْقَضَاءِ**»[٤].

---

(١) انظر: لسان العرب ج٦ ص١٨٧.

(٢) الأصول من علم الأصول ـ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله ص٦٨.

(٣) الأصول من علم الأصول ص٦٨.

(٤) أخرجه البخاري(٦٦٩٩). ومسلم(١١٤٨).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلاَماً أَسْوَدَ، فَقَالَ: «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**مَا أَلْوَانُهَا؟**» قَالَ حُمْرٌ قَالَ: «**فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟**» قَالَ: نَعَمْ قَالَ «**فَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ؟**» قَالَ: أُرَاهُ عِرْقٌ نَزَعَهُ قَالَ: «**فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ**»(١) ولم يرخص له في الانتفاء منه.

٣ ـ ومن أقوال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ما جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابه إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في القضاء قال: «ثُمَّ الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ مِمَّا لَيْسَ فِي قُرْآنٍ وَلاَ سُنَّةٍ ثُمَّ قَايِسِ الأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَاعْرِفِ الأَمْثَالَ وَالأَشْبَاهَ ثُمَّ اعْمِدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهَّ فِيمَا تَرَى وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقّ»(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا كتاب جليل تلقاه العلماء بالقبول وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة والحاكم والمفتي أحوج شيء إليه وإلى تأمله والتفقه فيه»(٣).

وقال المزني رَحِمَهُ اللَّهُ: الفقهاء من عصر الرسول ﷺ إلى يومنا وهلم جرا استعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم، وأجمعوا على أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فلا يجوز لأحد إنكار القياس؛لأنه التشبيه للأمور والتمثيل عليها(٤).

فثبت بالأدلة الشرعية أن القياس مصدر من مصادر التشريع(٥).

أمثله على القياس:

فمن القياس المجمع عليه:

١ ـ صيد ما عدا الكلاب من الجوارح قياساً على الكلاب لقوله ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤].

٢ ـ وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤] فدخل في ذلك المحصنون قياساً.

٣ ـ وقال تعالى: في حق الإماء ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى

---

(١) أخرجه البخاري (برقم ٤٨٤٧) ومسلم (١٥٠٠).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٥٠)، وانظر: سنن الدارقطني (٥/ ٣٦٨)، وإعلام الموقعين لابن القيم: ١/ ٨٢، و١/ ١٢٦.

(٣) إعلام الموقعين(١/ ٨٦).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٤٠)، وإعلام الموقعين(١/ ٢٠٥).

(٥) أصول الفقه لمحمد أبو زهرة: ص ٢٠٧ وما بعدها.

ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النساء: ٢٥] فدخل في ذلك العبيد قياساً عند الجمهور.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]دخل في ذلك الكتابيات قياساً فكل من تزوج كتابية وطلقها قبل المسيس لم يكن عليها عدة(١).

أركان القياس:

للقياس أربعة أركان هي: الأصل، والفرع، والعلة، والحكم(٢).

١ ـ الأصل، وهو المسألة المقيس عليها. هذا في الاصطلاح الأكثر استعمالا، ولكن قد يطلق الأصل على الدليل المثبت للحكم، وقد يطلق على الحكم نفسه.

٢ ـ الفرع، وهو الصورة المقيسة، أو المراد إثبات حكمها بالقياس.

٣ ـ الحكم، وهو حكم الشرع الذي ثبت في الأصل، سواء أكان تحريما أم وجوبا أم إباحة أم غير ذلك.

٤ ـ العلة، وهي الوصف الذي يشترك فيه الأصل والفرع، ويغلب على الظن أنه مناط الحكم ومتعلقه(٣).

شروط العلة:

١ ـ أن يكون وصفاً ظاهراً لا خفياً، مثل الإسكار علة لتحريم الخمر، وكون العبد لا يجبر على ابتداء النكاح يعلل به عدم إجباره على فسخه، وكون العبد يصح نكاحه يستدل به على صحة طلاقه وظهاره، وكون الوضوء قربة فيستدل به على اشتراط النية فيه.

٢ ـ أن يكون الوصف منضبطاً، أي: لا يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والأمكنة اختلافاً كبيراً.

٣ ـ أن يكون الوصف متعدياً، أي: يوجد في غير الأصل كوجوده في الأصل، فإن كان الوصف المعلل به قاصراً، أي: لا يتعدى محل الأصل الذي ثبت حكمه بالنص فتسمى العلة القاصرة(٤).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٦٧) بتصرف. وإعلام الموقعين عن رب العالمين(١/ ٢٠٥).

(٢) إرشاد الفحول: ٢/ ١٠٤، وأصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله للدكتور عياض بن نامي السلمي ١/ ١٠.

(٣) أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله: ١/ ١٠٤.

(٤) أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله: ١/ ١٠٨ ـ ١١٢.

الاجتهاد

تعريف الاجتهاد لغة واصطلاحاً:

الاجتهاد لغة: بذل الوسع في طلب الأَمر، وهو افتعال من الجهد وهو الطاقة. ولهذا يقال اجتهد في حمل الحجر إذا بذل مجهوده فيه، ولا يقال اجتهدت في حمل النواة(١).

والاجتهاد في الاصطلاح: استفراغ الفقيه الوسع ليحصل له ظن بحكم شرعي، وبذل المجهود في طلب المقصود من جهة الاستدلال(٢).

مشروعيته، وما يجوز الاجتهاد فيه وما لا يجوز:

لقد اجتهد الصحابة الكرام في حياة رسول الله ﷺ، واستنبطوا الأحكام؛ وذلك انطلاقاً من تشجيع النبي الكريم ﷺ لهم حيث قال: «**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»(٣).

وقد اجتهد الصحابة في زمن النبي ﷺ في كثير من الأحكام ولم يعنفهم كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر في بني قريظة فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأَحْزَابِ «**لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**» فَأَدْرَكَتهم الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ واحداً مِنْهُمْ(٤). فمن صلاها في الطريق اجتهدوا وقالوا لم يرد منا التأخير وإنما أراد سرعة النهوض فنظروا إلى المعنى، واجتهد الآخرون وأخروها إلى بني قريظة فصلوها ليلاً، نظروا إلى اللفظ(٥).

وتنقسم الأحكام الشرعية بالنسبة لجواز الاجتهاد وعدمه إلى قسمين:

القسم الأول: مالا يجوز الاجتهاد فيه: وهي الأحكام التي جاءت نصوص الشرع في الكتاب والسنة مبينة لها، مثل حرمة الربا والزنا ووجوب الصلاة والزكاة وغيرها من

---

(١) لسان العرب: ٣/ ١٣٣، والفروق اللغوية: ١/ ٤٣٩.

(٢) التعريفات للجرجاني: ص ٢٣. والمعجم الوسيط: ١/ ١٤٢.

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦).

(٤) متفق عليه، البخاري (رقم ٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

(٥) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٣).

الأحكام، وكذلك الأحكام الشرعية التي مستندها الإجماع، سواءٌ كان مستنده دليلاً قطعياً، أو ظنياً كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها.

القسم الثاني: ما يجوز الاجتهاد فيه من الأحكام: وهي الأحكام التي لم يرد فيها نصٌ قطعي الدلالة، أو إجماع، وهي على نوعين:

النوع الأول: الأحكام الشرعية التي دل عليها دليلٌ مختلفٌ في صحته، وقد يكون الدليل يحتمل أكثر من معنى مثل القرء في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فإن القرء يحتمل الحيض ويحتمل الطهر.

النوع الثاني: المسائل التي لم يرد في حكمها نصٌ من الكتاب أو السنة، وهي المسائل المستحدثة، وهي يتسع المجال للاجتهاد فيها عن طرق القياس، أو الأدلة الأخرى كعمل أهل المدينة، أو عمل الصحابة، أو العرف، بحسب اجتهاد المجتهد.

شروط المجتهد:

ربط العلماء شروط المفتي بشروط المجتهد وأنه لا فرق بين الفقيه والمجتهد والمفتي، وقد تحدث بعض العلماء المتأخرين والمتقدمين على هذه الشروط وغالبهم يدور حول شرطين أساسين ذكرهما الإمام الشاطبي رحمه الله في كتابه الموافقات حيث قال: إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين:

أحدهما: فهم مقاصد الشريعة على كمالها.

والثاني: التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها(١).

الشروط اللازمة لصحة الاجتهاد، مايرجع منها إلى المجتهد ومايرجع إلى المسائل المجتهد فيها.

أما الشروط اللازم توفرها في المجتهد فيمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً: أن يحيط بمصادر الأحكام وهي: الكتاب والسنة والإجماع، والقياس والاستصحاب، وغيرها من الأدلة التي يمكن اعتبارها. وأن تكون لديه معرفة بمقاصد الشريعة، والمعتبر في ذلك أن يعرف من الكتاب والسنة ما يتعلق بالأحكام، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، ومواقع الإجماع والخلاف، وصحيح الحديث وضعيفه.

---

(١) الموافقات، للشاطبي، ٥/ ٤٣٣.

ثانياً: أن يكون عالماً بلسان العرب، ويكفي في ذلك القدر اللازم لفهم الكلام.

ثالثاً: أن يكون عارفاً بالعام والخاص، والمطلق والمقيد، والنص والظاهر والمؤول، والمجمل والمبين، والمنطوق والمفهوم، والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي. ولا يلزمه من ذلك إلا القدر الذي يتعلق بالكتاب والسنة، ويدرك به مقاصد الخطاب ودلالة الألفاظ، بحيث تصبح لديه ملكة وقدرة على استنباط الأحكام من أدلتها.

رابعاً: أن يبذل المجتهد وسعه قدر المستطاع، وألا يقصر في البحث والنظر.

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله كلاماً جميلاً رائعاً حيث قال في شروط الاجتهاد: «ولا يقيس إلا من جمع الأدلة، وهي العلم بأحكام كتاب الله، فرضه وأدبه وناسخه ومنسوخه، وعامه، وخاصه، وإرشاده، ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله ﷺ، فإذا لم يجد سنة فبإجماع المسلمين، فإذا لم يكن إجماع فبالقياس، ولا يكون لأحد أن يقيس، حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن، وأقاويل السلف، وإجماع الناس، واختلافهم، ولسان العرب. وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده، والإنصاف عن نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول، وترك ما يترك»(١).

خامساً: أن يستند المجتهد في اجتهاده إلى دليل، وأن يرجع إلى أصل.

وقد بوب لذلك ابن عبد البر، فقال: «باب اجتهاد الرأي على الأصول عند عدم النصوص في حين نزول النازلة»(٢). وبعد ذكره رحمه الله لبعض الآثار قال: «..... هذا يوضح لك أن الاجتهاد لا يكون إلا على أصول يضاف إليها التحليل والتحريم، وأنه لا يجتهد إلا عالم بها، ومن أشكل عليه شيء لزمه الوقوف، ولم يجز له أن يحيل على الله قولاً في دينه لا نظير له من أصل، ولا هو في معنى أصل.

وهو الذي لا خلاف فيه بين أئمة الأمصار قديماً وحديثاً فتدبر»(٣).

سادساً: أن يكون المجتهد عارفاً بالواقعة، مدركاً لأحوال النازلة المجتهد فيها.

قال الشافعي: «ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل، وحتى يفرق بين

(١) الرسالة، للإمام الشافعي، ص٥٠٩- ٥١١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ١٢٠.

(٣) جامع بيان العلم وفضله: ١٢٣.

المشتبه، ولا يعجل بالقول به، دون التثبيت..... »[١].

وأما الشروط اللازم توفرها في المسألة المجتهد فيها فيمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً: ألا يوجد في المسألة نص قاطع ولا إجماع[٢].

ومما يستأنس به لهذا الشرط حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشهور[٣]؛ إذ جعل الاجتهاد مرتبة متأخرة إذا لم يوجد كتاب ولا سنة. وقد كان منهج الصحابة رضي الله عنهم النظر في الكتاب، ثم السنة، ثم الإجماع، ثم الاجتهاد[٤].

ومعلوم أن الاجتهاد يكون ساقطاً مع وجود النص.

قال الخطيب البغدادي: «باب في سقوط الاجتهاد مع وجود النص»[٥].

وقال ابن القيم: «فصل في تحريم الإفتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص، وسقوط الاجتهاد والتقليد عند ظهور النص، وذكر إجماع العلماء على ذلك»[٦].

ثانياً: أن يكون النص الوارد في هذه المسألة ـ إن ورد فيها نص ـ محتملاً، قابلاً للتأويل، كقوله ﷺ: «**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**»[٧]. فقد فهم بعض الصحابة من هذا النص ظاهره من الأمر بصلاة العصر في بني قريظة ولو بعد وقتها، وفهم البعض من النص الحث على المسارعة في السير مع تأدية الصلاة في وقتها، ولم ينكر ﷺ على الفريقين ما فهم، ولم يعنف الطرفين على ما فعل[٨].

وقد استدل الشافعي على أن الاختلاف مذموم فيما كان نصه بيناً بقوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) الرسالة: ٥١٠.

(٢) مذكرة الشنقيطي ص٣١٤ ـ ٣١٥.

(٣) أخرجه أبو داود: ٣٥٩٤. وأحمد(٥ / ٢٤٢) قال الأرنؤوط: إسناده ضعيف، لإبهام أصحاب معاذ وجهالة الحارث بن عمرو.

(٤) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين: ١/ ٦١ ـ ٦٢و٨٤ ـ ٨٥

(٥) الفقيه والمتفقه: ١/ ٢٠٦. للخطيب البغدادي، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، نشر: دار ابن الجوزي بالسعودية، سنة ١٤١٧هـ.

(٦) إعلام الموقعين: ٢/ ٢٧٩.

(٧) تقدم تخريجه في أول الاجتهاد.

(٨) انظر: مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٤٤.

نَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقد عدَّ ابن تيمية ذلك من أسباب الاختلاف بين العلماء فقال: «.... وتارة يختلفون في كون الدلالة قطعية لاختلافهم في أن ذلك الحديث: هل هو نص أو ظاهر؟ وإذا كان ظاهراً فهل فيه ما ينفي الاحتمال المرجوح أو لا؟»(١).

ثالثاً: ألا تكون المسألة المجتهد فيها من مسائل العقيدة، فإن الاجتهاد والقياس خاصان بمسائل الأحكام على النحو الذي سبق بيانه في القياس(٢).

قال ابن عبد البر: «لا خلاف بين فقهاء الأمصار وسائر أهل السنة ــ وهم أهل الفقه والحديث ـ في نفي القياس في التوحيد وإثباته في الأحكام(٣).

رابعاً: أن تكون المسألة المجتهد فيها من النوازل، أو مما يمكن وقوعه في الغالب والحاجة إليه ماسة. أما استعمال الرأي قبل نزول الواقعة والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات والاستغراق في ذلك، فهو مما كرهه جمهور أهل العلم واعتبروا ذلك تعطيلاً للسنن وتركاً لما يلزم الوقوف عليه من كتاب الله عزَّ وجلّ ومعانيه(٤). وقد نهى ﷺ عن الغلوطات(٥).

فعلم بذلك أن المجتهد لا ينبغي له أن يبحث ابتداء في مسألةٍ لا تقع، أو وقوعها نادر(٦).

حكم الاجتهاد:

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: حكم الاجتهاد على سبيل الإجمال جائز عند الجمهور: قال ابن تيمية:

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٥٩.

(٢) سبق في ص ١٨٥.

(٣) جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ١٥٠.

(٤) انظر: جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ٢٧٢، وإعلام الموقعين: ١/ ٦٩.

(٥) أخرجه أبو داود في العلم: ٨، وأحمد في المسند (٥/ ٤٣٥) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: «ثابت» (١٠/ ٤٢١). والغلوطات: شداد المسائل وصعابها، قال ابن الأثير: «أراد المسائل التي يُغَالط بها العلماء ليزلوا فيها، فيهيج بذلك شر وفتنة» النهاية (٣/ ٣٧٨).

(٦) معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة: ـ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٨.

«والذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة»[١].

المسألة الثانية: حكم الاجتهاد على وجه التفصيل، تعتريه الأحكام الخمسة: فإنه قد يجب، وقد يحرم، وقد يستحب، وقد يكره، وقد يكون مباحاً.

وذلك يختلف بحسب أهلية المجتهد، وحسب نوع المسألة المنظور فيها، وحسب الحاجة إليها، وحسب الوقت[٢].

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٠٣.

(٢) انظر: إعلام الموقعين: ٤/ ١٥٧، و٢٦٦، و معالم أصول الفقه ص٤٨٦.

الفتـــــوى

تعريف الفتوى لغة واصطلاحاً:

تعريفها لغة: مصدر لفعل (أفتى) وهي مأخوذة من فتى، وفتو وهي (الإبانة) يقال أفتاه في الأمر إذا أبانه وأوضحه له(١).

وقد وردت في القرآن الكريم بعدة تصاريف ومن ذلك قوله تعالى في سورة النساء ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ [النساء: ١٢٧].

ومعنى (يفتيكم فيهن): يبين لكم حال ما سألتم عنه وحكمه(٢).

تعريفها اصطلاحاً:

عرفت بعدة تعاريف ولكنها جميعاً تدور حول معنى واحد ومن ذلك أنها: «الإخبار عن حكم الشرع لا على وجه الإلزام»، والمقصود «لا على وجه الإلزام» ليكون ذلك فارقاً بين الفتوى والقضاء فالمفتي يبين الحق للمستفتي ولا يلزمه بذلك وأما القاضي فحكمه ملزم وواجب التنفيذ.

شروط المفتي وصفته وآدابه:

أولاً: شروط المفتي:

أ ـ أن يكون بالغاً عاقلاً.

ب ـ أن يكون عالماً، قد توفرت فيه شروط الاجتهاد السابق ذكرها.

ج ـ أن يكون عدلاً ورعاً، متصفاً بالصدق والأمانة.

قال ابن القيم: «ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ والصدق فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتية إلا لمن اتصف بالعلم والصدق، فيكون عالماً بما يبلغ، صادقاً فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضي السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله»(٣).

د ـ الوسطية والاعتدال في فتواه، فلا إفراط ولا تفريط، إذ (المفتي البالغ ذروة الدرجة

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة فتى، (٤/ ٤٧٤).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان: (٤/ ٨١).

(٣) إعلام الموقعين ١/ ١٠ و ص ٤٠. والفقيه والمتفقه: ٢/ ٣٣، ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة: ص٥٠٩.

هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال، والدليل على صحة هذا أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة فإن مقصد الشارع من المكلف العمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين خرج عن مقصد الشرع؛ ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموماً عند العلماء الراسخين(١).

ثانياً: صفات المفتي:

للمفتي خصال لا بد أن يتحلى بها في نفسه وفي سائر حاله.

قال الإمام أحمد: «لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

أولها: أن تكون له نية، فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور.

الثانية: أن يكون له علم، وحلم، ووقار، وسكينة.

الثالثة: أن يكون قوياً على ما هو فيه، وعلى معرفته.

الرابعة: الكفاية، وإلا مضغه الناس.

الخامسة: معرفة الناس»(٢).

«فإن هذه الخمسة هي دعائم الفتوى، وأي شيء نقص منها ظهر الخلل في المفتي بحسبه»(٣).

ثالثاً: آداب المفتي:

للمفتي آداب ينبغي أن يتحلى بها قبل إصداره الفتوى، وأثناء الفتوى، وبعدها، فمن ذلك:

١ ــ ألا يفتي في مسألة يكفيه غيره إياها، فقد كان السلف ﷺ يتدافعون الفتوى، ويتورعون عن الإفتاء، ويود أحدهم أن يكفيه الجواب غيره، فإذا رأى أنها قد تعينت عليه بذل جهده في معرفة حكمها مستعيناً بالله تعالى(٤).

٢ ـ ألا يتسرع في إصدار الفتوى إن تعينت عليه، بل عليه أن يتأمل وينظر، ولا يبادر إلى

---

(١) الموافقات: ٥/ ٢٧٦.

(٢) إعلام الموقعين: ٤/ ١٩٩.

(٣) إعلام الموقعين: ٤/ ١٩٩. ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة: ص٥٠٩ ـ ٥١٠.

(٤) إعلام الموقعين: ١/ ٣٣. وجامع بيان العلم وفضله: ٢/ ٣١٥.

الجواب إلا بعد استفراغ الوسع، وبذل الجهد، وحصول الاطمئنان(١).

٣ ـ أن يستشير الثقة (إن كان عنده من يثق بعلمه ودينه فينبغي له أن يشاوره ولا يستقل بالجواب ذهاباً بنفسه وارتفاعاً بها أن يستعين على الفتاوي بغيره من أهل العلم.. فقد أثنى الله سبحانه على المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد كانت المسألة تنزل بعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيستشير لها من حضر من الصحابة وربما جمعهم وشاورهم حتى كان يشاور ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو إذا ذاك أحدث القوم سناً.

هذا إذا لم يعارض ذلك مفسدة من إفشاء سر السائل أو تعريضه للأذى، أو مفسدة لبعض الحاضرين فلا ينبغي له أن يرتكب ذلك،.. فالمفتي.. يطلع من أسرار الناس وعوراتهم على ما لا يطلع عليه غيره، فعليه استعمال الستر فيما لا يحسن إظهاره)(٢).

فإن المفتي مؤتمن: وعليه أن يحفظ أسرار الناس، وأن يستر ما اطلع عليه من عوراتهم.

٤ ـ إذا تساوى عند المفتي قولان أو لم يعرف الحق منهما فلم يتبين له الراجح من القولين فالأظهر أنه يتوقف ولا يفتي بشيء(٣).

٥ ـ للمفتي أن يدل المستفتي على عالم غيره، لكن على المفتي أن يتقي الله ويرشده إلى رجل سُنة، ليكون معيناً على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان(٤).

وهذه الدلالة وذلك التوقف إنما يجوز بالتفصيل الآتي:

٦ ـ إذا كانت الفتوى مخالفة لغرض السائل فإن على المفتي أن يفتي بالحق الذي يعتقده، ولا يسعه أن يتوقف في الإفتاء به إذا خالف غرض السائل؛ فإن ذلك إثم عظيم، وكيف يسعه من الله أن يقدم غرض السائل على الله ورسوله ـ ﷺ ـ، ولا يجوز له أيضاً أن يدله على مفتٍ أو مذهبٍ يكون غرضه عنده(٥).

٧ ـ ذكر الدليل والتعليل، فإن جمال الفتوى وروحها هو الدليل، وقول المفتي إذا ذكر

(١) انظر: إعلام الموقعين: ١/ ٣٣، ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة: ص ٥١٠.

(٢) إعلام الموقعين: ٤/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧ بتصرف.

(٣) انظر: إعلام الموقعين: ٤/ ٢٣٨.

(٤) إعلام الموقعين: ٤/ ٢٠٧.

(٥) إعلام الموقعين: ٤/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

معه الدليل حجة يحرم على المستفتي مخالفتها، ويبرئ المفتي من عهدة الإفتاء بلا علم، ومن تأمل فتاوى النبي ـ ﷺ ـ الذي قوله حجة بنفسه رآها مشتملة على التنبيه على حكمة الحكم، ووجه المشروعية.

ومن هنا وجب على المستفتي ما يأتي:

١ ـ التحري فيمن يسأل، وأخذ الحيطة عند حاجته في السؤال عن حكم شرعي، أو نازلة، وعدم الاندفاع وسؤال من ليسوا أهلاً للفتيا.

٢ ـ أن يسأل عن دينه ومعاشه، ويبتعد عن الجدال والأغلوطات والغرائب.

٣ ـ أن يتأدب مع المفتي ويجله في خطابه وسؤاله.

٤ ـ يجب على السائل والمستفتي أن يعرض قضيته بوضوح ولا يخفي من عناصرها ما له أثر في توجيه الفتوى، فالمفتي كالقاضي هنا يحكم بحسب الظاهر، وقد حذر النبي ﷺ من التدليس في قوله: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا**»(١).

الاجتهاد الجماعي والمجامع الفقهية:

لقد وصف الله سبحانه المسلمين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وهذا كان دأب النبي ﷺ مع صحابته، فقصة نزولهم في غزوة بدر، وكذا حفر الخندق وغيرهما، وسار الصحابة على ذلك. قال المسيب بن رافع: (كَانَوا إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ قَضِيَّةٌ لَيْسَ فِيهَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أَثَرٌ اجْتَمَعُوا لَهَا وَأَجْمَعُوا، فَالْحَقُّ فِيمَا رَأَوْا فَالْحَقُّ فِيمَا رَأَوْا)(٢).

فإذا كان هذا في عصر الصحابة، ففي عصرنا تزداد الحاجة إليه أكثر لقلة العلماء المجتهدين، وتنوع مجالات المعرفة، وتنوع مجالات النوازل الفقهية، ومن هنا أصبح الاجتهاد الجماعي ضرورة ملحة وحاجة أكيدة؛ لأنه أكثر دقة، وأقرب إلى مقصود الشارع الحكيم، ولهذا تأسست في هذا العصر العديد من المجامع الفقهية، ومن أقدمها:

١ ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بالقاهرة (تأسس عام ١٣٨١هـ).

٢ ـ مجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة (تأسس عام

---

(١) متفق عليه، البخاري (برقم ٢٦٨٠) ومسلم (برقم ٤٥٧٠).

(٢) رواه الدارمي (برقم ١١٥) قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف هشيم مدلس وقد عنعنه وباقي رجاله ثقات.

١٣٨٤هـ).

٣ ـ هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية (تأسست عام ١٣٩١هـ).

٤ ـ مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة التعاون الإسلامي (المؤتمر الإسلامي سابقاً) في جدة (تأسس عام ١٤٠١هـ).

على أن تبقى جهود الاجتهاد الفردية، والبحوث الأصلية المحققة التي يكتبها أفراد مجتهدون هي التي تنير طريق الاجتهاد الجماعي من خلال المناقشات والوصول إلى أقرب الأحكام إلى مقاصد الشرع الحنيف.

القســم الخامس: دراس عشر أحاديث

تتضمن هذه الدراسة عشرة أحاديث صحاح تتناول أصول الدين وفروعه، بشمول وإجمال، وذلك كالآتي:

١ـ وفيها ما يعرف بأصول الدين علماً وعملاً، إيماناً وإسلاماً وإحساناً وعبادة وتقوى وإخلاصاً.

٢ـ في هذه الأحاديث ما يعرف بالله سبحانه وتعالى، عظمته وسلطانه وغناه المطلق، بإزاء فاقة الخلق كلهم إليه، وتفرده بالربوبية والألوهية، وأن كل شيء بقدره وقضائه النافذ، وأن الخلق لا يستطيعون نفع أحد بشيء، أو ضر أحد بشيء، ولو اجتمعوا عن آخرهم إن لم يكن مما كتبه سبحانه وتعالى .

٣ـ وفيها ما يعرف بالحلال والحرام وما بينهما من حدود وحمى وتخوم، وكيف يستبرئ المرء لدينه وعرضه.

٤ـ وفيها ما يصحح مفهوم الخير والشر على الحقيقة، لا على ما يظنه الناس خيراً.

٥ـ وفيها ما يعرف بالميزان الذي تقبل به الأعمال أو ترد، وبما يدخل في الدين، وبما ليس منه..

٦ـ وفيها ما يعرف بقيمة العلم والحرص عليه، ومن المنتفع به والنافع به، أو المحروم منه وهو بين يديه .

٧ـ وفيها ما يعرف بمسؤوليات المسلم وتبعاته تجاه الدعوة إلى الهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٨ـ وختمت هذه الأحاديث بحديث حرمة البلد الحرام، ليعرف طالب العلم من خلاله بعضاً من أحكام هذا البلد الذي يقيم فيه المنتسب إلى جامعة أم القرى

وتشمل الدراسة دراسة كل حديث في مبناه ومعناه ودلالاته وشيء من عبره وفوائده.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحديث الأول: الأعمال بالنيات

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

ترجمة راوي الحديث:

هو: عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى العدوي، أبو حفص المدني، أحد فقهاء الصحابة، ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأول من سمي أمير المؤمنين، شهد بدراً والمشاهد إلا تبوك، وولي أمر الأمة بعد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفتح في أيامه عدة أمصار. أسلم بعد أربعين رجلاً. عن ابن عمر مرفوعاً: أن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه(٢)، ولما دفن قال ابن مسعود: «إني لأظن عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم»(٣). استشهد في آخر سنة ثلاث وعشرين ودفن في أول سنة أربع وعشرين وهو ابن ثلاث وستين، وصلى عليه صهيب، ودفن في الحجرة النبوية ومناقبه جمة. [أمير المؤمنين مشهور جم المناقب](٤).

معاني كلمات الحديث:

قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» وفي رواية «**الأعمال بالنيات**» وكلاهما يقتضي الحصر على الصحيح، وقد اختلفوا في تقدير قوله: «**الأعمال بالنيات**» على قولين:

الأول: تقديره: الأعمال صحيحة أو معتبرة ومقبولة بالنيات، وعلى هذا فالأعمال إنما أريد بها الأعمال الشرعية المفتقرة إلى النية.

والنية في اللغة هي القصد وهو عزم القلب. والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين:

أحدهما: تمييز العبادات بعضها عن بعض كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلاً، وتمييز رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات كتمييز الغسل من الجنابة من

---

(١) الحديث متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ١، ومسلم برقم: ١٩٠٧.

(٢) أخرجه الترمذي: ٣٦٨٢ وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ٩/ ١٦٣.

(٤) انظر: أسد الغابة ٢/ ٢١٤ ـ ٢٢٠. والإصابة: ٤/ ٥٨٨ ـ ٥٩٠.

غسل التبرد والتنظيف ونحو ذلك، وهذه النية هي التي توجد كثيراً في كلام الفقهاء في كتبهم.

والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل، وهل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره، وهذه هي التي تعني الإخلاص وتوابعه.

ويكون قوله بعد ذلك«وإنما لكل امرئ ما نوى» إخباراً عن حكم الشرع وهو أن حظ العامل من عمله نيته؛ فإن كانت صالحة فله أجر عمله الصالح، وإن كانت فاسدة فعمله فاسد وعليه وزره.

قال الفضيل في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال: أخلصه وأصوبه، وقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً وصواباً، قال: والخالص إذا كان لله عزَّ وجلّ، والصواب إذا كان على السنة(١).

وقد دل على هذا الذي قال الفضيل قوله عزَّ وجلّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠])(٢).

وقوله ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

وأصل الهجرة: هجران بلد الشرك والانتقال منه إلى دار الإسلام، كما كان المهاجرون قبل فتح مكة يهاجرون منها إلى مدينه النبي ﷺ، كما تطلق على ترك دار الخوف إلى دار الأمان، كما هاجر من هاجر منهم قبل ذلك إلى أرض الحبشة إلى النجاشي، كما تطلق على ترك ما نهى الله عنه. وقد أخبر ﷺ أن هذه الهجرة تختلف باختلاف المقاصد والنيات بها؛ فمن هاجر إلى دار الإسلام حباً لله ورسوله، ورغبة في تعلم دين الإسلام وإظهار دينه حيث كان يعجز عنه في دار الشرك فهذا هو المهاجر إلى الله ورسوله حقاً، وكفاه شرفاً وفخراً أن حصل له ما نواه من هجرته إلى الله ورسوله.

ومن كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام ليطلب دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها في دار الإسلام فهجرته إلى ما هاجر من ذلك؛ فالأول تاجر، والثاني خاطب، وليس بواحد منهما

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٤٣٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٧١).

مهاجراً وفي قوله: «إلى ما هاجر إليه» تحقير لما طلبه من أمر الدنيا واستهانة به حيث لم يذكره بلفظه، وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى فصلاحها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها(١).

المعنى الإجمالي للحديث:

هذا الحديث هو أحد الأحاديث التي يدور عليها الدين، فقد روي عن الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: هذا الحديث ثلث العلم، وعن الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث حديث عمر «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» وحديث عائشة «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، وحديث النعمان بن بشير «الْحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ»(٣).

وقال بعضهم: هذان الحديثان يجمعان الدين كله؛ فحديث «الأعمال بالنيات» ميزان للباطن، وحديث «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» ميزان للظاهر.

ومن هنا عظموا هذا الحديث، فقال بعضهم: يدخل في حديث «الأعمال بالنيات» ثلثا العلم، فكل مسألة خلافية حصلت فيها نية، فلك أن تستدل بهذا على حصول المنوي، وكل مسألة خلافية لم تحصل فيها نية، فلك أن تستدل بهذا الحديث على عدم حصول ما وقع في النزاع(٤).

والحديث أصل في الإخلاص، ومن جوامع كلمه ﷺ التي لا يخرج عنها عمل أصلاً؛ ولهذا تواتر النقل عن الأعلام، بعموم نفعه وعظم وقعه، قال أبو عبيد: ليس في الأحاديث أجمع ولا أغنى ولا أنفع ولا أكثر فائدة منه، واتفق الشافعي وأحمد وابن المديني وابن مهدي وأبو داود والدارقطني وغيرهم على أنه ثلث العلم، ومنهم من قال ربعه.

ووجه كونه ثلثه بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه فالنية أحد أقسامها وأرجحها؛ لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها محتاج إليها(٥)، ذلك لأن الأعمال الاختيارية لا توجد ولا تتحقق إلا بالنية، وليس للفاعل من فعله إلا ما نوى، فالذي يرجع إليه من عمله نفعاً أو ضرراً، ويجزى المرء بحسبها على العمل ثواباً وعقاباً.

---

(١) المصدر السابق ١/ ٧٣.

(٢) أخرجه مسلم ١٧١٨.

(٣) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩ بلفظ: «من عمل عملاً...».

(٤) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ص ١٢ ـ ١٣.

(٥) فتح القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي ص ٤٢.

ونظراً لما للنية من المكانة العظيمة في قبول الأعمال وصحتها، كان السلف الصالح أشد حرصاً على تصحيحها، ويسألون الله أن يعينهم على تحقيقها.

وقد بيَّن الحديث أن الهجرة على ثلاثة أنواع: منها ما كان لله ورسوله، ومنها ما كان للدنيا، ومنها ما كان لامرأة يتزوجها، وهي صورة من صور الهجرة للدنيا ولذاتها ومنافعها، ولكل من الأجر بحسب نيته. وهي للتمثيل لا للحصر.

والهجرة على ثلاثة أقسام:

الأول: هجرة المكان: وهو الانتقال من بلاد الكفر أو ما تكثر فيه المعاصي إلى بلاد الإسلام والطاعة.

الثاني: هجرة العمل، وهو أن يهجر الإنسان ما نهاه الله تعالى عنه من المعاصي والفسوق، يقول ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه**»(١).

الثالث: هجرة العامل: فإن العامل قد يجب هجره أحياناً، مثل الرجل المجاهر بالمعصية الذي لا يبالي بها، أو الداعي والمزيِّن لها، فهذا يشرع هجره إذا كان في هجره فائدة ومصلحة راجحة.

ما يستفاد من الحديث:

١ ـ أنه لا عمل إلا بنية.

٢ ـ أنَّ ثواب العامل على عمله بحسب نيَّته.

٣ ـ وجوب التمييز بين العبادات بعضها عن بعض، والعبادات عن المعاملات، ولا يكون ذلك إلا بالنية.

٤ ـ الحث على الإخلاص لله تعالى.

٥ ـ فضل الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، وأنها من أجلِّ العبادات الصالحة.

٦ ـ أنَّ الإنسانَ يُؤجرُ، أو يؤزر، أو يُحرم بحسب نيَّته.

٧ ـ بالنية يتحول العمل المباح أصلاً كالأكل والشرب والنوم إلى طاعة يؤجر عليها الإنسان إذا نوى بذلك التقوي على العبادة، فالمميز بين العبادة والعادة هي النية.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٤) ومسلم (٤١).

٨ ـ أنَّ العمل الواحد قد يكون لإنسان أجراً، ويكون لآخر حرماناً[١].

٩ ـ أن الغافل لا تكليف عليه؛لأن القصد يستلزم العلم بالمقصود والغافل غير قاصد. والأمور بمقاصدها.

١٠ ـ فيه إطلاق العام وإن كان سببه خاصاً فيستنبط منه الإشارة إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٢].

١١ـ إن مدار الأعمال على النيات، صحة، وفَساداً، وكمالاً، ونقصاً، وطاعة ومعصية؛ فمن قصد بعمله الرياء أثم، ومن قصد بالجهاد مثلاً إعلاء كلمة الله فقط كمل ثوابه. ومن قصد ذلك والغنيمة معه نقص من ثوابه. ومن قصد الغنيمة وحدها لم يأثم ولكنه لا يعطى أجر المجاهد. فالحديث مسوق لبيان أن كل عمل، طاعة كان في الصورة أو معصية، يختلف باختلاف النيات.

١٢ ـ حسن تعليم النبي ﷺ بتنويع الكلام وتقسيمه وضرب الأمثلة الموضحة.

(١) فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله، ص ١٤.

(٢) فتح الباري: (١/ ١٨).

الحديث الثاني: جبريل يعلمنا أمور ديننا

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**. **قال: صدقت**». قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال فأخبرني عن الإيمان. قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**». قال صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**». قال: ثم انطلق فلبثت ملياً، ثم قال لي: «**يا عمر، أتدرى من السائل**»؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»(١).

ترجمة الراوي:

تقدمت في الحديث السابق.

معاني كلمات الحديث:

(إذ طلع علينا رجل): أي ظهر مَلَكٌ في صورة رجل

(لا يرى عليه أثر السفر): من ظهور التعب والتغير والغبار

(فعجبنا له): أي للسائل

(يسأله ويصدقه): وجه التعجب لأن السؤال في الأصل يقتضي الجهل غالباً بالمسؤول عنه، والتصديق يقتضي علم السائل به.

(وتؤمن بالقدر خيره وشره): والمراد بالقدر أن الله تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم ٨.

(فأخبرني عن الساعة): أي عن وقت قيامها.

(ما المسؤول عنها): أي ليس الذي سئل عن القيامة.

(بأعلم من السائل): هذا وإن كان مشعراً بالتساوي في العلم، لكن المراد التساوي في عدم العلم بها، وأن الله تعالى استأثر بعلمها، وعدل عن قوله لست بأعلم بها منك إلى لفظ يشعر بالتعميم تعريضاً للسامعين، أي أن كل سائل وكل مسؤول فهو كذلك.

(عن أماراتها): (بفتح الهمزة) جمع أمارة بمعنى العلامة.

(أن تلد الأمة ربتها): أي سيدتها ومالكتها

(وأن ترى الحفاة): (بضم الحاء) جمع الحافي وهو من لا نعل له.

(العراة): جمع العاري وهو صادق على من يكون بعض بدنه مكشوفاً مما يحسن وينبغي أن يكون ملبوساً.

(العالة): جمع عائل وهو الفقير من عال يعيل إذا افتقر أو من عال يعول إذا افتقر وكثر عياله.

(رعاء الشاء): (بكسر الراء والمد) جمع راع، والشاء جمع شاة، والأظهر أنه اسم جنس

(يتطاولون في البنيان): أي يتفاخرون في تطويل البنيان ويتكاثرون به: معناه أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتى يتباهون في البنيان(١).

والإحسان: هو أن يعبد المؤمن ربه على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه وينظر إليه في حال عبادته، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضاً النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها)(٢).

قوله ﷺ: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»: قيل: إنه تعليل للأول، فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله تعالى في العبادة، واستحضار قربه من عبده، حتى كأن العبد يراه، فإنه قد يشق ذلك عليه، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه، ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا تحقق هذا المقام، سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، قال سبحانه:

---

(١) انظر: عون المعبود: ٩/ ١٩٢٦.

(٢) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي: ١/ ٣٥٩، قال العقيلي (الضعفاء الكبير): ٩ / ٤٢٣، ليس لهذا الحديث إسناد يثبت.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١].

المعنى الإجمالي للحديث:

هذا الحديث عظيم الشأن جداً يشتمل على شرح الدين كله، ولهذا قال النبي ﷺ في آخره «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**». بعد أن شرح مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان ببيان أركان كل من هذه المراتب الثلاث، فجعل ذلك كله دينا[١]، وقد جاء هذا الحديث المتميز في أسلوبه وإيحائه إلى النبي ﷺ على خلاف الوحي المعتاد بهذه الصورة المختلفة وهو صورة السؤال والجواب مع التصديق، وهذا الحديث هو بمثابة الخلاصة لهذا الدين الذي أُنزل على محمد ﷺ حيث كان هذا الحديث بعد انصراف النبي ﷺ من حجة الوداع ونزول ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وقبيل وفاة النبي ﷺ بقليل.

ومسائل الإسلام والإيمان والكفر والنفاق مسائل عظيمة جداً؛ فإن الله عزَّ وجلّ علق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة، واستحقاق الجنة والنار، والاختلاف في مسمياتها أول اختلاف وقع في هذه الأمة، وهو خلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية، وأدخلوهم في دائرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم.

وقد صنف العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسائل تصانيف متعددة، وممن صنف في الإيمان من أئمة السلف الإمام أحمد، وأبو عبيد القاسم بن سلام[٢]، وأبو بكر بن أبي شيبة[٣]، ومحمد بن أسلم الطوسي، وكثرت فيه التصانيف بعدهم)[٤].

وعليه ونحن في ظلال هذا الحديث الواسعة الممتدة التي لا تكاد تغادر من معالم الدين

---

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ١٠٠.

(٢) واسم كتابه: الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته، مطبوع بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني، نشر دار المعارف، الرياض، الطبعة الأولى: عام١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م جزء واحد.

(٣) الإيمان لابن أبي شيبة ضبطه وحرره أبو محمد الألفي، مطبوع.

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٣٠ باختصار.

شيئا، وبصدد معانيه ومصطلحاته الأساسية المتعلقة بأصول الدين، لابد من الإشارة إلى بعض الحقائق المهمة المتصلة بمعنى هذا الحديث، ومنها:

١ـ أن الأعمال تدخل في مسمى الإسلام ومسمى الإيمان أيضاً، ذلك أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة: (قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار أما بعد: فإن الإيمان فرائض وشرائع فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. ذكره البخاري في صحيحه[١].، وقد دل على دخول الأعمال في الإيمان قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢] وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**» ولفظه لمسلم[٢]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قَالَ: «**لاَ يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ،**»[٣]. فلولا أن ترك هذه الكبائر من مسمى الإيمان لما انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شيء منها؛ لأن الاسم لا ينتفي إلا بانتفاء بعض أركان المسمى أو واجباته)[٤].

وذكرنا ما يدخل في ذلك من أعمال الجوارح الظاهرة، ويدخل في مسماهما أيضاً الأعمال الباطنة فيدخل في أعمال الإسلام، إخلاص الدين لله تعالى، والنصح له، ولعباده، وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد وتوابع ذلك من أنواع الأذى، ويدخل في مسمى الإيمان وجل القلوب من ذكر الله، والخشوع له عند سماع ذكره وكتابه، وزيادة الإيمان بذلك، وتحقيق التوكل على الله عزَّ وجلّ، وخوف الله سراً وعلانية، والرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، واختيار تلف النفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر، واستشعار قرب الله من

(١) ذكره البخاري في أول كتاب الإيمان معلقاً.

(٢) أخرجه مسلم: ٣٥.

(٣) أخرجه البخاري: ٥٥٧٨، ومسلم: ٥٧.

(٤) جامع العلوم والحكم ١/ ١٠٨.

العبد ودوام استحضاره، وإيثار محبة الله ورسوله على محبة ما سواهما، والحب في الله والبغض فيه، والعطاء له والمنع له، وأن تكون جميع الحركات والسكنات له، وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية، والاستبشار بعمل الحسنات والفرح بها، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم، وكثرة الحياء، وحسن الخلق، ومحبة ما يحبه لنفسه لإخوانه المؤمنين، ومواساة المؤمنين خصوصاً الجيران، ومعاضدة المؤمنين ومناصرتهم، والحزن بما يحزنهم.

ومن أدلة دخول أعمال الظاهر في اسم الإيمان: قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾، ومن ذلك أن النبي ﷺ قال: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رضي بِاللهِ رباً وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً**»(١). والرضا بالله رباً وبمحمد رسولاً، يتضمن الرضا بعبادته وحده لا شريك له، وبالرضا بتدبيره للعبد واختياره له، والرضا بالإسلام ديناً يتضمن اختياره على سائر الأديان، والرضا بمحمد رسولاً يتضمن الرضا بجميع ما جاء به من عند الله وقبول ذلك بالتسليم والانشراح، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(٢). وقال ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(٣). وقَالَ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**»(٤). وقال ﷺ: «**وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»(٥).

٢ ـ (اسم الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، والتحقيق في الفرق بينهما أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته. والإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له، وذلك يكون بالعمل، وهو الدين كما سمى الله في كتابه الإسلام ديناً في قوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ

(١) أخرجه مسلم: ٣٤.
(٢) أخرجه البخاري: ٩، ومسلم ٣٥.
(٣) أخرجه مسلم: ٢٥٨٦.
(٤) أخرجه البخاري: ٢٤٤٦، ومسلم: ٢٥٨٥.
(٥) أخرجه البخاري: ٦٠١٦.

وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١] ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. وفي حديث جبريل سمى النبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان ديناً، وهذا أيضاً مما يدل على أن أحد الاسمين إذا أفرد دخل فيه الآخر، ومن هنا قال المحققون من العلماء: كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، فإنه قد يكون الإيمان ضعيفاً فلا يتحقق القلب به تحققاً تاماً مع عمل جوارحه أعمال الإسلام، فيكون مسلماً، وليس بمؤمن الإيمان التام، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤] فلم يكونوا منافقين بالكلية، على أصح التفسيرين، وهو قول ابن عباس وغيره، بل كان إيمانهم ضعيفاً، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [الحجرات: ١٤] يعني لا ينقصكم من أجورها فدل على أن معهم من الإيمان ما يقبل به أعمالهم)[1]. وتقدم الكلام على ذلك في تفسير سورة الحجرات.

٣ ـ (إن الإحسان: قد جاء ذكره في القرآن في مواضع، تارة مقروناً بالإيمان، وتارة مقرونا بالإسلام، وتارة مقروناً بالتقوى أو بالعمل الصالح، فالمقرون بالإيمان كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣] وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠] والمقرون بالإسلام كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢]. والمقرون بالتقوى كقوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣]، ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٣٣ ـ ٣٤]، وما ينتظر أهل الإحسان عند ربهم هو ما يكافئ ماهم عليه من منزلة ودرجة، بل وزيادة من ربهم المنان قال

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ١١١- ١١٢ باختصار.

تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى[1] في الجنة، وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان.

٤ ـ إنه إذا صار الحفاة العراة رعاء الشاء، وهم أهل الجهل والجفاء، رؤساء الناس، وأصحاب الثروة والأموال، حتى يتطاولوا في البنيان، فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا.

ما يستفاد من الحديث:

١- اشتمال هذا الحديث على مجمل الدين بذكر مراتبه الثلاثة: الإيمان والإسلام والإحسان، وأركان كل مرتبة.

٢- أن الدين يشتمل على جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

٣- أن الإسلام غير الإيمان إذا ذكرا جميعًا، وإذا ذكرا منفردين دخل أحدهما في الآخر.

٤- إن غرابة هيئة الإنسان تدل أهل الفطنة على غرابة حاله.

٥- إن شدة القرب من العالم في المجلس شدة في الحرص على طلب العلم.

٦- إن من أول ما يحرص عليه في السؤال هي أمور الدين

٧- الإخبار عن بعض أشراط الساعة الصغرى.

٨- في قوله «يتطاولون في البنيان» دليل على ذم التباهي والتفاخر، خصوصاً بالتطاول في البنيان.

٩- إن في إخباره ﷺ عن أمارات الساعة دليلاً على نبوته ﷺ، فقد وقع ما أخبر به في التطاول والتفاخر، وولادة الأمة ربتها.

١٠- إن وقت قيام الساعة هو مما استأثر الله به كما قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

١١- إن على العالم إذا سئل عن شيء لا يعلمه أن يقول: لا أعلمه، وإن ذلك لا ينقصه شيئاً، بل هو من ورعه ودينه؛ لأن فوق كل ذي علم عليم.

١٢- بيان حسن خُلُقه ﷺ وتواضعه مع أصحابه ومع الغرباء السائلين.

١٣- الأدب مع العالم كما فعل جبريل عليه السلام مع النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم: ١٨٠- ١٨١.

الحديث الثالث: «من دعا إلى هُدى أو ضلالة»

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**»(١).

ترجمة الراوي:

الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ أبو هريرة الدوسي اليماني، سيد الحفاظ الأثبات، اختلف في اسمه على أقوال أرجحها: عبدالرحمن بن صخر، يقال: كان في الجاهلية اسمه: عبد شمس، والمشهور عنه أنه كني بأبي هريرة لأنه كما قال: «كنت أرعى غنماً لأهلي، فكانت لي هريرة ألعب بها فكنوني بها»(٢)، وكان النبي ﷺ يكنيه: أبا هِرّ. وكان مقدمه وإسلامه في أول سنة سبع عام خيبر، صحب النبي ﷺ أربع سنين، (قال الذهبي: وهذا أصح، فمن فتوح خيبر إلى الوفاة أربعة أعوام وليال)(٣).. وكان من أهل الصفة وكان حفظ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخارق من معجزات النبوة، وقد قال: رسول الله ﷺ في حديث يحدثه يوماً: «أنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي جميع مقالتي، ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول» فبسطت نمرةً عليّ، حتى إذا قضى مقالته جمعتها إلى صدري فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء»(٤).

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحفظ من روى الحديث في دهره»، وقد استعمله عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على البحرين، وأخرج البغوي أنه لما حضرته الوفاة بكى فسئل فقال: «من قلة الزاد وشدة المفازة»(٥).. وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ والمعتمد في وفاة أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول هشام بن عروة وهي سنة سبع وخمسين من الهجرة، ودفن بالبقيع(٦).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٤٠) وابن سعد (٤/ ٣٢٩) بإسناد حسَّنه الترمذي وابن حجر في الإصابة.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٥٩٠.

(٤) أخرجه البخاري: ٢٠٤٧.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر: ٧/ ٤٤٤.

(٦) المرجع السابق.

معاني الكلمات:

أ- (دعا): من الدعوة: وهي في اللغة الدعاء واحد الأدعية، وأصله دعاو؛ لأنه من دعوت إلا أن الواو لما جاءت بعد الألف همزت(١).

والدعوة في الاصطلاح: هي قيام من له أهلية بدعوة الناس جميعاً في كل زمان ومكان، لاقتفاء أثر الرسول ﷺ والتأسي به قولاً وعملاً وسلوكاً.

ب ـ (الهدى) في اللغة: (بضم الهاء وفتح الدال): الرشاد والدلالة وهداه هُدىً وهَدْياً وهِدايةً.. أرشده فهَدَى واهتدى، وهداه الله الطريق(٢).

الهدى: اصطلاحاً: ما يُهتدَى به من الأعمال الصالحة.. وهو بحسب التنكير شائع في جنس ما يقال هدى، فأعظمه هُدىً من دعا إلى الله عزَّ وجلّ وعمل صالحاً، وأدناه هُدىً من دعا إلى إماطة الأذى عن طريق المسلمين(٣).

ج ـ (ضلالة): في اللغة: ضد الهدى والرشاد، وأضلّه أي: أضاعه وأهلكه(٤).

واصطلاحاً: هي أي عمل من أعمال الشر المنهي عنه.

د ـ (الأجر): (الأجر: الجزاء على العمل كالإجارة، والذكر الحسن، وأجاره الله من العذاب أنقذه)(٥).

هـ ـ (الإثم): الذنب الذي يستحق العقوبة عليه.

المعنى الإجمالي للحديث:

يبين النبي ﷺ في هذا الحديث قيمة الدعوة، وأهميتها، وتأثيرها على الداعي والمدعو سواء، سلباً أو إيجاباً، وأن الأجر العظيم والثواب الجسيم لمن يدعو إلى الله عزَّ وجلّ، وأن الداعية على ثغرة من ثغور الإسلام، وأن له الدور المؤثر إذا أخلص النية، وجعل من الكتاب وما صح من السنة منهجاً ومنطلقاً لدعوته، وقد قسم النبي ﷺ في هذا الحديث الدعاة بصفة

---

(١) تاج العروس: ٣٨/ ٤٦.

(٢) القاموس المحيط: ١/ ١٧٣٣.

(٣) انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ١/ ٢٥٤.

(٤) لسان العرب: ١١/ ٣٩٠، وتاج العروس: ٢٩/ ٣٤٣.

(٥) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ص ٥٣.، تأليف: أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ـ محمد المصري، نشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

عامة إلى قسمين:

أ) قسم يدعو إلى الله عزَّ وجلّ ويرشد ويدل على ما يهتدى به إلى الله، ويرغب في الأعمال الصالحة من فرائض ونوافل، وهو بهذا العمل سلك مسلك الأنبياء وورثتهم، فكان له الأجر على الدعوة وأجر الاستجابة إن تحققت من غير أن ينقص من أجور من دعاهم شيئاً، وهذا فضل من الله سبحانه وتعالى، والدعوة إلى الله هي أحسن الأقوال، وأفضلها يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ومن هذا المنطلق فإنه يجب على من تعلم علماً شرعياً أن يوصله إلى الناس.. (يعني يبيّنه للناس ويدعوهم إليه، مثل أن يبين للناس أن ركعتي الضحى سنة، وأنه ينبغي للإنسان أن يصلي ركعتين في الضحى، ثم تبعه الناس وصاروا يصلون الضحى، فإن له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً؛ لأن فضل الله واسع.

أو قال للناس مثلاً: اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً، ولا تناموا إلا على وتر إلا من طمع أن يقوم من آخر الليل فليجعل وتره في آخر الليل، فتبعه ناس على ذلك فإن له مثل أجرهم، يعني كلما أوتر واحد هداه الله على يده؛ فله مثل أجره، وكذلك بقية الأعمال الصالحة)[1].

ب) وقسم آخر من الدعاة: من يدعو إلى الضلالة والغواية فيُحَسِّنون المعصية، ويدلون عليها، ويتفننون في إيصالها، فهؤلاء هم قطاع الطرق الحقيقيون، يحجبون الرؤية عن طريق الحق، ويوصدون الطريق أمام الناس، وهؤلاء عليهم وزرهم ووزر من اقتفى أثرهم من غير أن ينقص من وزر من دعا إلى الضلالة شيئاً.

فمن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً، أي إذا دعا إلى وزر وإلى ما فيه الإثم، مثل أن يدعو الناس إلى لهو أو باطل أو غناء أو رباً أو غير ذلك من المحارم، فإن كل إنسان تأثر بدعوته فإنه يُكتب له مثل أوزارهم؛ لأنه دعا إلى الوزر، والعياذ بالله.

واعلم أن الدعوة إلى الهدي والدعوة إلى الوزر تكون بالقول؛ كما لو قال: افعل كذا، افعل كذا، وتكون بالفعل خصوصاً مِن الذي يُقتدى به من الناس، فإنه إذا كان يُقتدى به ثم

(١) انظر: شرح رياض الصالحين لابن عثيمين: ١/ ٢٠٤.

فعل شيئاً فكأنه دعا الناس إلى فعله؛ ولهذا يحتجون بفعله ويقولون: فعل فلان كذا وهو جائز، أو ترك كذا وهو جائز.

وفي هذا دليلٌ على أن المتسبب كالمباشر، فهذا الذي دعا إلى الهدى تسبب فكان له مثل أجر من فعله، والذي دعا إلى السوء أو إلى الوزر تسبب فكان عليه مثل وزر من اتبعه[1].

ما يستفاد من الحديث:

١- بيان أهمية الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ وما تحمله من أجور للداعي إذا أخلص، وللمدعو إذا استجاب.

٢- فضل الله عظيم ورحمته واسعة إذ يهب الحسنات للداعي والمدعو دون النقص من أحدهما وإعطائه للآخر.

٣- بيان خطر وعظيم إثم من يدعو إلى ضلالة بقوله أو بفعله فصاحبها ضال مضل بالإضافة إلى أنه عليه وزره ووزر من ارتكب هذه الضلالة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً.

٤- رحمة النبي ﷺ بأمته حيث إنه بيّن لهم طريق الخير وأرشدهم إليه ورغبهم فيه، وبين لهم طريق الشر وحذرهم منه ونهاهم عنه.

٥- لما كان الأجر حاصلاً لغير المباشِر للعمل ضمن الله له عدم نقص الأجر عنه

٦- إن العبد يستحق الثواب على السبب وما تولد منه، كما يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه.

(١) انظر: شرح رياض الصالحين لابن عثيمين: ١/ ٢٠٤.

الحديث الرابع: رد محدثات الأمور

عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١) وفي رواية: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢)

ترجمة الراوي:

عائشة بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا التيمية أم عبد الله، الفقيهة أم المؤمنين الربانية، حبيبة النبي ﷺ، لها ألفان ومائتان وعشرة أحاديث، روى عنها مسروق، والأسود، وابن المسيب، وعروة، والقاسم، وخلق، قال ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(٣) وقال عروة: «ما رأيت أعلم بالشعر من عائشة»(٤) وقال القاسم: «كانت تصوم الدهر»(٥) قال هشام بن عروة: توفيت سنة سبع وخمسين، ودفنت بالبقيع. [أفقه النساء مطلقاً وأفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة ففيها خلاف شهير](٦).

معاني كلمات الحديث:

(من أحدث في أمرنا): هذا الإحداث في أمر النبي هو اختراع شيء في دينه بما ليس فيه مما لا يوجد في الكتاب والسنة(٧).

وقوله: «ليس عليه أمرنا» يعني: حكمنا(٨)، والمراد: ديننا وشرعنا كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

(الرد) هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير معتد به(٩).

---

(١) الحديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري، برقم٢٦٩٧، ومسلم برقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٧١٨.

(٣) أخرجه البخاري: ٣٤١١، ومسلم: ٢٤٣١.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي: ٤/ ٢٤٨.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٤/ ٣٠١.

(٦) انظر: الإصابة: ٨/ ٢٠.

(٧) انظر: عمدة القاري ٢٠/ ٤١٢.

(٨) انظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق: ص٢٤.

(٩) انظر: شرح النووي على مسلم ١٢/ ١٦.

المعنى الإجمالي للحديث:

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، كما أن حديث «الأعمال بالنيات»ميزان للأعمال في باطنها، وهذا ميزان للأعمال في ظاهرها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء(١).

ويمثل هذا الحديث: قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات، وفي الرواية الثانية زيادة، وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها، فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول: أنا ما أحدثت شيئاً فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات، سواء أحدثها الفاعل، أو سبق بإحداثها، فالحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال بها(٢).

وهو بمنطوقه يدل على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمرالشارع فهو غير مردود. والمراد بأمره هاهنا دينه وشرعه، فالمعنى إذن: أن من كان عمله خارجاً عن الشرع ليس متقيداً بالشرع فهو مردود. وهو الشرط الثاني من شرطي قبول العبادة، وهو المتابعة للنبي ﷺ، والشرط الأول: الإخلاص لله تعالى.

والمتابعة لا تتحقق إلا إذا كان العمل موافقاً للشريعة في أمور ستة(٣):

١- أن يكون موافقاً للشريعة في السبب. وذلك بأن يفعل عادة لسبب لم يجعله الله سبباً كمن يصلي ركعتين كلما دخل بيته ويتخذها سنة فهذا مردود.

٢- أن يكون موافقاً للشريعة في الجنس، فمن تعبد الله بعبادة لم يشرع جنسها فهي مردودة كمن ضحى بفرس أو دجاجة.

٣- أن يكون العمل موافقاً للشريعة في القَدْر. فمن تعبد الله بقدر زائد على الشريعة لم يقبل منه. مثل: رجل صلى المغرب أربعاً متعمداً، لم تقبل صلاته. أو غسل كل عضو من أعضائه أربع مرات في الوضوء، فالرابعة فقط لا تقبل لما ورد في الحديث أن النبي ﷺ توضأ ثلاثاً وقال: «**من زاد على ذلك فقد أساء وتعدى وظلم**»(٤).

---

(١) جامع العلوم والحكم: ١/ ١٨٣.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم ١٢/ ١٦.

(٣) ينظر: شرح الأربعين النووية لابن عثيمين (ص١١٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (ح: ٦٦٨٤) والنسائي (١٤٠) وابن ماجه (٤٢٢). وجوَّد إسناده الحافظ في الفتح (١/ ٢٨١) وصححه في التلخيص الحبير (١/ ١٢١).

٤- أن يكون العمل موافقاً للشريعة في الكيفية، مثل من صلى فقدَّم السجود على الركوع، أو توضأ منكساً فبدأ بغسل الأرجل، فصلاته ووضوؤه باطل مردود.

٥- أن يكون موافقاً للشريعة في الزمان. فلو صلى الفريضة قبل دخول وقتها فصلاته باطلة مردودة.

٦- أن يكون موافقاً للشريعة في المكان، كمن طاف بغير الكعبة، أو وقف للحج بغير عرفة.

فهذه أصول مهمة تجب مراعاتها رجاء قبول العمل لا ردَّه، والله المستعان.

وإذا عرف هذا، تقرر أن هذا الحديث ميزان تقاس عليه القربات والعبادات والأحكام والمعاملات، فمن تمام الكلام عن معنى هذا الحديث أن يشار إلى كيفية الوزن عليه للقبول أو الرد:

فأما العبادات؛ فما كان منها خارجاً عن حكم الله ورسوله بالكلية، فهو مردود على عامله، وعامله يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] فمن تقرب إلى الله، بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله، فعمله باطل مردود عليه، وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية[١]، وهذا كمن تقرب إلى الله تعالى بسماع الملاهي، أو بالرقص، أو بكشف الرأس في غير الإحرام، وما أشبه ذلك من المحدثات، التي لم يشرع الله ورسوله التقرب بها بالكلية.

وأما المعاملات؛كالعقود، والفسوخ، ونحوهما، ـ والأحكام كا لحدود وغيرها ـ فما كان منها مغير الأوضاع الشرعية، كجعل حد الزنا بعقوبة مالية، وما أشبه ذلك، فإنه مردود من أصله، لا ينتقل به الملك، لأن هذا غير معهود في أحكام الإسلام، ويدل على ذلك أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن ابني كان عسيفاً على فلان فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم، فقال النبي ﷺ: «**المائة الشاة والخادم رد عليك، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام**»[٢].

ولا شك أن للبدعة مضار ومفاسد كثيرة من أهمها:

١- أن ما ابتدعه ضلالة بنص القرآن والسنة، أما القرآن فبدليل قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، فما جاء به النبي ﷺ هو الحق، وما خالفه فهو الضلال. ومن السنة قوله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة**»[٣]، وهذا شامل لكل

(١) المكاء: الصفير. والتصدية: التصفيق. تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: ٦٦٣٣و٦٦٣٤، ومسلم: ١٦٩٧.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٨٦٧).

ابتداع في الدين.

٢- أن في البدعة خروجاً عن اتباع النبي ﷺ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

٣- أن في الابتداع منافاة لتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ.

٤- أن من لوازم البدعة الطعن في كمال الدين واستدراك على النبي ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. قال ابن الماجشون: سمعت مالكاً يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة، لأن الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً»(١).

٥- أن البدع تؤدي إلى نسيان السنن واضمحلالها كما قال حسان بن عطية: «ما ابتدع قوم بدعة إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة»(٢). هكذا قال العلماء: ما دخلت البدعة إلا وخرجت في المقابل سنة.

٦- أن البدع سبب رئيس لتفريق الأمة وتشتتها وضعفها، وتسلط الأعداء عليها.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم الابتداع في الدين وإن كان عن حُسن قصد.

٢- أن العمل المبني على بدعة مردود على صاحبه.

٣- أن النهي يقتضي الفساد.

٤- أن العمل الصالح إذا أتي به على غير الوجه المشروع، كالتنفل في وقت النهي بغير سبب، وصيام يوم العيد، ونحو ذلك، فإنه باطل لا يعتد به.

٥- أن حكم الحاكم لا يغير ما في باطن الأمر؛ لقوله: «ليس عليه أمرنا».

٦- أن الصلح الفاسد باطل، والمأخوذ عليه مستحق الرد، كما في حديث العسيف(٣).

٧- أن العمل الموافق لأمر النبي ﷺ مبشر صاحبه بالقبول.

---

(١) الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩).

(٢) أخرجه الدارمي (رقم: ٩٨) واللالكائي رقم ١٢٩ (١/ ٩٣) وابن وضاح (رقم: ٩٠) بسند صحيح.

(٣) انظر: فتح القوي المتين:ص ٤٠.

الحديث الخامس: التحذير من الاغترار بزهرة الدنيا

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال: «**لا والله ما أخشى عليكم، أيها الناس، إلا ما يُخرج الله لكم من زهرة الدنيا**» فقال رجل: يا رسول الله، أيأتي الخير بالشر؟! فصمت رسول الله ﷺ ساعة ثم قال: «**كيف قلت؟**» قال: قلت يا رسول الله أيأتي الخير بالشر؟! فقال له رسول الله ﷺ: «**إن الخير لا يأتي إلا بخير، أو خير هو؟ إن كل ما ينبت الربيع يقتل حبطاً أو يُلِمُّ إلا آكلة الخَضِر، أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس ثلطت أو بالت، ثم اجترت فعادت فأكلت؛ فمن يأخذ مالاً بحقه يبارك له فيه ومن يأخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع**»(١).

ترجمة الراوي:

هو أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري الخدري نسبة إلى خدرة، وبنو خدرة بطن من الأنصار. كان من علماء الصحابة، وممن شهد بيعة الشجرة، وروى كثيراً من الأحاديث، وروى عنه جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. ولد قبل الهجرة بـ (١٢) سنة وعاش ٨٦سنة وتوفي في أول سنة ٧٤هـ(٢).

معاني الكلمات:

(زهر ة الدنيا): زينتها (الحبط) بفتح الحاء التخمة: (أو يلم) معناه أو يقارب القتل (آكلة الخضر): كلأ الصيف، هو هنا ضرب من الجنبة وهي من الكلأ ماله أصل غامض في الأرض واحدتها خضرة(٣) (ثلطت) أي ألقت الثلط، وهو الرجيع الرقيق، وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة (اجترت) أي مضغت جرتها قال أهل اللغة (الجِرة) بكسر الجيم ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه(٤).

---

(١) الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم برقم ١٠٥٢.

(٢) انظر: أسد الغابة ١/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨. الإصابة: ٣/ ٧٨ ـ ٧٩.

(٣) انظر: الديباج على مسلم. للسيوطي ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢.

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ٤.

المعنى الإجمالي:

مضمون الحديث: أن النبي ﷺ حذرهم من زهرة الدنيا وخاف عليهم منها، فقال هذا الرجل: إنما يحصل ذلك لنا الكسب من جهة مباحة كغنيمة وغيرها، وذلك خير، وهل يأتي الخير بالشر؟ وهو استفهام إنكار واستبعاد، أي يبعد أن يكون الشيء خيراً ثم يترتب عليه شر، فقال له النبي ﷺ: «**أما الخير الحقيقي فلا يأتي إلا بخير**»، أي لا يترتب عليه إلا خير، ثم قال: (أو خير هو) معناه: أن هذا الذي يحصل لكم من زهرة الدنيا ليس بخير، وإنما هو فتنة، وتقديره: الخير لا يأتي إلا بخير، ولكن ليست هذه الزهرة بخير لما تؤدي إليه من الفتنة والمنافسة والاشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة، ثم ضرب لذلك مثلاً فقال ﷺ: «**إن كل ما ينبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضر...**» إلى آخره ومعناه: أن نبات الربيع وخضره يقتل حبطاً بالتخمة لكثرة الأكل، أو يقارب القتل إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذي تدعو إليه الحاجة وتحصل به الكفاية المقتصدة فإنه لا يضر، وهكذا المال هو كنبات الربيع مستحسن تطلبه النفوس وتميل إليه، فمنهم من يستكثر منه ويستغرق فيه غير صارف له في وجوهه، فهذا يهلكه أو يقارب إهلاكه، ومنهم من يقتصد فيه فلا يأخذ إلا يسيرا، وإن أخذ كثيرا فرقه في وجوهه كما تثلطه الدابة فهذا لا يضره.

وقد ضرب ﷺ لهم مثلاً بحالتي المقتصد والمكثر فقال ﷺ: أنتم تقولون إن نبات الربيع خير، وبه قوام الحيوان وليس هو كذلك مطلقاً، بل منه ما يقتل أو يقارب القتل، فحالة المبطون المتخوم كحالة من يجمع المال ولا يصرفه في وجوهه، فأشار ﷺ إلى أن الاعتدال والتوسط في الجمع أحسن، ثم ضرب مثلاً لمن ينفعه إكثاره وهو التشبيه بآكلة الخضر، وهذا التشبيه لمن صرفه في وجوهه الشرعية. ووجه الشبه أن هذه الدابة تأكل من الخضر حتى تمتلئ خاصرتها ثم تثلط، وهكذا من يجمعه ثم يصرفه[1].

و نحن نتكلم عن معنى هذا الحديث البديع هناك لفتات رائعة لا بد من الإشارة إليها وهي:

١ـ نبوءة غيبية للنبي ﷺ.

٢ـ صورة الدنيا الظاهرة وماهيتها على الحقيقة.

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ٤.

٣ـ تصحيح مفهوم الناس عن الخير والشر.

١ـ النبوءة الغيبية:

إخباره ﷺ لأصحابه بحال السعة التي سيكونون عليها بعده بينما هم في تلك القرية الصغيرة في باطن الصحراء بعيداً عن منابع الثروة والحضارة وثمرات الأرض وخيراتها، يطل الرسول العظيم ﷺ على المستقبل فيشاهد مفاتيح الأرض تنتشر على أمته من بعده، فتفجر لهم خيرات الحياة الدنيا، وتفيض بين أيديهم مالاً وثمراً وعزاً فيتخوف عليهم أن تفتنهم بزينتها ويطغيهم منها مال وسلطان فيتنافسوا فيها كما تنافس فيها من كان قبلهم من الأمم، فيجمعوها تفاخراً وتكاثراً، وينفقونها ترفاً وإسرافاً، ويكسبوها بالظلم والحرام ويمنعوها عن ذوي الحقوق فيها، ويقتتلوا من أجلها اقتتالاً طويلاً عريضاً.

إنه صلوات الله وسلامه عليه لا يخشى على أمته من بعده أن يكفروا بعد إيمان؛ لأن الإيمان الحق متى خالطت بشاشته القلوب استمكن منها ولم يغادر إلا ما شاء الله، ولا يخاف عليهم من الفقر فإنهم لا شك قادمون على فتح أبواب ممالك الأرض، وقابضون على نواصي شعوبها، وقد كان كما أخبر ﷺ، فما هي إلا سنوات قلائل حتى أناخت لهم الدنيا تحت أقدامهم.

٢ـ صورة الدنيا في الظاهر، وماهيتها على الحقيقة:

لقد مثل الرسول ﷺ الدنيا بالزهرة وذلك في تسميته في هذا الحديث لكل ما في الحياة الدنيا من مال ومتاع وجاه وسلطان ولذة، بزهرة الدنيا، اتباعاً لما ذكره الله تعالى عنها حين قال عز وجل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، ووجه الشبه هو: كما أن الزهرة تفتن بجمال منظرها ولطف رائحتها، وبديع ألوانها المختلفة، لكنها سريعة الذبول، فالأمر هو كذلك لمباهج الدنيا وزينتها ومتاعها ولذاتها، جذابة غرارة لكنها سرعان ما تتبدد، وتتحول وتزول، ومن أجل ذلك استحقت أن يستعار لها لفظ الزهرة.

وهذا المعنى قد ذكره الله في كتابه العزيز إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ

ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤] وهو الواقع المشاهد من حالها، قال أبو العتاهية:

لا تغبط الدنيا فإن جميع ... ما فيها يسير لو علمت حقير

يا ساكن الدنيا ألم تر زهرة ... الدنيا على الأيام كيف تصير[1]

فماهية الدنيا على الحقيقة هي سرعة الزوال والتصرم، وإن كانت في صورتها الظاهرة تبدو كالزهرة إبان زهوها، وعليه فقل لمن يركن للدنيا: لزهرة ذابلة ركنت.

٣ـ تصحيح مفهوم الناس عن الخير والشر:

عندما قال رسول الله ﷺ: «**والله ما أخشى عليكم، أيها الناس، إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا**» مع أن المقرر في نفوس الناس أن اتساع المال ومايخرج من الأرض على وجه الخصوص هو خير، لذلك قال الرجل المستفهم لرسول الله: يا رسول الله، أيأتي الخير بالشر؟استفهام يطلب فيه هذا الصحابي من الرسول ﷺ حل إشكال قام في نفسه، تفصيله أن الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، يتخوف على أمته مما سيخرجه الله لهم من زهرة الدنيا، ولا يكون تخوفه البالغ إلا من أمر فيه شر، أو يمكن أن ينجم عنه شر.

فإذا كان خيراً فهل يمكن للخير أن يكون وسيلة للشر أو أن ينجم عنه شر، حتى يتخوف الرسول ﷺ على أمته منه كل هذا التخوف؟ حقاً إنه لإشكال دقيق يتطلب حلاً محكماً ضمن نظرة الإسلام العامة إلى الخير والشر.

فقال له رسول الله ﷺ: «**إن الخير لا يأتي إلا بخير**» ثم قال على طريقة الاستفهام الإنكاري: (أو خيرهو؟). وتتضمن هذه الإجابة نظرة الإسلام الشاملة إلى الخير والشر.

وتتلخص هذه النظرة بتقسيم الخير والشر قسمة ثلاثية لا ثنائية كما يسبق إلى الوهم؛فهناك خير محض، وهناك شر محض، وهناك أمور لا توصف لذاتها بأنها خير أو بأنها شر، إنما هي وسائل صالحة لأن تستعمل في الخير، ولأن تستعمل في الشر.

أما ما هو خير محض: فلا يمكن أن يأتي إلا بخير، ولا يمكن أن ينجم عنه إلا خير،

---

(١) المجالسة وجواهر العلم ٧/ ٣٣٤، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري، تحقيق مشهور حسن آل سلمان، نشر دار ابن حزم (بيروت١٤١٩هـ.

ونستطيع أن نمثل لذلك بمعرفة الله وعظيم صفاته؛ فإن هذه المعرفة لذاتها خير محض لا يمكن أن ينجم عنها إلا خير. وأما ما هو شر محض: فلا يمكن أن يأتي إلا بشر، ولا يمكن أن ينجم عنه إلا شر، ونستطيع أن نمثل له بالظلم، وجحود الحق، فكل منهما شر لا يمكن أن ينجم عنه إلا شر.

وأما الأمور التي لا توصف لذاتها بخير أو شر، وهي صالحة بحسب الاستعمال لكل منهما: فجميع ما خلق الله في الوجود من وسائل سلط يد عباده عليها ليبتليهم فيها، هل يستعملونها في الخير أو يستعملونها في الشر.

ما يستفاد من الحديث:

١ ـ التحذير من زيادة الطمع في الأموال وسائر متع الحياة الدنيا، لما فيها من الفتنة المؤدية إلى هلاك الفرد وفساد الأمة.

٢- أن فتنة هذه الأمة في كثرة المال وانفتاح الدنيا، وأن ذلك سبب للطغيان عادة ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ٧].

٣- أن الخير والشر على ثلاثة أقسام: فالخير المحض لا يأتي إلا بخير، والشر المحض لا يأتي إلا بشر. وهناك أشياء لا توصف بذاتها بخير أو شر، وإنما هي وسائل قد توصل إلى الخير وقد توصل إلى الشر بحسب استعمالها ومن ذلك الدنيا.

٤- إذا أغنى الله الإنسان، وصار غناه عوناً له على طاعة الله ينفق ماله في الحق وفي سبيل الله، صارت الدنيا خيراً، ومن أغناه الله فانهمك في الدنيا وأعرض عن الآخرة واستعمل الدنيا في معصية الله كانت الدنيا له شراً.

٥- جواز سؤال الخطيب وهو في خطبته عن بعض المشكلات المتعلقة في موضوع الخطبة، لأن الرسول ﷺ في الحديث أقر السائل ولم ينكر عليه، واهتم بإجابته.

٦- سعة صدر الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأناته وحكمته في الإجابة وفي ذلك تعليم لنا وإرشاد حتى نعرف كيف نسلك سبيل الدعوة إلى الله.

٧- من الأدب النبوي استعادة السؤال متى طال الفصل بين السؤال والجواب، لتكون الإجابة مقارنة للسؤال، وبخاصة إذا كان السائل واحداً من جماعة؛ وذلك ليستوعب الجميع صورة السؤال ويتنبهوا إلى الجواب، وهذا من أصول التربية التي وصل إليها المربون حديثاً.

٨- من الأدب النبوي ضرب الأمثال المحسوسة لتقريب الحقائق إلى المبلغين، وهذا أيضاً من أصول التربية الإسلامية.

٩- مشروعية استفهام التلميذ من معلمه في الأشياء المجملة التي تشكل عليه حتى يبين له معناها.

١٠- أن للعالم إذا سئل ألا يتعجل بالجواب حتى يتيقن أو يستطلع المسألة ممن فوقه من العلماء، كما فعل النبي ﷺ، في سكوته عنه حتى استطلعها من قبل الوحي.

١١- أن المكتسب للمال من غير حله غير مبارك له فيه، لقوله: «كالذى يأكل ولا يشبع»؛ لأن الله تعالى قد رفع عنه البركة، وألقى فى قلوب آكليه ومكتسبيه الفاقة، وقلة القناعة، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

١٢- أن للعالم أن يحذر من يجالسه من فتنة المال وغيره، وينبههم على مواضع الخوف من الافتتان(١).

١٣- إن الورع هو ترك ما يضر في الآخرة، والزهد هو ترك ما لا ينفع في الآخرة. فالزهد أعلى حالاً من الورع، فكل زاهد ورع، وليس كل ورع زاهد(٢).

(١) انظر: شرح ابن بطال ٣/ ٤٩٠ ـ ٤٩١. أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي.

(٢) شرح رياض الصالحين للعثيمين (٣/ ٣٥٩).

الحديث السادس: فضل من استبرأ لدينه

عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

ترجمة الراوي:

هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة، الأمير العالم، صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه، أبو عبد الله، يقال أبو محمد الأنصاري الخزرجي ابن أخت عبد الله بن رواحة، ولد سنة اثنتين من الهجرة وسمع من النبي ﷺ.. وَعُدَّ من الصحابة الصبيان، وكان من أمراء معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولاه الكوفة ثم ولي قضاء دمشق بعد فضالة، ثم ولي إمرة حمص. قال سماك بن حرب: كان النعمان بن بشير، والله من أخطب ما سمعت،... وقيل قتل بِبِيرين(من قرى حمص) سنة أربع وستين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (هو أول مولود ولد في الأنصار بعد قدوم النبي ﷺ هذا قول الأكثر، وأنه ولد هو وابن الزبير عام اثنين من الهجرة)(٢).

معاني الكلمات:

(الحلال): ما دل الدليل الشرعي على أنه حلال مثل ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقيل الحلال: ما لا يُعصى الله فيه(٣).

(بيّن): أي: واضح لا يخفى حله.. بأن ورد نص على حله(٤).

(الحرام): ما نص الشارع على تركه مثل ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] مع الوعيد على

---

(١) الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم ١٥٩٩.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة: ٦/ ٤٤٠، تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، (١/ ٤٤٧)، وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤١١ ـ ٤١٢.

(٣) الكليات (٣/ ٢٥٣).

(٤) تحفة الأحوذي (٤/ ٣٩٤).

فعله[١]. كالفواحش والميتة والدم.

(مشتبهات): وفي رواية البخاري: (مشبهّات) أي: أمور ملتبسة غير مبينة لكونها ذات جهة إلى كل من الحلال والحرام[٢]،: أي ليست بواضحة الحل ولا الحرمة؛ فلهذا لا يعرفها كثير من الناس، ولا يعلمون حكمها[٣].

(فمن اتقى): أي حذر منها[٤]

(استبرأ لدينه وعرضه): أي: برأ دينه من النقص وعرضه من الطعن فيه، لأن من لم يعرف باجتناب الشبهات لم يسلم من الطعن فيه[٥].

(الحمى): هو المرعى الذي يحميه السلطان من أن يرتع فيه غير رعاة دوابه[٦]، ويتوعد من قرب منه بأشد العقوبة.

(يرتع): الرتع معناه: أكل الماشية في المرعى.

(ألا وإن حمى الله محارمه): المراد بالمحارم فعل المنهي المحرم، أو ترك المأمور الواجب[٧].

(مضغة): أي قطعة لحم بقدر ما يمضغ، لكنها وإن صغرت حجماً عظمت قدراً[٨].

(إذا صلحت): أي انشرحت بالهداية، و(صلح الجسد كله)، أي: استعملت الجوارح كلها في الطاعات[٩].

المعنى الإجمالي:

أجمع العلماء على عظيم وقع هذا الحديث وكثرة فوائده، وأنه أحد الأحاديث التي عليها

---

(١) عون المعبود (٩/ ١٢٧).

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي (١١/ ٣١).

(٣) شرح صحيح مسلم (١/ ٣١).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ١٢٧).

(٥) فتح الباري (١/ ١٢٧).

(٦) تحفة الأحوذي (٤/ ٣٩٤).

(٧) فتح الباري (١/ ١٢٧).

(٨) الفتح الرباني (١٥/ ٥).

(٩) الفتح الرباني (١٥/ ٥).

مدار الإسلام[١] والتحرير في الحلال والحرام، والمشتبه بينهما، ذلك لأن:

الله أنزل كتابه وبين فيه حلاله وحرامه وبين النبي ﷺ لأمته ما خفي من دلالة الكتاب على التحليل والتحريم، فصرح بتحريم أشياء غير مصرح بها في الكتاب، وإن كانت عامتها مستنبطة من الكتاب وراجعة إليه، فصار الحلال والحرام على قسمين:

أحدهما: ما هو واضح لا خفاء به على عموم الأمة؛ لاستفاضته بينهم وانتشاره فيهم ولا يكاد يخفى إلا على من نشأ ببادية بعيدة عن دار الإسلام؛ فهذا هو الحلال البين والحرام البين. ومنه: ما تحليله وتحريمه لعينه كالطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والخبائث من ذلك كله ومنه: ما تحليله وتحريمه من جهة كسبه كالبيع، والنكاح، والهبة، والهدية، وكالربا، والقمار، والزنا، والسرقة، والغصب، والخيانة، وغير ذلك.

القسم الثاني: ما لم ينتشر تحريمه وتحليله في عموم الأمة؛ لخفاء دلالة النص عليه ووقوع تنازع العلماء فيه ونحو ذلك، فيشتبه على كثير من الناس هل هو من الحلال أو من الحرام؟ وأما خواص أهل العلم الراسخون فيه فلا يشتبه عليهم؛ بل عندهم من العلم الذي اختصوا به عن أكثر الناس ما يستدلون به على حل ذلك أو حرمته، فهؤلاء لا يكون ذلك مشتبهاً عليهم لوضوح حكمه عندهم.

أما من لم يصل إلى ما وصلوا إليه فهو مشتبه عليه؛ فهذا الذي اشتبه عليه إن اتقى ما اشتبه عليه حله وحرمته واجتنبه فقد استبرأ لدينه وعرضه، بمعنى أنه طلب لهما البراءة مما يشينهما، وهذا معنى الحديث الآخر: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٢].. وهذا هو الورع، وبه يحصل كمال التقوى.

وأنواع الشبه تختلف بقوة قربها من الحرام وبعدها عنه، وقد يقع الاشتباه في الشيء من جهة اشتباه وجود أسباب حله وحرمته، كما يشك الإنسان فيه هل هو ملكه أم لا؟ وما يشك في زوال ملكه عنه، وهذا قد يرجع فيه إلى الأصل فيبني عليه، وقد يرجع في كثير منه إلى الظاهر إذا قوي على الأصل ويقع التردد عند تساوي الأمرين، وقد يقع الاشتباه لاختلاط الحلال بالحرام في الأطعمة والأشربة، وغيرها من المكيلات، والموزونات والنقود.

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ١٢٧ - ١٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه حديث رقم ٢٧٠٨.

فكل هذه الأنواع من كان عنده فيها علم يدله على حكم الله ورسوله فيها فتبعه فهو المصيب، ومن اشتبهت عليه فإن اتقاها واجتنبها فقد فعل الأولى واستبرأ لدينه وعرضه فسلم من تبعتها في الدنيا والآخرة، ومن اشتبهت عليه فلم يتقها؛ بل وقع فيها فمثله كمثل راع يرعى حول الحمى فإنه يوشك أن يواقعه. وفي رواية: «**ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه**»، ومعنى هذا: أن من وقع في الشبهات كان جديراً بأن يقع في الحرام بالتدريج(١).

وأسباب الاشتباه خمسة:

١- قلة العلم: لأن واسع العلم يعرف أشياء لا يعرفها الآخرون.

٢- قلة التقوى: لأن التقوى سبب في جلاء الحق وبيانه كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ يعني: تفرقون به بين الحق والباطل فلا يلتبس عليكم.

٣- الفهم: أي ضعف الفهم. فقد يكون عنده علم، لكن ضعف فهمه لهذه المسألة فوق في الاشتباه.

٤- التقصير في التدبر: بأن لا يتعب نفسه في التدبر والبحث ومعرفة المعاني التي تبين له الحق.

٥- سوء القصد: بأن لا يقصد الإنسان إلا نصر قوله فقط بقطع النظر عن كونه صواباً أو خطأً، فمن هذه نيته فإنه يحرم الوصول إلى العلم. نسأل الله العافية(٢).

وهذا الاشتباه لا يكون لجميع الناس، وإنما لكثير منهم كما بيَّن النبي ﷺ في الحديث: «**لا يعلمهن كثير من الناس**» فدل على أن بعض الناس يعلمونهن.

ما يستفاد من الحديث:

١- الحث على أخذ الحلال والحرص عليه والبعد عن الحرام.

٢- طلب التحرر مما يتوهم منه، والبعد عن مواطن الريبة ومواقف التهم.

٣- الحث على اتقاء الشبهات، وعلى أن من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه من النقص وعرضه من الطعن فيه.

---

(١) انظر: فتح الباري لابن رجب: ١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٢) ينظر: شرح الأربعين النووية لابن عثيمين (ص١٢٨)، وقد ذكر أربعة أسباب.

٤- مشروعية سدّ الذرائع المؤدية إلى الحرام، والحيطة في ذلك.

٥- إشارة إلى المحافظة على أمور الدين ومراعاة المروءة.

٦- تمثيل من النبي ﷺ للتنبيه بالشاهد على الغائب.

٧- الحث على اجتناب الصغائر لأنها تجر إلى الكبائر.

٨- الإكثار من الشبهات يوصل إلى فعل الحرام.

٩- أن الوقوع في الشبهات، وأخذ المشتبه الذي لا يتبين حكمه مفسدة للقلب.

١٠- تعظيم القلب والسعي إلى ما يصلحه، والحذر مما يفسده.

١١- إن في صلاح القلب صلاحاً لكل أحوال الإنسان وفي فساده فساد كل أحواله حساً ومعنًى، ولم خص القلب دون سائر أعضاء الجسد؟ لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد[1]. وهذا يقتضي العناية بالقلب وحمايته من كل ما يفسده.

١٢- أكل الحلال ينوّر القلب فتصلح الجوارح. كما أن أكل الحرام يظلم القلب فتفسد الجوارح.

١٣- التقوى ترك بعض المباحات خوفًا من الوقوع في الحرام.

١٤- من الحكمة في ذكر المشتبهات تبين من كان حريصًا على دينه وعرضه وعلى العلم المزيل للمشتبهات ومن ليس بحريص.

(١) المصدر السابق (١/ ١٢٨).

الحديث السابع: فضل من عَلِم وعلّمَ

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منه طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»(١).

ترجمة راوي الحديث:

هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حَضَّار ـ بفتح المهملة وتشديد المعجمة ـ بن حرب، الإمام الكبير، صاحب رسول الله ﷺ أبو موسى الأشعري التميمي الفقيه المقرئ، وأمه ظبية بنت وهب بن عك.. أسلمت وماتت بالمدينة، وسكن هو الرملة وحالف سعيد بن العاص، ثم أسلم وهاجر إلى الحبشة وقيل بل رجع إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى الحبشة وهذا قول الأكثر، قدم المدينة بعد فتح خيبر، استعمله النبي ﷺ على بعض اليمن كزبيد وعدن، وولي إمرة الكوفة لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإمرة البصرة. كان حسن الصوت بالقرآن، وفي الصحيح المرفوع: «لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»(٢). وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا رآه قال ذكرنا ربنا يا أبا موسى فيقرأ..(٣). قال الذهبي: كان أبو موسى صواماً قواماً ربانياً زاهداً عابداً، ممن جمع العلم والجهاد، وسلامة الصدر لم تغيره الإمارة، ولا اغتر بالدنيا»(٤) وقال ابن المديني: قضاة الأمة أربعة: عمر وعلي وأبو موسى وزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين(٥).

---

(١) أخرجه البخاري/ كتاب العلم، باب فضل من عَلِم وعَلّم، برقم ٧٩. وأخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له كتاب الفضائل، باب بَيَانِ مَثَلِ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ برقم: ٦٠٩٣.

(٢) أخرجه البخاري: ٥٠٤٨. مسلم: ١٨٨٨ واللفظ له.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه: ٢/ ٤٨٦.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٩٦.

(٥) العلل لابن المديني، ص ٤٠.

وهو الذي فتح الأحواز وأصبهان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واختلف في سنة وفاته فقيل اثنين وأربعين وقيل ثلاث وأربعين وقيل أربع وأربعين وصحح الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ القول الثالث. وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ اختلفوا هل مات بالكوفة أم بمكة ـ رضي الله عنه وأرضاه[١].

معاني الكلمات:

١ ـ (من الهدى): الهدى هو الإرشاد، والدلالة إلى طريق الحق والخير والسعادة، وهو ضد الضلالة، والهدى يذكر ويؤنث.

(العلم): هو الفهم المطابق للواقع، ويدخل فيه حقائق الأخبار التاريخية، والحقائق الغيبية، و العقلية، و العملية التي تُكسب المتحلي بها سعادة الدارين.

٢ ـ (كمثل غيث): مَثَل: كلمة تسوية، يقال: هذا مثله ومثله، كما يقال: شبهه وشبهه، ودخول الكاف على مثل زائدة للتأكيد ولتزيين اللفظ، فالمراد من (كمثل) كالمراد من (مثل) ونظيره ما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي ليس مثله شيء.

٣ ـ (طائفة طيبة): الطائفة من الشيء جزء منه أو قطعة منه، يقال طائفة من الأرض، وطائفة من الليل، وطائفة من الناس.

(طيبة): الطيب خلا ف الخبيث.

٤ ـ (فأنبتت الكلأ): الكلأ عند العرب ما تنبته الأرض من مرعى الدواب.

(العشب): هو الرطب من البقول البرية ينبت في الربيع، واحدته عشبة، وجمع العشب أعشاب.

٥ ـ (وكان منها أجادب): الأجادب صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً، وقيل: هي الأرض التي لا نبات بها، مأخوذة من الجدب وهو القحط[٢].

٦ ـ (قيعان): القيعان: جمع قاع، والمراد من القيعان في الحديث أنواع من الأرض لا تمسك الماء، ولا تنبت الكلأ، هذه تكون عادة في أرض صلبة قاسية مستوية، أو أرض رملية غير صالحة للنبات، أو صخور قاسية ملساء.

---

(١) انظر: ترجمته: في الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٤/ ٢١١، وما بعدها باختصار، وسير أعلام النبلاء، للذهبي (٢/ ٣٨٠) وما بعدها.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث، (١/ ٣٤٢- ٣٤٣).

٧ ـ فذلك: الإشارة إلى مختلف أصناف الأرض التي وردت في التشبيه.

فقه: بضم القاف أي صار الفقه له سجية وخلقاً لازماً، والفقه الذي هو مصدر فقه هو الفهم الدقيق العميق، أما فقه بكسر القاف فمعناها فهم وعلم(١).

٨ ــ ومثل من لم يرفع بذلك رأساً: فلم يستجب لما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، من هدى وعلم، ولم يصغ إليه سمعاً، لأن من عرض عليه فلم يكترث به لم يرفع رأسه لاستماعه، فضلاً عن أن يهتم بالعمل به.

المعنى الإجمالي:

في هذا الحديث بيان من رسول الله ﷺ لأحوال الناس وأقسامهم بالنسبة إلى ما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى إلى الصراط المستقيم، والعلم بأصول الدين وأحكام الشريعة التي اصطفاها الله، وختم بها رسالاته للناس، وذلك في صورة تشبيهيه بالغة الروعة، أبرزت أصنافاً ثلاثة من الناس، بإزاء أصناف ثلاثة من الأرض، هذه بالنسبة إلى الغيث الذي ينزله الله من السماء إلى الأرض، وتلك بالنسبة إلى العلم والهدى اللذين أنزلهما الله من السماء وبعث بهما نبيه محمد ﷺ ليبلغهما للناس، فلم تكن أصناف الناس سواء في الانتفاع والنفع بهدى الله الذي أنزل، وكذلك أصناف الأرض في الاستفادة من الماء والنفع به ليست سواء وهذه معلومة للناس.

ولذلك فإن ما بعث الله به نبيه محمداً ﷺ من الهدى والعلم مشبه، والغيث مشبه به:

ووجوه الشبه بينهما كالآني:

أ. هما أمران فيهما حياة الناس المعنوية والحسية الحياة المعنوية السعيدة السوية بالعلم والهدى الموحى به، والحياة الحسية الهانئة الرضية بالغيث المنزل من السماء. فالوحي مادة حياة القلوب ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، والغيث مادة حياة الأرض ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

ب ـ وهما أمران منزلان من السماء أي من جهة السمو المعنوي، والسمو المادي أيضاً بالنسبة إلى الأرض، والغيث ينزل من السماء، ومن جهة السمو المعنوي أيضاً؛ لأنه إنما ينزل

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث، ج٣، ص٤٦٥.

من عند الله وبمشيئة الله، وعلى وفق مراده، والشأن كذلك بالنسبة للوحي.

ج ـ هما أمران نقيان طاهران من كل باطل أو فساد، ومطهران لما يحلان عليه وينزلان به فالوحي والغيث كلاهما نقي طاهر من كل رجس.

د ـ وهما أمران ينزلان للناس جميعاً على السواء ليتعلموا ويهتدوا، والغيث إذ ينزل في بلد أو أرض فإنه يصيب مختلف أصنافها على السواء دون أن يفرق بين حجر صلد، ورمال غير متماسكة وتربة خصيبة، وكذلك الوحي ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨] ولكنهم يختلفون في الاستفادة من هذا الوحي كما تختلف الأرض في الاستفادة من الغيث.

فالتشبيه بين منزلين من السماء، أحدهما هدى وعلم، والآخر ماء طهور.

وفي الحديث تشبيه آخر إذ يشبه الرسول ﷺ الناس بالأرض، فكما أن الأرض أنواع في تقبلها الغيث وانتفاعها ونفعها به أوعدم ذلك، فالناس أيضاً على نفس الحال في الانتفاع والنفع بالوحي أو عدمه.

والحديث بصورة مجملة:

معناه أن الأرض ثلاثة أنواع، والناس كذلك أنواع ثلاثة، فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر فيحيا بعد أن كان ميتاً وينبت الكلأ فينتفع به الناس والدواب والزرع وغيره، وكذا النوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيا قلبه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع وينفع .

والنوع الثاني من الأرض مالا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة وهي إمساك الماء لغيرها فينتفع به الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به فهؤلاء نفعوا غيرهم، ولم ينتفعوا في أنفسهم.

والنوع الثالث من الأرض السباخ التي لا تنبت، وهي لا تنتفع بالماء ولا تمسكه لينتفع به غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية فإذا سمعوا

العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم)[١].

فانظر ـ أخي ـ في نفسك من أي الأراضين الثلاث أنت؟ هل أنت من الأرض التي قبلت الماء وأنبتت العشب الكثير، أو من الأرض الثانية، أو من الأرض الثالثة والعياذ بالله، فإذا كنت كذلك فنبادر ـ أخي وأختي ـ بإنقاذ أنفسكما قبل فوات الأوان، والله المستعان.

ما يستفاد من الحديث:

١- ما جاء به الرسول ﷺ من الهدى والعلم يتضمن حياة الناس كما أن الغيث فيه حياة الأرض.

٢- الناس أقسام ثلاثة بإزاء ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي بشقيه، الكتاب والسنة:

أ) متعلمون عاملون نافعون، مثلهم كمثل الأرض الطيبة المنتفعة من الغيث والنافعة للناس.

ب) متعلمون غير عاملين، فيهم نفع لغيرهم دون أنفسهم، مثلهم كالأجادب من الأرض النافعة للناس بإمساك الغيث لكنها غير منتفعة في نفسها منه.

ج) لا عاملون ولا يتقبلون العلم والمعرفة، فهم لا خير فيهم لأنفسهم ولا لغيرهم، ومثلهم كمثل القيعان من الأرض التي لا تنتفع من الغيث ولا تنفع الناس بإمساك الماء.

٣- بلاغة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وحُسن تعليمه في تقريب الحقائق العلمية بالأمثلة والتشبيهات الحسية؛ لأن ذلك أدعى إلى تثبيت الحقيقة في نفوس السامعين، وأكثر تأثيراً في توجيههم للخير.

٤- فضل العلم والتعليم والعمل به وشدة الحث عليهما، وذم الإعراض عن العلم[٢] أو العلم بغير عمل ولا تعلم.

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٤٨.

الحديث الثامن: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[١].

ترجمة الراوي:

تقدمت ترجمته في الحديث الخامس.

معاني الكلمات:

أ ـ (من رأى منكم): (من) هذه شرطية وهي للعموم، رأى: عَلِمَ[٢]، وتكون الرؤية أيضاً بالبصر واللفظة تحتمل المعنيين.

ب ـ (منكراً): هو كل ما قبحه الشرع، سواء كان فعلاً أو قولاً[٣].

ج ـ (فليغيره): هو أمر إيجاب بإجماع الأمة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أيضاً من النصيحة التي هي من الدين[٤].

د ـ (بيده): التغيير باليد كأن يكون، بكسر آلات الباطل، وإراقة الخمور، ونزع الغصب أو يأمر بذلك[٥] وعادة ما يكون ذلك للسلطان أو من انتدبه لهذه المهمة، وكذلك للوالدين، ولكل من اجتمعت فيه القدرة والولاية.

هـ ـ (فإن لم يستطع): أي: التغيير باليد وإزالته بالفعل لكون فاعله أقوى منه[٦]، أو بأن يكون هناك مفسدة أعظم وأشد، وهنا ينتقل إلى المرحلة التي بعدها وهي " فبلسانه ": أي: بالقول، فيعظ ويخوف[٧].

و ـ (فإن لم يستطع): أي التغيير باللسان.

---

(١) أخرجه مسلم ٤٩.

(٢) تحفة الأحوذي، (٦/ ٣٩٣)، وشرح الأربعين النووية لابن عثيمين، ص ٦٥.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي، (٦/ ٣٩٣) بتصرف.

(٤) شرح صحيح مسلم، (٢/ ٢٢).

(٥) الفتح الرباني، (٦/ ١٥٢).

(٦) تحفة الأحوذي، (٦/ ٣٩٣).

(٧) انظر: شرح صحيح مسلم، (٢/ ٢٥).

ز ـ (فبقلبه): أي بألا يرضى به، وينكر في باطنه على متعاطيه، فيكون تغييراً معنوياً، إذ ليس في وسعه إلا هذا القدر من التغيير[١].

ح ـ (وذلك): أي: الإنكار بالقلب.

ط ـ (أضعف الإيمان): لأن الإيمان يزيد وينقص، فكلما زاد الإنكار دل على قوة الإيمان، وضعف الإنكار دليل على ضعف الإيمان، وهذا يقتضي بأن يجد المسلم في قلبه حزناً وحسرة إذا عصي الله تعالى في أرضه، ولم يطع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك.

المعنى الإجمالي للحديث:

في هذا الحديث توجيه وإرشاد من النبي ﷺ لأمته، وبيان لدرجات إنكار المنكر، فبين أنه مَن علم بشيء يقبحه الشرع من قول أو فعل، وظهر ذلك القبيح فإنه في هذه الحالة يجب إنكاره، ويكون الإنكار مرتباً بحسب القدرة والاستطاعة، وهذا يدل على سماحة الدين مبتدئاً أولاً: بالإنكار باليد، وذلك بأن يمنعه بالفعل مثل: تكسير آلات الباطل، وإراقة الخمور، ورد المغصوب إلى مالكه، وغير ذلك من الأمور التي يمكن مباشرتها باليد، فإن لم يستطع خشية أن يقع مفسدة أعظم من هذا المنكر فإنه ينتقل إلى المرحلة الثانية وهي إنكار المنكر باللسان ويكون: بالوعظ والتذكير وتخويف الناس من عقاب الله والنصح، ويكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وإن لم يستطع التغيير باللسان خشية البطش أو الإيذاء فينتقل إلى المرحلة الثالثة وهي الإنكار بالقلب؛ وذلك بأنه لا يرضى هذا المنكر في باطنه فيكون إنكاراً معنوياً وهنا أقل درجات الإنكار، بل إنه أضعف الإيمان، وأقلها ثمرة، وفي هذه المرحلة لا يعذر أحد من الإنكار القلبي لأنه مقدور عليه عند الجميع، وبهذا الترتيب أعطانا رسول الله ﷺ منهجاً عظيماً في كيفية إنكار المنكر، وأن الإنسان المسلم الغيور على دينه المحب لأمته واجب عليه أن يجعل ذلك نصب عينيه، وأن يمشي في طريق دعوته للتغيير على خطا هذه المراحل مرتبة كما في الحديث النبوي الشريف.

١) شروط إنكار المنكر؟

أولاً: أن يكون ظاهراً: والمراد بظهور المنكر انكشافه للمحتسب، وعلمه بدون تجسسه.

ثانياً: أن يكون قائماً في الحال: ومعناه أن يكون ذلك المنكر موجوداً في الحال، لأن المنكر إذا وقع وانتهى فلا احتساب فيه على فاعله.

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٣٩٣).

ثالثاً: عدم الخلاف المعتبر فيه: وذلك بأن يكون مما دلت النصوص على اعتباره منكراً، واشتهر ذلك عند أهل العلم المعتبرين. وليس كل خلاف معتبر، وإنما المعتبر ما دل عليه الدليل من الكتاب والسنة.

رابعاً: ألا يترتب عليه منكر أعظم منه.

٢) حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية في أصله فإذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من سكت عنه بلا عذر ولا خوف.

٣) متى يتعين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

يتعين في أمرين:

أ ـ إذا كان في موضع لا يعلم بالمنكر إلا هو.

ب ـ أو أنه لا يتمكن من إزالة هذا المنكر إلا هو كمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف[1].

ما يستفاد من الحديث:

١- وجوب تغير المنكر، وعدم السكوت عليه على الترتيب الذي بينه ﷺ.

٢- الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بابٌ عظيم به قوام الأمر وملاكه، وأنه إذا كثر الخبث عم العقاب على الصالح والطالح.

٣- أن النهي عن المنكر هو على حسب مراتب الاستطاعة اليد فاللسان فالقلب، وهي على حسب حال المنكِر والمنكَر.

٤- إن عدم إنكار المنكر بالقلب الذي لا يترتب بسببه أذى على المنكر دلالة على ضعف الإيمان في القلب، والعياذ بالله.

٥- أن الأجر على قدر المشقة فالذي ينكر باليد مع الاستطاعة ليس كالذي ينكر بالقلب فقط.

٦- إن في إنكار المنكر حصانة وقوة للمجتمع المسلم من الضياع والهلاك.

---

(١) شرح صحيح مسلم، ج٢، ص٢٣ بتصرف يسير.

الحديث التاسع: احفظ الله يحفظك

عن أبي العباس عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال لي: «**يا غلام، إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(١). زاد في رواية: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا**».

ترجمة الراوي:

هو ابن عم رسول الله ﷺ عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، كان يسمى البحر لغزارة علمه، صح أن النبي ﷺ دعا له بقوله: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» روي له (١٦٦٠) حديثًا، وتوفي بالطائف سنة ٦٨هـ، وهو ابن (٧١) سنة.

معاني الكلمات:

١ـ قوله: «احفظ الله يحفظك»، أي: احفظ حدود الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

٢ ــ قوله: «احفظ الله تجده تجاهك»: تجده أمامك يحوطُك ويرعاك في أمور دينك ودنياك.

٣ ـ قوله: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»، هذا مطابقٌ لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنَّ سؤال الله دعاء، والدعاءُ هو العبادة، والمعنى أنَّ المسلمَ يعبد الله وحده، ويسأله قضاء حاجاته، ويستعين به على عبادته وفي جميع أموره الدنيوية والأُخروية، ويأخذ بالأسباب المشروعة.

٤ ـ «**رُفعت الأقلام وجفَّت الصُّحف**»،والمراد برفع الأقلام وجفاف الصُّحُف الانتهاء من كلِّ شيء مقدَّر بكتابته في اللوح المحفوظ، فلا بدَّ أن يقع وفقاً لِمَا قُدِّر.

المعنى الإجمالي للحديث:

هذا الحديث أصل عظيم ووصية جامعة من وصايا الحبيب ﷺ في التنبيه على رعاية

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه برقم ٢٧٠٦. وقال: حسن صحيح.

حقوق الله تعالى، وما يترتب على ذلك من سعادة الدارين. وليس هناك من له غنى عن حفظ الله سبحانه وتعالى، وقد أثبت هذا الحديث أن السبيل لنيل حفظ الله أن تحفظ أوامره، ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله الصلاة، وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ومدح المحافظين عليها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

ومما يؤمر بحفظه الأيمان قال الله عز وجل: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] فإن الأيمان يقع الناس فيها كثيرا، ويهمل كثير منهم ما يجب بها، فلا يحفظه ولا يلتزمه، ولا يكفر إذا حنث.

ومن ذلك حفظ الرأس والبطن كما في الحديث المرفوع (الاستحياء من الله حق الحياء، أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى)(١)

وحفظ الرأس وما وعى يدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات، وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على ما حرم الله؛ قال الله عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وقد جمع الله ذلك كله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ويتضمن أيضاً حفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المآكل والمشارب.

ومن أعظم ما يجب حفظه من نواهي الله عز وجل؛ اللسان، والفرج، كما قال ﷺ «**من توكل لي ما بين رجليه وما بين لحييه، توكلت له بالجنة**»(٢) وأمر الله عز وجل بحفظ الفروج ومدح الحافظين لها فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان: أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه، وولده، وأهله، وماله؛قال الله عز وجل: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر، خلوا عنه.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم ٢٦٤٦، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه البخاري برقم٦٨٠٧.

وقال على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة.

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته؛كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ أنهما حفظا بصلاح أبيهما.

وعكس هذا أن من ضيع الله، تركه الله وخذله، فضاع بين خلقه، حتى يدخل عليه الضرر والأذى ممن كان يرجو نفعه من أهله وغيرهم، كما قال بعض السلف: «إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُق خادمي ودابتي».

النوع الثاني من الحفظ، وهو أشرف النوعين، حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإيمان. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «**إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها، بما تحفظ به عبادك الصالحين**»(١).

بل إن من يحفظ الله يجد الله معه في كل أحواله حيث توجه، يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، وهذه المعية الخاصة هي المذكورة في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، وقول موسى: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقول الله سبحانه على لسان نبيه ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] فهذه المعية الخاصة التي تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة.

ولابد من أن يصل المسلم في معاملته مع ربه سبحانه أنه إذا سأل لا يسأل إلا الله وإذا استعان لا يستعين إلا بالله كما قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

واعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على رفع هذا الضر ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده؛ لأنه حقيقة العبادة. وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه

---

(١) البخاري ح: (٦٣٢٠) ومسلم ح: (٦٨٩٢).

ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول؛ ورفعت الأقلام وجفت الصحف إشارة إلى تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابه، ورفعت الأقلام عنه، وطال عهده، فقد رفعت عنه الأقلام، وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها، وجفت الصحف التي كتب فيها، بالمداد المكتوب به فيها. وقد دل الكتاب والسنن الصحيحة الكثيرة على هذا المعنى؛ قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وإن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه كله مقدَّر عليه ولا يصيب العبد إلا ما كتب له من مقادير ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً. وقد دل القرآن على هذا في قوله عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

على أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل، وما ذكر قبله وبعده، فهو متفرع عليه، وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له، من خير وشر، ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل، وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده(١).

ثم بيَّن ﷺ أن النصر مع الصبر، فالصبر مفتاح الفرج، وهو شامل لأنواع الصبر الثلاثة: صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فإذا تحلى المسلم بالصبر تحقق له النصر بإذن الله عاجلاً أو آجلاً. ثم أكد ذلك «**أن الفرج مع الكرب**» فإذا اشتدت الأمور وضاقت واكتربت فهذا مؤذن بقرب الفرج من الله تعالى، ثم ختم هذه الوصايا العظيمة بأن «**مع العسر يسرا**» فكل عسر يعقبه يسر، فينبغي للمسلم أن يكون على ذكر دائم لهذا الحديث، وأن يعتمد على هذه الوصايا النافعة من الحبيب المصطفى ﷺ التي أوصى بها ابن عمه عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهي وصية للمسلمين جميعاً، والله المستعان.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٧٧) بتصرف.

ما يستفاد من الحديث:

١- أنَّ مَن حفظ حدودَ الله حفظه في دينه ودنياه.

٢- أنَّ مَن أضاع حدودَ الله لا يحصل له الحفظُ من الله، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

٣- أنَّ الجزاءَ من جنس العمل، فالعمل حفظ، والجزاء حفظ.

٤- أنَّ العبادة والاستعانة من الله تعالى لا تنبغي إلا له عز وجل.

٥- الإيمان بالقدر، وأنه لن يصيب العبد إلا ما كتب له.

٦- أنَّ العبادَ لا يملكون للعبد نفعاً ولا ضراً، إلا ما قدره الله تعالى له أو عليه.

٧- أن من نقص التوحيد أن يسأل الإنسان غير الله تعالى، ولهذا تكره المسألة لغير الله في قليل أو كثير.

٨- أن الأعمال الصالحة ترفع البلاء، وتخرج المسلم من الشدة.

٩- أن الإنسان إذا احتاج إلى معونة فليستعن بالله، ولا مانع من أن يستعين بغير الله ممن يمكنه أن يعينه لقول النبي ﷺ: «**وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة**»(١).

١٠- أنَّ الصبر يعقبه النصر.

١١- أنَّ الكرب يعقبه الفرَج.

١٢- أنَّ العُسرَ يعقبه اليُسر.

١٣- تسلية العبد عند حلول المصائب «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك**».

١٤- تواضعه ﷺ وملاطفته الصغار.

١٥- التقديم بين يدي ذكر الأمر المهمِّ بما يحفز النفوس إليه؛ لقوله: «ألاَ أعلِّمك كلمات»(٢).

(١) البخاري ح: ٢٨٦١، ومسلم ح: ٢٣٨٢.

(٢) انظر: فتح القوي المتين، ص٧١- ٧٢.

الحديث العاشر: تحريم مكـــة

إن مما تقتضيه الضرورة أن يعرف كل من يقيم في بلد ماله من خصوصية أو قوانين مرعية، فإذا كان هذا في كل بلد، فكيف بهذا المكان المقدس مكة المكرمة حيث بيت الله المعظم والمسجد الحرام، وهو المخصوص بكل فضل، وتكريم لا شك في أن معرفة ما له من حقوق وأحكام آكد من غيره.

وإذا كانت جامعة أم القرى شرفت بوجودها في مكة واشتقت لنفسها اسماً من اسمها لتنال قبساً من سناها، وشرفاً بالانتساب إليها، فإن أول ما ينبغي علينا، هو معرفة ما لهذا البلد الذي شرفه الله دون سائر البقاع، من أحكام ليست لغيره، ومنها ما في هذا الحديث.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه**»(١).

ترجمة الراوي: تقدمت في الحديث السابق.

معاني الكلمات:

أ ـ (يوم فتح مكة): وهو الفتح الكبير الذي نصر الله فيه نبيه ﷺ وأيده بدخوله مظفراً، وكان في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة.

ب ـ (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض): أي: حكم بتحريمها وقضاه(٢).

ج ـ (ولم تحل لأحد قبلي): هو خبر محض أي: أنه لم تحل لأمة قبله ﷺ.

د ـ (ولم يحل لي إلا ساعة من نهار): مقدارها ما بين طلوع الشمس وصلاة العصر.

هـ ـ (لا يعضد شجرها): أي لا يقطع، من عضدت الشجر أعضده

و ـ (لا ينفر صيده): أي لا يزعج من مكانه.

ز ـ (ولا يلتقط): على صيغة المعلوم.

---

(١) الحديث متفق عليه، أخرجه البخاري برقم ٣٠١٧. ومسلم ١٣٥٣.

(٢) فتح الباري، ج٤، ص٤٣.

ح ـ (إلا من عرفها) أي إلا من عرف أنها لقطة فيلتقطها ليردها إلى صاحبها ولا يتملكها. أو ليعرِّفها ليتعرف عليها صاحبها فيأخذها.

المعنى الإجمالي:

هذا الحديث كان يوم فتح مكة حين دخلها النبي ﷺ فاتحاً منصوراً يخبر فيه ﷺ (حين فرغ من أمر المشركين بها أنها لله حرم، وأنها لم تحل لأحد قبله، ولا تحل لأحد بعده بعد تلك الساعة التى حارب فيها المشركين، وأنها قد عادت حرمتها كما كانت، وأنها لا تحل لأحد بعده بالمعنى الذى أحلت له به، وذلك محاربة أهلها وقتالهم وردهم عن دينهم[١].

وأن (تحريم الله تعالى لمكة، قديم بقدم خلق السموات والأرض، لأن الله هو الذي حرمها، ومن تلك المدة فهي حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل فيها القتال تأسِّياً بقتال النبي ﷺ فيها، فقد أحلت له خاصة، ساعة من نهار، ثم رجعت حرمتها إليها مطلقاً إلى يوم القيامة)[٢].

وقد (أذن له فيها ساعة من نهار يعني في إراقة دم كان مباحاً خارج الحرم، والحرمة كانت للحرم، فكان الحرم في حقه في تلك الساعة بمنزلة الحل، ثم عادت حرمتها كما كانت، والساعة من نهار أراد به مقداراً من الزمان من يوم الفتح، وهو زمان الدخول فيها)[٣]

ومما ينبغي أن يعلم أن المقصود بقوله ﷺ (لا تحل لأحد بعدي ـ هو ـ الإخبار عن الحكم في ذلك لا الإخبار بما سيقع، لوقوع خلاف ذلك في الشاهد كما وقع من الحجاج وغيره، ومحصله أنه خبر بمعنى النهى، ـ أي يحرم على أي أحد أن يستحلها ـ بخلاف قوله فلم تحل لأحد قبلي فإنه خبر محض، أو معنى قوله ولا تحل لأحد بعدي أي لا يحلها الله بعدي لأن النسخ ينقطع بعده لكونه خاتم النبيين)[٤].

وهناك بعض الخصائص والفضائل لبلد الله الحرام، خصها الله تعالى بها، ومن أهمها:

١- تحريم الله تعالى لها يوم خلق السموات والأرض ـ كما دل عليه الحديث ـ وقد

(١) انظر: شرح البخاري لابن بطال: ٤/ ٥٠٥.

(٢) تيسر العلام شرح عمدة الأحكام ١/ ٣٦٢.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٣/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧، للبدر العيني.

(٤) فتح الباري لابن حجر ٤/ ٤٦.

أعلن هذا التحريم وبلّغه إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ودعا لها بالبركة كما قال ﷺ: «**إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها، وحرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدِّها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة**»(١). وهذا الحرمة شاملة لكل حدود الحرم، المسجد وما حوله، وليست خاصة بالمسجد فقط.

٢- أحب البلاد إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ؛ لحديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: «**ما أطيبك من بلد، وما أحبك إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما سكنت غيرك**»(٢). وعن عبد الله بن عدي بن حمراء قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفًا على الحزورة (٣) فقال: «**إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخْرجت منك ما خرجت**»(٤).

٣- أقسم الله تعالى بها في كتابه العزيز كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ والتعبير بهذه الصيغة يدل على عظيم شأن هذا البلد الحرام، وكذلك الإشارة إليه بـ (هذا) يدل على قرب المكانة عند الله تعالى، ووصفه (بالأمين) وهو فعيل بمعنى فاعل أي آمن. كما أقسم تعالى به في سورة البلد: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾.

٤- لا يدخلها الدجال لما في الصحيح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٤/٣٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي وحسَّنه (٣٩٢٦) وابن حبان في صحيحه (٣٧٠٩) والحاكم وصححه (١/٤٨٦).

(٣) الحزورة: الرابية الصغيرة، وهي موضع كانت سوقاً لأهل مكة ثم دخلت في المسجد الحرام. (أخبار مكة للأزرقي (٢/٢٩٤).

(٤) أخرجه الترمذي وصححه (٣٩٢٥) والنسائي في الكبرى (٤٢٣٩، ٤٢٣٨) وابن ماجه (٣١٠٨) والحاكم وصححه (٧٨٣، ٤٣١).

(٥) صحيح البخاري (٤/٩٥).

٥- كونها مأرز الإيمان. كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما كان، وهو يأرز [١] بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها**»[٢]. قال النووي: «أي مسجدي مكة والمدينة»[٣].

٦- مضاعفة أجر الصلاة فيها لما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام**»[٤]. زاد في حديث جابر: «**وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه**»[٥]. ورجَّح كثير من العلماء أن مضاعفة الصلاة يشمل الحرم كله وليس خاصاً بمسجد الكعبة، منهم عطاء بن أبي رباح المكي، وهو قول الجمهور [٦].

٧- تحريم الإلحاد فيه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥]، وكلمة (إلحاد) تعم كل ميل إلى باطل سواء كان في العقيدة أو غيرها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ ﴾ فنكر الجميع، فإذا ألحد أحدٌ أي إلحاد فإنه يتوعد بهذا الوعيد [٧]. ومن الملاحظ أن المتوعد عليه بالعذاب الأليم في الآية هو مجرد الهمّ بالفعل وإن لم يفعل، فكيف بمن فعل. وهذه أيضاً من خصائص البلد الحرام وشديد حرمته وتعظيمه عند الله تعالى. وإلا فمجرد الهمّ بالسيئة من غير فعل لها لا يؤاخذ عليه العبد في غير الحرم. وقد أكد النبي ﷺ هذا التحريم للإلحاد في الحرم بقوله: «**أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية،**

---

(١) يأرز: أي ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض. النهاية (١/٣٧).

(٢) صحيح مسلم ح: (٤٢١).

(٣) شرح صحيح مسلم (٢/١٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣/٦٣) ومسلم (٢/١٠١٢).

(٥) أخرجه أحمد (٣/٣٤٣) وابن ماجه (١/٤٥١) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ح: (١١٥٥).

(٦) ينظر تفصيل ذلك: البلد الحرام فضائل وأحكام (ص٣٠) من إعداد اللجنة العلمية بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى.

(٧) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز (٣/٣٩٠).

ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه»[١].

٨- تحريم القتال وسفك الدماء بها وإيذاء قاطنيها. ولذلك جعله الله حرماً آمناً قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وسماه (البلد الأمين) وقال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] يعني: وجب أن يؤمَّن، وليس المعنى أنه لا يقع فيه أذى لأحد ولا قتل، بل ذلك قد يقع، وإنما المقصود أن الواجب تأمين من دخله وعدم التعرض له بسوء، وكان الرجل في الجاهلية يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يؤذيه بشيء حتى يخرج[٢]. ولتحقيق هذه الحرمة حرم فيها حمل السلاح، «نهى رسول الله ﷺ أن يحمل السلاح بمكة»[٣]، وقال: «**لا يسفك بها دماً**»[٤]، ولم يأذن الله تعالى بابتدار الكافرين بالقتال فيها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩١]، ولذا ينبغي على ساكني الحرم وقاصديه من الوافدين وغيرهم ألا يهتكوا حرمة الحرم بإيذاء الناس فيه، ونشر الذعر بينهم، فإن ذلك من أعظم الآثام.

٩- تحريم دخول الكفار والمشركين مكة، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٨]. وتنفيذاً لهذا الأمر الإلهي بعث النبي ﷺ أبا بكر الصديق في العام التاسع ليؤذن في الناس «**ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان**»[٥].

١٠- تحريم الصيد وقطع الشجر وأخذ اللقطة في الحرم إلا لمنشد، كما دل على ذلك الحديث موضوع الدراسة ونصوص أخرى كثيرة، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

---

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ٢١٠).

(٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز (١/ ٣٨٤).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ٩٨٩).

(٤) ذكره البخاري تعليقاً (٨/ ١٦٩).

(٥) صحيح البخاري (٧/ ٢٧٩).

أ- تحريم تنفير الصيد بمكة وقتله لقوله ﷺ: «**لا ينفر صيدها**». قال ابن المنذر: «أجمعوا على أن صيد الحرم حرام على الحلال والحرام»(١) ــ يعني: المحرم. واستثنى من ذلك قتل الخمس الفواسق. قال ﷺ: «**خمس من الفواسق يقتلن في الحرم: الغراب والحدأة والعقرب، والفأرة، والكلب العقور**»(٢). ويدخل في الكلب العقور: كل مفترس كالأسد ونحوه، وفي العقرب ذوات السموم كما جاء النص على الحيّة ونحوها. ويلحق بها كل ما فيه مضرة ظاهرة.

ب- قطع الشجر والشوك والخلى. ويستثنى من ذلك:

١- الإذخر: لقول العباس: يا رسول الله إلا الإذخر لصاغتنا وقبورنا فقال: «**إلا الإذخر**»(٣).

٢- ما يستزرع وينبت بمعالجة آدمي، فالجمهور على جوازه كالبقول والرياحين ونحوها.

٣- ما انكسر من الإغصان وانقطع من الشجر وسقط من الورق.

٤- ما ترعاه البهائم من الحشائش والعشب بدون قطع من الإنسان.

ج- أخذ لقطة الحرم إلا لمعرِّف؛ لقوله ﷺ: «**لا يلتقط لقطتها إلا لمعرِّف**» وعلى قول الجمهور أنه لا يتملكها، وهو خاص بالحرم أما ما عدا الحرم فإنه يعرفها سنة، فإن جاء صاحبها وإلا تملكها، على تفصيل ليس هذا موضعه. وعلى من وجد لقطة في الحرم أن يتركها، أو يسلمها للجهات الرسمية المختصة بهذا الأمر، وبهذا تكون برئت ذمته، ولا يجوز له التصرف فيها بغير هذا. والله أعلم.

١١- تحريم استقبال القبلة أو استدبارها عند قضاء الحاجة، لقوله ﷺ: «**إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها، ولكن شرقوا أو غربوا**» قال أبو أيوب ـ راوي الحديث ـ: «فقدمنا الشام فوجدنا مراحيض بنيت قِبَل القبلة، فنتحرف ونستغفر

(١) الإجماع لابن المنذر (ص٦٨).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ٤٣) ومسلم (٢/ ٨٥٨).

(٣) صحيح البخاري (٤/ ٤٦). والإذخر: بكسر الهمزة حشيشة طيبة الرائحة يسقف بها البيوت فوق الخشب. لسان العرب (٤/ ٣٠٣).

الله»[١]. والجمهور على التفريق بين الفضاء والبنيان، فيجوز في البنيان ويمنع في الفضاء، قال الحافظ ابن حجر عند هذا القول: «وهو أعدل الأقوال لإعماله جميع الأدلة»[٢].

١٢- لا تشد الرحال لبقعة بقصد التعظيم والتعبد إلا إلى ثلاثة مساجد كما قال ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد؛ المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»[٣].

ما يستفاد من الحديث:

إضافة إلى الأحكام التي تمت الإشارة إليها في ذكر خصائص الحرم وأحكامه فيمكن أن نستفيد من الحديث ما يلي:

١- بيان حرمة مكة وأن ذلك التحريم منذ خلق الله السموات والأرض إلى قيام الساعة.

٢- في الحديث خصوصية له ﷺ لم تكن لغيره، سواء من الأنبياء والرسل أو غيرهم من الناس وهي أن الله أحل له مكة ساعة من نهار.

٣- ظاهر الحديث تحريم القتال بمكة إلا ما استثناه العلماء، كالقصاص وقتال أهل البغي إذا بدؤوا بالقتال.

٤- أن حكم التحريم لمكة حكم ثابت لم ينسخ.

٥- يستفاد من قوله «لا ينفر صيده» أي لا يزعج طيره من مكانه؛ وفيه التنبيه من الأدنى إلى الأعلى فلا يضرب ولا يقتل بالطريق الأولى[٤].

٦- إذا كان إزعاج الطير وتنفيره ممنوعاً فكيف بإزعاج المسلم وإيذائه، وهو منهي عنه في كل بلد، وهنا حيث لا يزعج حتى الصيد لا شك أن خطره أعظم وجرمه مضاعف، سواء كان بالقول أو الفعل.

(١) البخاري (١/ ٢٤٥) ومسلم (١/ ٢٢٤).

(٢) فتح الباري (١/ ٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (ح: ١١٨٩) ومسلم (ح: ٣٣٨٤).

(٤) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٩/ ٢٢٤.

قائمة المصادر والمراجع

- الإبانة عن شريعة الفِرق الناجية ومجانبة الفِرق المذمومة، لابن بطة: أبي عبد الله عبيد الله بن محمد العكبري (ت٣٨٧هـ)، تحقيق: د. رضا بن نعسان معطي، ط. الأولى ١٤٠٩هـ، ن. دار الراية ـ الرياض.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١) ط. أولى ١٣٨٧هـ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني.
- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ــ تحقيق مصطفى شيخ مصطفى ومدثر سندس، نشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.
- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي (٥٤٣هـ) مراجعة محمد عبد القادر عطا، ن. دار الكتب العلمية.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للألباني، ط. أولى ١٣٩٥هـ، المكتب الإسلامي، ط. أولى ١٤١٢هـ، دار الفكر، بيروت.
- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ، تحقيق على محمد البجاوي، مطبعة دار الجيل، الطبعة الأولى.
- أصول التخريج ودراسة الأسانيد، أحمد الطحان، مطبعة مكتبة السروات، الطبعة الرابعة.
- أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله للدكتور عياض بن نامي السلمي
- أصول الفقه لمحمد أبو زهرة، مطبعة دار الفكر.
- الأصول من علم الأصول لابن عثيمين.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني (ت ١٣٩٣هـ)، ط. أولى ١٤٢٤هـ، ن. دار عالم الفوائد ـ مكة.
- إعلام الموقعين لابن القيم، مطبعة دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى عام ١٤٢٢هـ.
- البدع والنهي عنها، ابن وضاح.
- البرهان في علوم القرآن للزركشي.
- البلد الحرام فضائل وأحكام... إعداد كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى.
- تاريخ الإسلام للذهبي.
- التبيان، آداب حملة القرآن، ط الثالثة.
- التحرير والتنوير لابن عاشور.
- تحفة الأحوذي شرح الترمذي للمباركفوري.
- تدريب الراوي للسيوطي، وبهامشه تقريب النواوي.
- التعريفات للجرجاني، ص، مطبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- تعظيم قدر الصلاة، أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي،تحقق د عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار – المدينة المنورة، الطبعة الأولى.

- التفريج بأصول التخريج للعلامة/ شهاب الدين أحمد بن محمد الطنجي، تقديم وتحقيق: بشرى الحديوي، مطبعة دارالكتب العلمية، طبعة عام ١٤٢١هـ.
- تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ☺ والصحابة والتابعين)، لعبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط. ثانية ١٤١٩هـ، مكتبة الباز ــ مكة المكرمة.
- تفسير ابن سعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، لابن سعدي: عبد الرحمن بن ناصر، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ، ط. الثانية ١٤١٢هـ، ن. مركز صالح بن صالح الثقافي.
- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن)، للطبري: أبي جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ)، ط. الثالثة ١٣٨٨هـ، ن. مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة.
- تفسير القرآن الكريم، لابن كثير: أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط. الإصدار الثاني، ط. أولى ١٤٢٢هـ، ن. دار طيبة ـ الرياض.
- التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للحافظ زين الدين العراقي، مطبعة دار الفكر
- توجيه النظر إلى أصول الأثر
- تيسير العلام شرح عمدة الأحكام للبسام.
- جامع العلوم والحكم ، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية
- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر.
- درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ن. جامعة الإمام بالرياض.
- دلائل الإعجاز للباقلاني.
- الرسالة، للإمام الشافعي، مطبعة المكتبة العلمية
- روح المعاني للألوسي
- السنة قبل التدوين والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي.
- سنن أبي داود على هامش عون المعبود ط. الثالثة (١٣٩٩) ن.المكتبة السلفية
- سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة (٢٠٧ـ ٢٧٥هـ)تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط. بدون ن. دار الفكر
- سنن الدارقطني، ط مؤسسة الرسالة.
- السنن الكبرى للحافظ الجليل أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ط. بدون ن. دار الفكر
- السنن الكبرى. للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البغدادي وسيد كسروي حسن ، ط. أولى١٤٠٠هـ ، ن: دار الكتب العلمية ،بيروت ـ لبنان

- سنن النسائي «المجتبى» بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. ط. بدون ، ن: دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان.
- سير أعلام النبلاء تصنيف الإمام شمس الدين محمد الذهبي أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط ط. الثانية (١٤٠٢) ن. مؤسسة الرسالة
- شرح ابن بطال ـ أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، نشر مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية
- شرح الأربعين النووية لابن دقيق.
- شرح الأربعين النووية لابن عثيمين.
- شرح صحيح مسلم، للنووي، مطبعة دار القلم، الطبعة الأولى.
- شرف أصحاب الحديث، البغدادي.
- الشفا للقاضي عياض
- صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، للبخاري: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٢٥٦هـ)، إشراف: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ط. الثانية ١٤٢١هـ، ن. دار السلام ـ الرياض.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته، للألباني. ط. أولى: ١٣٨٨هـ، ن. المكتب الإسلامي.
- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ)، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري (ت: ٢٦١هـ)، تصحيح وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. الأولى ١٣٧٤هـ، ن. دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- طبقات القراء لابن الجزري
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للبدر العيني
- عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، د محمد السيد راضي جبريل
- عون المعبود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار المكتبة السلفية، المدينة، الطبعة الثانية.
- غاية النهاية في طبقات القراء.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، مطبعة دار الفكر
- فتح القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي، تصحيح أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى.
- فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله،، عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر، دار ابن القيم، الدمام المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى.

- فتح المغيث للسخاوي، مطبعة المكتبة السلفية.
- الفروق للقرافي.
- فضائل الكتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي، عبيد بن محمد الإسعردي، تحقيق صبحي السامرائي، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ـ بيروت، الطبعة الأولى. ١٤٠٩هـ.
- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، نشر دار ابن الجوزي بالسعودية.
- القرآن ونصوصه للدكتور عدنان زرزور.
- القواعد الحسان لتفسير القرآن.ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ: عبد الرحمن بن ناصر السعدي. ط. الثانية. مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة ـ المملكة العربية السعودية.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تأليف أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق عدنان درويش ـ محمد المصري، نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي، تحقيق د محمد عجاج الخطيب دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- مدارج السالكين ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ– ١٩٧٣م.
- المدخل لدراسة القرآن، د محمد أبو شهبة.
- المسند، للإمام أحمد بن حنبل، ن. المكتب الإسلامي ـ دار صادر ـ بيروت.
- المصاحف، ابن أبي داود.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
تقديم عميد كلية الدعوة وأصول الدين د/ محمد بن سعيد السرحاني	٢
مقدمة	٤
وحدات المقرر	٨
القسم الأول: القرآن الكريم وعلومه	٩
القرآن الكريم ـ قطعيته وتوثيقه وقراءاته	٩
- تعريف القرآن الكريم	٩
- أسماء القرآن الكريم	١٠
- مصدر القرآن الكريم	١٠
- أولاً: ظاهرة الوحي	١١
- تعريف الوحي لغة واصطلاحاً	١١
- صور الوحي	١٣
- صدق ظاهرة الوحي وشواهد صدقه	١٥
- نزول القرآن والحكمة من تنجيمه	١٦
- جمع القرآن الكريم وتدوينه	١٩
- القراءات القرآنية والقراء، والأحرف السبعة	٢٥
- تعريف القراءات وعددها	٢٥
- طبقات الحفاظ المقرئين	٢٦
- نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف وعلاقتها بالقراءات	٢٩
تعظيم قدر القرآن الكريم	٣١
١) مكانة القرآن الكريم	٣١
٢) خصائص القرآن الكريم	٣٢
٣) مضمون القرآن الكريم وما اشتمل عليه من موضوعات	٣٤
٤) سبيلنا نحو تعظيم قدر القرآن الكريم	٣٥
٥) كيفية البحث عن آية أو موضوع قرآني	٥٠
الإعجاز في القرآن الكريم، تعريفه ومعناه، وأوجهه	٥٢
معنى الإعجاز لغة واصطلاحاً	٥٢
بقاء الإعجاز واستمراره	٥٥

الموضـــــــوع الصفحة

١ـ الإعجاز البياني ٥٦
٢ـ الإعجـــاز الغيبي ٦٠
٣ـ الإعجاز التشريعي ٦٠
٤ـ الإعجاز العلمي التجريبي ٦٢
٥ـ الإعجـــاز النفسي ٦٥
القسم الثاني: التفسير ٦٧
أهمية علم التفسير ٦٧
تعريف علم التفسير ٦٧
طرق التفسير وأنواعه ٦٧
سورة الحجرات ٦٩
تسميتها ٦٩
مناسبتها لما قبلها ٦٩
المعنى العام للسورة ومقاصدها وما اشتملت عليه من آداب ٧٠
شرح الآيات حسب تسلسلها ٧٢
- المقطع الأول ٧٢
- المقطع الثاني ٧٤
- المقطع الثالث ٧٨
- المقطع الرابع ٨٢
- المقطع الخامس ٨٥
- المقطع السادس: النهي عن الظن السيئ والتجسس والغيبة ٩٠
- المقطع السابع: التفاضل عندالله بالتقوى ٩٥
- المقطع الثامن: بيان أصول الإيمان الصحيح وقيمته ٩٩
- المقطع التاسع: صفات المؤمنين ١٠٢
- المقطع العاشر: النهي عن المن ١٠٥
القسم الثالث: السنة النبوية وعلومها ١٠٨
مكانة السنة النبوية ومنزلتها ١٠٨
- تعريف السنة في اللغة والاصطلاح ١٠٨
- مكانة السنة في التشريع الإسلامي ١١١
- الأدلة على مكانة السنة ١١٢

الموضـــــــوع	الصفحة
- مكانة السنة بالنسبة للقرآن	١١٥
- جهود الصحابة الكرام رضوان الله عليهم في تلقي السنة النبوية وروايتها	١١٨
عناية المسلمين بالسنة النبوية وعلومها	١٢١
١ـ كتابة الحديث في العهد النبوي	١٢١
٢ـ كتابة الحديث في العهد الراشدي	١٢٢
٣ ـ تدوين السنة النبوية في العهد الأموي	١٢٤
٤ ـ تدوين السنة النبوية في العهد العباسي	١٢٥
٥ـ تصنيف الحديث وظهور الكتب الستة في القرن الثالث الهجري	١٢٥
٦ ـ منهج المحدثين في توثيق السنة	١٣٠
٧ ـ ثمرة علوم الحديث وفائدة تقسيم الحديث إلى مقبول ومردود	١٣٢
٨ ـ معرفة كيفية البحث عن حديث ما، وتخريجه بإيجاز	١٣٤
معرفة كيفية البحث عن حديث	١٣٥
واجبنا نحو رسول الله ﷺ وسنته	١٣٨
- تعظيم كلام النبي ﷺ	١٤٠
- التثبت في فعل السنة	١٤٢
- واجبنا نحو أصحاب رسول الله ﷺ وآله الكرام	١٤٥
القسم الرابع: الاجماع والقياس والاجتهاد والفتوى	١٥٢
المصدر الثالث: الإجمـــاع	١٥٢
- أدلة الإجماع من الكتاب والسنة والآثار	١٥٢
- أنواع الإجماع	١٥٤
- شروط الإجماع	١٥٤
- حكم الإجماع	١٥٥
المصدر الرابع: القياس	١٥٦
- تعريفه لغة واصطلاحاً	١٥٦
- أدلة القياس	١٥٦
- أمثله على القياس	١٥٧
- أركان القياس	١٥٨
الاجتهاد	١٥٩
- تعريف الاجتهاد لغة واصطلاحاً	١٥٩

الموضـــــــوع الصفحة

- مشروعيته، وما يجوز الاجتهاد فيه وما لا يجوز ١٥٩
- شروط المجتهد ١٦٠
- حكم الاجتهاد ١٦٣
الفتـــــوى ١٦٥
- تعريف الفتوى لغة واصطلاحاً ١٦٥
- شروط المفتي وصفته وآدابه ١٦٥
- الاجتهاد الجماعي والمجامع الفقهية ١٦٨
القســم الخامس: دراسة عشرة أحاديث ١٧٠
الحديث الأول: الأعمال بالنيات ١٧١
الحديث الثاني: جبريل يعلمنا أمور ديننا ١٧٦
الحديث الثالث: من دعا إلى هدى أو ضلالة ١٨٣
الحديث الرابع: رد محدثات الأمور ١٨٧
الحديث الخامس: التحذير من الاغترار بزهرة الدنيا ١٩١
الحديث السادس: فضل من استبرأ لدينه ١٩٧
الحديث السابع: فضل من عَلِم وعَلّمَ ٢٠٢
الحديث الثامن: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٠٧
الحديث التاسع: احفظ الله يحفظك ٢١٠
الحديث العاشر: تحريم مكــة ٢١٥
قائمة المصادر والمراجع ٢٢٢
فهرس الموضوعات ٢٢٦